

روايات
قصيرة
أشرف العشماوي
مواليد
حديقة الحيوان
ساحر الكتب

العشماوي، أشرف.
مواليد حديقة الحيوان: روايات قصيرة/ أشرف العشماوي .– ط3.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.
256 ص؛ 20 سم.
تدمك: 8 – 480 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية القصيرة.
أ– العنوان. 813.01
رقم الإيداع: 11751 /2024

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + – ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعات: الأولى – الثانية – الثالثة: 2024م

تصميم الغلاف الفنان: أحمد مراد

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

"لا يمكنني تأكيد أن الأحداث حقيقية، وفي الوقت ذاته لا أستطيع النفي"

كابينة لا ترى البحر

1

تجدها في كابوس

كل شيءٍ كان عاديًا حتى ماتت أمي، امتدت يد غليظة واعتصرت قلبي حتى مزقته وتركته ينزف مشاعره الحزينة. بكيت صامتًا مثل العشرات الذين يسيرون بجواري وخلفي في جنازتها، يحاولون تخفيف آلامي وإيقاف دموعي، لم أحس بالشعور ذاته يوم أخبروني بوفاة أبي، كنت على مشارف الرابعة من عمري، ومثل كثير من الأطفال في هذه السن المبكرة لم أشعر بمرارة الموت مع حلاوة الأيام، صحيح حكت لي أمي كثيرًا عنه، لكن بعدما كبرت، وقبل أن ترحل هي بشهور قليلة، فشعرت طوال الوقت بأنني أعيش فاصلًا زمنيًا بين الحزن والسعادة، ولا أستطيع ترجيح الكفة بينهما جيدًا.

"ربنا يرحمها.. ارتاحت".

جملة سمعتها مرارًا طوال سير طابور الجنازة، كأن ملقنًا اتفق عليها مع المشيعين ولا يملون من ترديدها. مرض أمي أدخلها في غيبوبة غيّبتها عنّا عدة أسابيع، لكنها مهدت الطريق لرحيلها وخففت الأحزان التالية مقدمًا، كأننا سددنا قسطًا من مشاعرنا طوال فترة تعبها. رغم ذلك لم يمنع المرض عنّا مفاجأة الفراق المتوقعة، ولا نجح في إزاحة

مشاعرنا المكبوتة، تدفقت أحزاني كفيضان، وأجهشت بالبكاء لمرة رابعة أو خامسة ونحن نُخرج جثمانها من النعش ونهبط به إلى حجرة الدفن.

حرصت على النزول رغم اعتراض جدتي، غمرني شعور بالسّكينة وأنا أقف بالغرفة الحجرية المصمتة، أسمع أصوات المشيعين ولا أميزها، أرى أمي راقدة في كفنها الأبيض، والتُّرَبي يعمل في هِمّة بملامح محايدة، توحّد الرجل مع الموت حتى صار جزءًا من طقوسه، وجال بخاطري أنه ربما تصعب عليه الحياة إذا ما خرج من المقبرة.

مسح التُّربي جبهته، وأعلنت ملامحه المرتاحة وصولنا إلى المحطة الأخيرة، ردد بعض أقاربي الدعاء جهرًا، وتمتم آخرون بأدعية غير مسموعة، ملامحهم موحدة، مُتشحة بالحزن، غالبًا سيخلعونه عندما يصافحونني ويشدون على يدي مُغمغمين بالعبارات النمطية إياها.. "شِد حيلك"، "آخر الأحزان"، "البركة فيك".. بينما كل دوري أن أهز رأسي كبندول متأثرًا بكلماتهم.

تلقيت التعزية واقفًا بعد جدي لأمي بمسافة واسعة لا أعرف لها سببًا، حرص بعض أقاربنا على تنبيهي إليها كلما غفلت عنها، وكأن أمي ستدخل النار إذا وقفتُ في المكان الخطأ، لعلها ستذهب إلى الجنة لو اتبعت نصيحتهم، فأحد الناصحين مُلتحٍ ومُعمَّم، يرتدي جلبابًا بنيًا ويمسك بمسبحة طويلة كذيل حصان عربي.. ففعلت ما أمروني به شبه مقتنع.

عندما عدنا للبيت انهارت أختي حياة، فصمم جدي على تركنا البيت في اليوم نفسه والعيش معه بدلًا من انتقال جدتي إلينا، رحلنا مثل لاجئين تائهين نحمل حقيبتين كبيرتين، وثلاث أخريات متوسطات، تركت بعض حاجياتي عندما أخبرني جدي أن لا لزوم لها، ونسيت أخريات بسبب تعجلي، وبكاء شقيقتي، وتوتر جدي، وملاحظات جدتي التي لا تنتهي، تتكلم كثيرًا عن المهم والأهم، تمط شفتيها في نهاية كل جملة تقولها كأنها لا تروق لها وتريد العدول عنها، ممَّا أفقدني أي إحساس بأهمية الأشياء وربما كثير من الكلمات. تعجلونا لمرة ثالثة في عصبية، كأننا على وشك اللحاق بسفينة نوح ولم يتبقَّ ذكر وأنثى سوى أنا وشقيقتي، فركبنا مجبرين.

في اليوم التالي أقام جدي سرادقًا كبيرًا في نهاية شارع الوحدة بإمبابة حيث يعيش، أو نعيش، فالمسافة بين بيت أمي وبيته نقطعها سيرًا على الأقدام في دقائق معدودات، وقفت بالسرادق مرتديًا بدلة سوداء واسعة للغاية لا أعرف من أين أتت بها جدتي، يفوقني جدي حجمًا فلا يمكن أن تكون قد ضاقت عليه، شككت أنها فُصِّلت لي خصيصًا، فنصفها السفلي كان مضبوطًا على مقاسي، لكن أكمامها تغطي كفَّيّ وتفيض، فاضطررت إلى ثنيها أربع مرات، بدوت مثل مطرب شعبي على وشك بدء فقرته بقميصي الأبيض المفتوح عند الصدر بسبب فقدي بعض أزراره. هيئتي لا تتفق وجلال الحدث، ولا تتماشى مع أحزاني، لكني تماسكت ولم

أبادل زملاء المدرسة الابتسام، نتراهن دومًا على إضحاك بعضنا في المآتم، لكنني اليوم حزين ولن أشاركهم اللعبة، ورغم أنني نهرتهم مرتين عن الضحك، إلا أنهم تمادوا حتى غابوا عن نظري بعدها، وعرفت في اليوم التالي أنهم خرجوا مطرودين بإشارة من جدي لأحد معاونيه من عمال المقهى، الذين شاركوا مع صاحبها في إحياء الليلة بتقديم المشروبات مجانًا وتنظيم الجلوس بالسرادق.

قبل مرور شهر على رحيل أمي فاتحني جدي في مسألة العمل في فصل الصيف الذي لاحت نسائمه، تعهد بتدبير وظيفة مناسبة لي، وبدا غير متحمس لاستكمال تعليمي، أعاد على مسامعي عبارات نمطية اختارها بعناية، يبدو أنه تدرب على إلقائها بطريقة مسرحية.. لا أحد يعمل بشهادته، وشقيقتي نهايتها الزواج وتربية الأطفال، ثم ضرب مثلًا بنفسه، حكى قصة كفاحه وسفره إلى ليبيا مرتين حتى خروجه إلى المعاش، ورغم أنه لم يُكمل تعليمه، إلا أنه صعد للقمة، كدت أسأله إلى أين صعد تحديدًا ونحن نعيش في إمبابة التي ولدنا بها، وأغلب الظن سنموت فيها، الصعود الوحيد الذي شهدناه مؤخرًا هو ما قامت به أمي منذ أسابيع في طريقها إلى السماء، لكني خفت غضبته، ولأني أريد استكمال دراستي استنجدت بجدتي عبر جسر طويل من نظرات الشفقة، لكنها هدمته بتنهيدة يائسة، ثم أشاحت بوجهها، ولاحظت في الاستدارة الأخيرة أن دموعًا ترقرقت في عينيها.

جدتي طيبة لكنها تَهاب جدي، عاشت معه أكثر من نصف قرن ولا إشارة بقرب الوصول لمحطة النهاية، صحتهما لا تزال جيدة رغم أنهما على مشارف الثمانين، خلاف أمي التي اقتُطفت قبل الأوان.

رضخت لأمر جدي بشأن العمل في الصيف، ولم أفاتح حياة في أمر جلوسها بالبيت وعدم استكمال تعليمها، شَغلها حِجاب الرأس الذي اقترحه جدي عليها بصيغةٍ أقرب للأمر، مصحوبةٍ بعِدّة طُرح ملونة على سبيل الهدية من جدتي لزوم الإقناع، ولمّا تأخرت حياة عن تغطية رأسها، أطلق جدي رصاصته الأولى والأخيرة في آنٍ كعادته، ألزمها بارتداء الحجاب قبل صلاة العصر وإلا لن تغادر البيت، ولمّا عاد ووجدها ترتديه ندت منه ابتسامة غائمة، لكنها تعني في قاموسه القبول.

أقبلت حياة وقبّلت يده ممتنة، لوهلة لم أتعرف عليها.. ظننتها أمي، التي كانت تغطي رأسها في شهورها الأخيرة بعد سقوط شعرها عقب إصابتها بالسرطان.

تعجبت من قرار جدي بفرض الحجاب على شقيقتي، لم يكُن منغلقًا أو متزمتًا، لكنه مثل كثيرين متدين بالفطرة، يسير مع القطيع لضمان العشب كما قرأت في مقال لكاتب لا أتذكر اسمه حاليًا. أظهرت دهشتي، ويبدو أن علامات الاستفهام تسلقت ملامحي، فلمحها جدي بوضوح، وقال بصرامة:

- البلد اتغيرت والناس ديابة وأختك كبرت.

أهدانا جدي عبارة نمطية من عباراته الكثيرة التي تجلب

النعاس وعلينا الطاعة، طوال عمره لا يُجيد فن الابتسام، ويأخذ الحياة على محمل الجد أكثر ممّا تحتمله الحياة ذاتها.

تأملت ملامح شقيقتي فاكتشفت أنها تشبه ملامح أمي الجميلة إلى حد كبير، لكن جسدها الفائر وطولها الذي يفوقني ببضعة سنتيمترات يُضفيان عليها أنوثة، ويُضيفان سنوات لعمرها، فيتقدّم لها مَن يريد الزواج منها، ويعتذر جدي لصغر سنها، مع أنها أكبر منّي بعام وبضعة شهور.

الآن تفهمت حيرة شقيقتي حياة، حبيسة هي في المسافة الفاصلة بين الطفولة والأنوثة.

لخصت جدتي الموقف بحكمة عندما قالت:

- البت ريالتها على سِدرها.. والرجالة من عماهم مش شايفين غير بزها.

جلست مبتسمًا كاتمًا ضحكتي على أمثال جدتي التي تُطلقها كل حين، لكني لا أتفق معها هذه المرة، شقيقتي حياة ليست طفلة ساذجة، نظرات عينيها وردودها على جدتي، ومن قبلها أمي، تشيان ببجاحة ملجومة لم تجد مساحة رحبة لتنطلق فيها بعد، وجلوسها بالساعات دافسة رأسها في هاتفها المحمول لتسجيل مقاطع مصورة لا يصدر عن فتاة قليلة الخبرة، كل الصور خادعة فعلًا كما يقول جدي.

جلست حياة ملاصقة لي، قرصتها من فخذها لتضحك حتى ينهرها جدي الذي لا يحب الضحك بلا سبب، كأن كل شيء في حياتنا لا بد وأن يكون مسببًا، مع أن أجمل الأشياء

هي التي تأتي عفوية كما أخبرتنا أمي، لكن حياة تماسكت، زحزحت فخذيها لمسافة قليلة لتلتصق بجدتي، التي احتوتها وراحت تربت رأسها، فيما يبدو تنبهت إلى أننا وحدنا في البيت، فاستعطفت جدي كي تخلع حياة الطرحة، أذن لها على مضض بإشارة من يسراه وهو في طريقه لدورة المياه، معلنًا عن إقامة طويلة علينا أن نتحمل تبعاتها، اصطحب جريدته وقلمه معه، فدعونا سرًّا في وقتٍ واحدٍ أن تكون الكلمات المتقاطعة اليوم سهلة الحل، تبادلنا ابتسامة خبيثة عندما انغلق الباب وانفجرنا ضاحكين، حتى أشارت لنا جدتي بكفها كمايسترو لكي نخرس.

***

قرب منتصف الليل تسحبت كقط يعرف هدفه ودخلت حجرتي، أحكمت غلق الباب ثم الستائر، خلعت ملابسي كلها وغطيت جسمي بملاءة خفيفة أنعشني ملمسها البارد فأثارني أكثر، خلعت نظارتي فتشوشت الرؤية بسبب ضعف نظري، وجهت رأسي ناحية السقف ثم أغمضت عينيّ مبتسمًا، يبدو لي بدهانه الأبيض مثل شاشة سينمائية ضخمة تعرض ما أبثه إليها، شاشة خاصة بي وحدي، وقودها خيالي، ها هي ممثلة الستينيات والسبعينيات، الجميلة الشقية، عارية مثلي، تُبادلني القبلات وتتحسس جسدي، تُناديني باسمي في دلال وتبتسم بغنج، ابتسمت لها، ثم قفز أمام عينيّ عبد الحليم حافظ بملامحه المستكينة، وصوته الدافئ، ومشاعره الفياضة، آه لو رأى ما أفعله الآن مع النجمة المشهورة! مؤكد

سيندم أشد الندم على أنه اكتفى بالغناء لها.

فجأة دوت طرقات هائلة على باب حجرتي هرب معها عبد الحليم والنجمة الشهيرة وأظلمت الشاشة.

أضأت النور وأغلقت السينما في رأسي عندما علا صوت جدي متوعدًا، قرر أن يفضحني كعادته، مؤكدًا معرفته بما أفعله وأنه سبب ضعف نظري، تعرقت من كل مَسام جسدي، وضعت جلبابًا فوق جسمي بغير ملابس داخلية وعلا صوتي مُكبرًا.. ثم كررتها:

- الله أكبر.

سكت جدي لكن على وقع خطواته الثقيلة سَمعت جدتي تعاتبه في لين لأنه ظن بي سوءًا بينما أنا أصلي، ألصقت أذني بالباب حتى تأكدت من ابتعادهما وسمعت صوت باب حجرتهما يُغلق، خلعت جلبابي وقفزت عاريًا في فراشي، أغمضت عينَي وأدرت السينما، هذه المرة لم أرَ النجمة السينمائية ولا العندليب، حاولت وفشلت، لكن قبل أن أفتح عينَيّ لمحت مارلين مونرو قادمة نحوي، تناديني بلكنة أمريكية خالصة، فاتسعت ابتسامتي من جديد.

***

2

نصف ذكريات

حملت حقيبة ذكرياتي فوق ظهري ومضيت باتجاه باب الخروج، اليوم يُسلِّم جدي شقتنا لمالك البيت بعد انتهاء عقد الإيجار بوفاة المستأجرة، تلك الزيارة كانت الأخيرة لمنزلي، قبل خروجي جذبت صندوقًا خشبيًا لمحته بالصدفة داخل السّندرة، احتفظت به أمي لسنوات ولا أعرف محتواه، عندما حاولت زحزحته سقط فوق رأسي، وقعت وشجت جبهتي، ظننته نزفًا خفيفًا فلم أحمل له همًا وانشغلت في جذب القفل بقوة، ومع انفراج مزلاجه تدافعت مئات الصور كفيضان، لطخت بعضها ببقع من دمائي، غبت عن الوعي لدقائق قليلة كما أفهمتني حياة بسبب شدة الإصابة برأسي. أفقت متيبسًا متكاسلًا كأنني لبثت في إغماءة لبضع سنين، طهرت حياة جروحي وجلسنا القرفصاء متقابلين نعيد ترتيب الصور القديمة ونتأملها، أضعنا وقتًا طويلًا، رغم أننا لا بد وأن نلملم كل ما تركناه سهوًا أو عمدًا بشقة إمبابة التي تتأهب لتصبح واحدة من ذكرياتي.

صور أمي منفردة كانت الأكثر مشاهدة، تليها صور جدي وجدتي، ثم صور لأمي وأبي على شاطئ الإسكندرية، مع ذلك ظلت صورة زفافهما تتصدر المشهد بالنسبة لشقيقتي حياة، في حين جذبتني صور المصيف أكثر.

حملت أمي ألقابًا كثيرة في رحلة حياتها لا تليق بوداعتها

وبراءتها في الصورة وإقبالها الشديد على الحياة، آنسة وسيدة وزوجة ومطلقة وموظفة ومريضة ومستأجرة، والآن مرحومة.

أخرجتني حياة من شجوني وهي تُريني صورة لأبي يلعب الراكيت على شاطئ البحر، عضلات ذراعيه المتناسقة مع خصره الملموم وصدره العريض تُظهر بوضوح شبابه وحيويته، بدأت صور المصيف تعود للصدارة خاصة أنها الأكثر عددًا، اندمجت معها وغُصت فيها حتى شعرت بحرارة الرمال ورذاذ البحر، كل زاوية وكل لقطة تكاد تنطق، رائحة الطعام ومذاقه، السعادة والرضا على الوجوه، البساطة والانسجام، الكل يشبه بعضه، سيمفونية متناغمة.

- كل الصور خادعة.

قطعت حياة خيط شجوني بعبارتها تلك، لطمتني بها، ففرضت قيودًا سخيفة على عقلي، ذات العبارة التي يرددها جدي وهو يتصفح صفحة الحوادث بالجرائد والمجلات، ولا تكف حياة عن ترديدها من بعده.

فجأة علا صوت من فوقنا كالنهيق:

- يلا يا خويا مِنك لها علشان ورانا أشغال.

خرجنا مطرودين وصفق مالك البيت باب الشقة وراءنا، وأد مشاعري في لحظة فارقة. انطبع مشهد النهاية بذاكرتي، مجرد ثوانٍ لمحت فيها جزءًا من الصالة الخاوية، إلا من مقعد بثلاثة أرجل، أغلق الرجل الباب على ذكرياتي قبل أن ألملمها،

كأنه يحاول محوها ويظن أنه سيفلح، لا يدري أنني أحمل أهم ما تبقى لي من أمي وبعضًا من أبي.. صندوق الصور.

صحونا على قرارات جديدة من جدي فاجأنا بها، حياة ستعمل هذا الصيف مع جدتي في خياطة الملابس بالبيت. بدا القرار أشبه بقُبلة حياة مؤقتة لشقيقتي، على الأقل لن تحتاج لارتداء الحجاب الذي فرضه عليها، أما أنا فقد ارتأى لي العمل بمصانع أو شركات الباشا، عضو البرلمان والوزير السابق ورجل الصناعة والتجارة والسياحة، والذي عمل جدي لديه خمسين عامًا بمصانعه في مصر وليبيا.

-على الأقل تشغل وقتك بحاجة مفيدة وتحافظ على صحتك.

لويت شفتي بامتعاض ولم أدخل في جدال معه، الليلة "أربعين" أمي كما قالت جدتي، لا مجال لمناقشة قرار جدي السخيف، فدخلت لأنام مبكرًا هربًا من موجات الحزن التي أغرقت بيتنا فجأة، لكن في هذه الليلة تركت النور مضاءً، قررت إغلاق السينما الخاصة بي.. الليلة أنا حزين.. الليلة حداد، ولن أمارس فيها الجنس.

***

في بهو فسيح انتظرنا لأكثر من ساعة كأنهم يختبرون صبرنا، ثم سمحت لنا بالدخول سكرتيرة لطيفة، ذات صدر مترجرج بصورة لافتة، شعرت بنظرات جدي تخترق جمجمتي، كاد يصفعني بسبب تركيزي على نهديها، تظاهرت

بالشرود كي أبعد الفكرة عن رأسه ونجحت بعد حين. استقبل الباشا جدي بترحاب مبالغ فيه بالنسبة لموظف بسيط بمصانعه وخرج للمعاش، قام من وراء مكتبه وجلس معنا في صالون صغير، مقاعده تبعث استرخاءً يجلب النوم على أجنحة تهدهده، ضايفنا بنفسه من ثلاجة صغيرة في متناول يده، تحوي الكثير من الزجاجات المبردة، بعضها بلون أخضر لم أتبين نوعه، لكني لمحت الكثير من قطع الشوكولاتة الفاخرة، لاحظ الباشا نظراتي النهمة فمنحني قطعتين، وحتى لا يحرجني أشار إلى أن الثانية لشقيقتي.

عاملني الباشا بلطف مبالغ فيه وهو يربت رأسي وكأنني طفل، رغم أنني كنت وقتها على مشارف السادسة عشرة من عمري، ربما ظن أنني أصغر بسبب قصر قامتي. جلست تاركًا مسافة احترام، دار بينهما حوار طويل، وانشغلت بتجرع زجاجة مياه غازية باردة لمرة ثانية، محاولًا كتم أنفاسي كي لا أتجشأ بصوتٍ عالٍ ويتوعدني جدي. تشعب الحديث بينهما عن ذكريات العمل والزمن الجميل، الباشا يحكي بينما يكتفي جدي بالابتسام في تحفظ، يهز رأسه مثل فتاة خجلة في فترة الخطوبة، طالت الجلسة ومسّني الملل فتناولت نصيب حياة من الشوكولاتة، لكني انتبهت مرتين لكلامهما، الأولى عندما عرض الباشا على جدي أن يعود للعمل إذا كان يشعر بفراغ، مؤكدًا أن فترة سفره إلى ليبيا لن تتكرر بمشكلاتها، مستشهدًا بالسفرة الأخيرة وكيف ارتاح فيها جدي عن الأولى. ثم ضحك بصوتٍ عالٍ وحده وهو يمازح جدي:

- خلاص قفلنا فرع ليبيا يا عبد العظيم ما تقلقش.

لم يمنحه جدي مجرد ابتسامة عابرة بل زاد عبوسه، بينما سرحت قليلًا، لا أتذكر شيئًا عن تلك السفرة التي غاب فيها جدي هناك لسنوات، لكن في الثانية وعلى الرغم من أنني كنت صغيرًا، أتذكر عتابًا سمعته عنها من جدتي ذات مرة بعد عودته من السفر، وصفتها بأنها غربة بلا عائد، فلم تتحسن أحوالهما المالية كما توقّعت، وظلت تمارس أعمال الحياكة والتطريز رغم ضعف عينها اليمني، أيضًا علا صوت أمي بسبب سفره في المرة الثانية وتشاجرت معه بسببها، وبعدها غادرت بيت جدي ولم تدخله حتى ماتت، لكنها لم تفصح عن الأسباب، أما أنا فكل ما جنيته من رحلة ليبيا أن أهداني جدي دراجة حمراء، وكرة موقعة من محمود الخطيب، مع أني لم أسمع أنه لعب لنادٍ في دوري ليبيا أو حتى غيرها، بل حتى لم أشاهده في الملاعب، لكنه اللاعب المفضل لدى جدي.

غادرت ذكرياتي مؤقتًا عندما أطال جدي الرجاء للباشا، يبدو أنه نسي كبرياءه في البيت وهو يطلب منه توظيفي بأحد مصانعه.

- أي وظيفة والسلام أبرك له من الدراسة. هو مش فالح أصلًا وبينجح بالضالين.

قالها متوسلًا، ورغم أن الباشا لم يرفض صراحة فإنه لم يقبل بوضوح، تحجج بصغر عمري، ثم سكت فجأة وكأن

الكلام انتهى وحان موعد انصرافنا، هنا أخرج جدي الكبرياء من جيبه كساحر وأطلقها في الهواء، اعتدل بجلسته شاكرًا وهو يهم بالنهوض، إلا أن الباشا فاجأنا بسؤال عمّا إذا كنّا نريد أي شيء كي يلبيه لنا مؤقتًا خلاف الوظيفة التي تحتاج إلى بعض الوقت لتدبيرها بسبب حداثة سني.

بدا الباشا مثل جني المصباح السحري الذي خرج منه دون الحاجة حتى لفركه، تذكرت في اللحظة ذاتها وعد أمي في فترة إفاقة خافتة أثناء مرضها الأخير، تحدثت عن رغبتها في اصطحابنا للمصيف هذا العام بالساحل الشمالي، بدلًا من شقة العصافرة التي نستأجرها لمدة أسبوع أو اثنين في شهر يونيو باعتباره الأرخص سعرًا. انبريت قائلًا للباشا وكأنها أمنية حياتي الوحيدة:

- بصراحة نفسي أصيف في الساحل الشمالي، أسمع عنه ولا عمري شفته وماما الله يرحمها وعدتنا..

لم يمنحني جدي فرصة لسرد أحلامي، نهرني بعنف كي أخرس ومد كفه للباشا منهيًا اللقاء، لكن قبل أن يخفت الأمل أجلسنا مُعاتبًا جدي على تعجله، ثم ضغط زرًا صغيرًا بجواره مبتسمًا كرضوان حارس الجنة وهو يفتح بابها للموعودين، ظهرت السكرتيرة فتماديت في تأمل نهديها باعتبار أن جدي نوى عقابي ولا عقاب مرتين مهما تعددت الأفعال، سأنال توبيخًا بسبب طلبي من الباشا التصييف في الساحل الشمالي، وبالطبع سيضاعف الجزاء من أجل نظراتي للنهدين، لا بأس إذن من نظرة أخيرة تعينني على ممارسة

العادة السرية بوجه جديد، فقد مللت نجمات السينما كلهن، ولا وجوه جديدة في مصر منذ فترة، ربما كانت لدى السينما أزمة في تلك الفترة ولا أدري.

وضع الباشا ساقًا فوق أخرى وقال بأريحية لسكرتيرته:

- هاتي لي مفاتيح فيلّا الساحل الشمالي القديمة وتصاريح الدخول.

ثم أضاف وهو ينظر في الفراغ كأننا غير مرئيين:

- تصدق يا عبده إنت خدمتني بحفيدك الجميل ده؟ ماحدّش فينا بيروح فيلّا الساحل من سنين، الولاد يا سيدي بيحبوا يصيفوا في اليونان، وأغلب أصحابنا اشتروا بيوت في الجونة وإسبانيا، وبيني وبينك المصيف اتغير كتير عن زمان.. كل حاجة اتغيرت.. كل حاجة يا عبده.

لم يكن عبده هذا سوى جدي البائس الكبير عبد العظيم حنفي فتح الباب، الذي ظل يتعرق رغم منافسة برودة هواء جهاز التكييف لثلاجة خضراوات مجمدة، وبما أنه ليس صديقًا حميمًا للباشا فلن يجد ما يقوله، لم يذهب جدي للساحل الشمالي ولا حتى الجنوبي، فقط يسمع عنه مثلي، أساطير ثروى وتُنسج كل صيف عن هذه الأماكن وحفلات السهر والنساء العرايا على الشواطئ، جنة تُراق فيها أنهارٌ من الخمور كل ظهيرة حتى غروب الشمس، ومن منتصف الليل حتى مطلع الفجر، كما يقول حمودة سائق التوك توك نقلًا عن مصدر موثوق فيه، عرفت فيما بعد أنه عجمي شقيقه الذي

يعمل شفرجيًا بإحدى الفيلات هناك.

اتسعت دهشتي وأنا أرى كروتًا ممغنطة أفهمنا الباشا أنها مفاتيح الفيلّا، كنت أتوق لدخول الجنة حتى ولو سأطرد منها بعد أول تفاحة، ومع موافقة الباشا بدأت أتخيل السرايا التي سيعطيها لنا كمنحة للتصييف، تصورت أنها في قلب الماء لا بالصف الأول فقط، سأخبر جدتي بأن تلك مكافأة نهاية الخدمة أو تعويض عن سنوات الغُربة التي قضاها جدي في ليبيا، التي مجرد تذكرها أو ذكر سيرتها يؤلمه ويعكر مزاجه.

- بلاش تحبّكها بقى يا عبده.

هدأت عاصفة جدي بعد كلمات الباشا، ظل يهز رأسه بلا معنى مثل درويش في حضرة، في حين استرسل الباشا في الحديث عن جزر اليونان وفيلته الجديدة بمنتجع لم أستطع التقاط اسمه الأجنبي بسهولة، فمدرستي الحكومية منحتني لغة إنجليزية كسيحة، تضُر أكثر ممّا تنفع، وتجلب السخرية إذا ما تحدثت بها أمام آخرين.

رماني جدي بنظرة، ترجمتها في عقلي إلى "صبرك عليّا لمّا نروح يا ابن الكلب"، لكني تظاهرت بالبراءة.

سلّمتنا ذات النهدين ثلاثة كروت تحمل اسم الباشا ورقم الفيلّا والقرية التي سنقيم فيها، ثم فتح الرجل خزانة بجواره وانشغل بحشو ظرف كبير بالنقود حتى أصابه بالتخمة وسلّمه لجدي، أغمضت عينَي متوقعًا التعفُّف مصحوبًا بعبارات نمطية عن الستر وعدم الحاجة، إلا أن جدي فاجأني

بدس المال في جيب سترته وهو يُصافح الباشا ممتنًا، بل كاد ينحني كرقم ثمانية وهو يردد عبارات الشكر حتى غادرنا المكتب.

- رجل أعمال.

أجاب جدي سؤالي باقتضاب لمّا استفسرت منه عن عمل الباشا، لم يحدد طبيعة الأعمال ولا تفاصيلها، الحقيقة أن التعميم مطلوب، فمنذ دخلنا الشركة وعيني تصافح لافتات وإعلانات بحجم فيل صغير عن مجموعة الباشا للمقاولات، وشركة الباشا للسياحة، ومثلها مقتصرة على الدينية، وثالثة للسمسرة وأوراق البورصة، ورابعة للحديد، ثم لفت نظري إعلان بعرض جدارية لم ينحت المصريون القدماء مثلها، تُنبئنا أن الباشا يختلف عن الآخرين، ولأنه مختلف فبالضرورة تكون الحياة في مدينة الباشا السكنية مختلفة.. هكذا أخبرنا الإعلان الضخم.

انشغلت بالحروف الأولى المكتوبة باللاتينية اختصارًا لاسم الباشا صاحب الشركة التي يتخذ منها شعارًا للمدينة السكنية، يتشابه اسمه مع اسم جدي في أول مقطعين فقط، ربما لهذا السبب أنعم عليه بالبكوية طوال جلستنا، ثم تعطف علينا بشاليه الساحل الشمالي.. ربما.

غدت أسأله عن رحلة ليبيا التي غاب فيها عنّا مرتين، فانزعجت ملامحه واكتفى بكلمات ثلاث: "أيام راحت لحالها"، سألته عن تفسيره لحماس الباشا في تسليمنا شاليه

بالساحل الشمالي بسهولة إلقاء عُقب سيجارة، فلم يُجبني، تذكرت أن جدتي تردد كثيرًا أن الأغنياء يُصيبهم الملل من كثرة المال، ومن فرط الزهق يوزعون ثرواتهم أحيانًا على آخرين بغير حساب وكأنهم ربحوا اليانصيب.. ربما يكون تفسيرها هو الأقرب للصحة.. لست أدري.

***

3

طريق ممتد من الإسكندرية إلى مطروح

على مدار اليوم ظل مزاج جدي رائقًا، فيما يبدو عدل عن توبيخي، ربما كان يحتاج لهذه الرحلة إلى الساحل الشمالي، وربما للسبب ذاته أسقط عنّي عقوبة النظر للنهدين. لمحته يجلس في ركن الشرفة متواريًا عن المارة يدخن باستمتاع، غالبًا هي إحدى سجائر الحشيش التي يتعاطاها كل يوم، ونتظاهر جميعًا بأننا فقدنا حاسة الشم مؤقتًا حتى يفرغ منها. لمّا انتهى من آخر نفس طلب من جدتي الاستعداد للسفر إلى الساحل الشمالي، لمحت فرحة طفلة بعينيها وهي تسأله عن موعد سفرنا، أجابها بأي وقت تريد، تلك رفاهية المالك الذي يذهب لشاليه صيفي على البحر، بدا الأمر صعبًا على فهمها، لكن مع تدفق الأسئلة والإجابات بتنويعات مختلفة وصلها قليل من شعور المالك، وبدأت تجهز لرحلتها بالطلبات دون أن تغفل المصروفات فأسكتها بعد ثلاثة منها، مكتفيًا بإبراز ظرف النقود، مُعقبًا بنبرة واهنة وهو يخلع نعليه ليمدد جسده الطويل المنهك:

- الباشا اتكفّل بكل مصاريفنا.

وزنت جدتي ظرف النقود بكفّها ثم قالت بسخرية:

- ده إحنا ممكن نصيّف بقية حياتنا يا عبده، الظرف فيه فلوس أكتر من اللي أخدتها في ليبيا.

لم يُبادلها حتى الابتسام، تعكر مزاجه وراح أثر الحشيش على ما يبدو، نهضت جدتي لإعداد حقيبة مصيف لا تعرف له موعدًا بعد، لكنه على الأرجح في الغد القريب.

اقتربت من جدي منتهزًا الفرصة، إعادة ذكر ليبيا على لسان جدتي وتقلبه من السيرة جعلاني أكثر جرأة، الموضوع يُثير فضولي، وكلما نسيته تقافز أمامي على ألسنة آخرين، اخترت مقدمة تمهيدية عن وظيفته السابقة التي يتمسك الباشا بعودته إليها حتى أنفذ منها إلى سفرة ليبيا، لكنه قال كلامًا كثيرًا عن الأمانة والدّقة في العمل والسّرية المطلوبة لإتمامه، ندمت على طرح سؤال يحتمل المزيد من الإجابات النمطية والعبارات المستهلكة، وحوّلت رأسي لبندول لعله يفهم أنني اقتنعت فيسكت، لكنه انفتح في الحديث حتى نمت وسط كلامه منهكًا.

***

بعد يومين من المفاوضات المضنية أفلحت حياة بخبثها في إقناع جدي بخلع الحجاب طوال فترة المصيف حتى تتمكن من نزول البحر، قبّلت يديه وبكت بحرقة وغيّرت من نبرة صوتها حتى لان قلبه فاستجاب عقله لطلبها، أقنعته بمنطقه أن الساحل الشمالي لا يوجد به "ديابة" على حد قوله وكلهم ناس أكابر مثل الباشا. وافق جدي العجوز لكنه وضع شروطًا أشبه بعقود شركة الكهرباء، وفي حال رفضها تقبع حياة في الظلام، بدت موافقته صريحة لكن الشيطان يكمُن في التفاصيل، اشترط نزول البحر في الصباح الباكر

وبوجوده أو مَن ينوب عنه، جدتي أو رفيعة الخادمة التي سنصطحبها معنا، لا خروج من البيت بعد غروب الشمس ولو للتمشية، لا تناول للطعام خارج الفيلّا، بعدها نهض دون أن ينتظر سماع الموافقة منها، افترض قبولها عندما وضع شروطه ومضى مغادرًا للجلوس بالشرفة كعادته من بعد المغرب حتى العاشرة لسماع أم كلثوم وتعاطي سيجارة ملفوفة ثانية، وبعدها يخلد للنوم.

فتحت جدتي ظرف الباشا فبدا لنا مثل مغارة علي بابا، أعطتنا خمسمائة جنيه لشراء ملابس مناسبة للمصيف، اكتشفنا أنها لا تكفي لشراء قطعة من ملابس البحر، طلبنا معونة عاجلة من جدي، أشار لجدتي بكف مبسوطة، ففسرتها على أنها خمسمائة أخرى، لكنه أخبرها بأنه يقصد خمسة آلاف، مطت شفتيها وهي تبرطم:

- مش بعادة يعني يا عبده، من إمتى التبذير ده؟ والا يمكن علشان مش تعبان فيهم المرة دي؟

لم يرد وانشغل بحل الكلمات المتقاطعة مرددًا بصوتٍ عالٍ عبارة: "مُفترق طرق"، هزت جدتي رأسها وابتسامة استنكار تولد ببطءٍ من رحم شفتيها.

الآلاف الخمسة من الجنيهات كانت أول قطرة تسقط من الظرف المنتفخ، لكنها كافية لشراء كل ما نريد، أعددنا حقائبنا متسلحين بأمانٍ كبيرة وخيالات واسعة عن القرية التي سنذهب إليها في الكيلو 155 بطريق مطروح.

غادرنا في السابعة صباحًا، كنت نشيطًا رغم نومي لساعات قليلة بسبب هواجس وخيالات الساحل الشمالي، متشبعًا بما شاهدته من مقاطع مصورة على "فيسبوك" للحفلات وأماكن السهر والشواطئ، شعرت بقلق من هذه الأجواء التي لم أعتدها، لكن مع بدء التحرك انشغلت بالرحلة.

أمام البيت انتظرنا سائق الباشا بسيارة مرسيدس سوداء، أشبه بتلك التي يركبها رئيس الجمهورية ونراها في التلفزيون. حرمني جدي من أول متعة عندما أصر على السفر بسيارته، حجته أننا ربما نحتاجها هناك إذا ما تركنا السائق وعاد للقاهرة، اختارني للركوب معه في الفيات المتهالكة ذات الشبكة التي اعتلتها بضع حقائب قديمة عريضة، حتى يظن مَن يراها أننا في طريقنا للهجرة لا مجرد أسبوع في مصيف، كما حدد جدي مُسبقًا قبل سفرنا.

تسللت حياة مع جدتي ورفيعة الخادمة إلى المرسيدس، ظلت شقيقتي تلوح لي من وراء زجاج النافذة الخلفية وهي تضحك، وتُشير لعربة جدي وتُخرج لسانها في شماتة حتى اختفت عن نظري، ناداني جدي لأركب بجواره، فامتثلت وأنا أجر قدمين مربوطتين بأكياس رمل، دار محرك السيارة بصعوبة، ذكّرني بجدي وهو يسعل بعد كل سيجارة. مرّت ساعة أو يزيد قليلًا واكتشفت عقب محادثة هاتفية مع حياة أنهم يقتربون من استراحة منتصف الطريق، في حين كان جدي يعبر بوابة الرسوم، ثم انحرف فجأة أقصى اليمين وتوقف، ليكشف على محرك السيارة ويزوده بالماء بسبب

الدخان المتسرب منها طوال السكة.

عندما تحركت بنا السيارة بعد نصف ساعة من التبريد، شعرت باختناق من الرطوبة لعدم وجود جهاز تكييف مثل الذي يوجد في ميكروباص حمودة، وينهرني جدي كلما ركبته لأن أجرته أغلى، حاولت النوم فلم أفلح، قفزت لرأسي فكرة خبيثة، سألته بإلحاح عن سبب رفضه العودة للعمل مع الباشا، وبعد ربع ساعة من عباراته النمطية ونبرته ذات الوتيرة الهادئة الواحدة.. غفوت وأنا مبتسم.

***

زادت الطّرقات على الباب كأن الشُّرطة ستقتحم دورة المياه، ثم سمعت صوت جدي يُخاطبني بنبرة متشككة:

- بقى لك نص ساعة في الحمام يا عارف، عيب كده.

طويت صور أمي في المصيف التي اخترتها من الصندوق لتسليني في السيارة طوال الرحلة، أخفيتها بين فانلتي وقميصي وأنا ألملم ملابسي، أحكمت هندمة البقية وخرجت من دورة المياه فوجدت جدي أمامي، تفحصني بعين ضابط مباحث، وراح يوجّه أسئلة وينتظر لعثمة لا إجابة، وهو يُحدّق في عينَي بحدّة، لديه شك يرقى لليقين بممارستي العادة السرية في أي مكان وأي وقت، حتى بات عتابه أمرًا يُضايقني، كأنني صرت حيوانًا تحركه الغريزة، لا يدرك جدي أنني فنان، وأعظم من كل مخرجي السينما، أنا أقمت علاقات مع غالبية نجمات مصر والسينما العالمية، مشاهد كاملة

طويلة تستمر لدقائق على شاشة سقف غرفتي في إمبابة، وتُعرض كل ليلة بنجاح متواصل وبدون رقابة منذ ثلاث سنوات، لكن جدي لا يقدر موهبتي، ويستحيل عليّ شرحها له.

ناولته ابتسامة باردة تليق بشكوكه وسبقته إلى السيارة، لكن القدَر العنيد تدخّل هذه المرة ورفضت أن تدور. ذهب يبحث عن ميكانيكي وجلست داخلها لأرد على مكالمة أخرى من شقيقتي حياة بعيدًا عن تلصص جدي، ثاني هواياته بعد الكلمات المتقاطعة. جاءني صوت حياة على الخط قائلة:

- إحنا شايفين البحر من شباك العربية.

خرجت منها الكلمات فاترة، فطلبت منها وصفًا دقيقًا، تلك أول مرة نذهب للمصيف في الساحل الشمالي، لا بد وأن كل شيءٍ هناك مختلف، لكنها ردت بلا مبالاة أكثر من المرة الأولى:

- بحر عادي لونه أزرق.

ما معنى هذا؟ غدت أطلب وصفًا للشاطئ، للناس، للأماكن، تعللت أن الرؤية من السيارة المسرعة لا تسمح سوى بشريط أزرق ممتد كأنه مغزول من السماء، ورمال ذهبية تبدو من بعيد كشريط لامع، أما الناس فمثل أعواد ثقاب، أعدادهم قليلة ولا تميز ملامحهم، ثم اختتمت بتفصيلة رأت أن بها إسهابًا فيما يبدو حتى إنها أنهت المكالمة بعدها.. قالت:

- زي بحر إسكندرية يا عارف بس أكبر شوية.

بعد نصف ساعة أخرى تحركنا، كدت أشعر بأن حياتي ستنتهي في الصحراء بين القاهرة والساحل الشمالي، أشعل جدي سيجارة ومسح الكثير من عرقه، طلب منّي تثبيت منديله على المساحة الخارجية كي يجف قليلًا، ثم راح يلعن الميكانيكي، فهمت من برطمة كلماته المتقاطعة أن العيب كان بسيطًا، مجرد سلك شرد عن بقية المجموعة فأعاده الرجل مكانه، ثم أصلح الإطار المثقوب، لكن جدي صمم أن صبيًا تابعًا له هو مَن وضع المسمار عمدًا ليُجبرنا على تغييره، قبل أن أسأله سؤالي المعتاد عن عمله في ليبيا كي يساعدني على النوم، تبرع هو وراح يحكي عن الرّست هاوس فتنبهت، حكى لي غالبية ما رأيته بصور أمي وأنا في دورة المياه، أضاف إليها أنه عندما كان طفلًا في الثامنة من عمره التقى الملك فاروق هناك مع حاشيته، وراح يسهب في وصف السيارات الحمراء وملابس الحاشية لكني لم أنجذب لألوانه، انشغلت بألوان عوامتي في شاطئ ميامي بالإسكندرية والبريسوار الخشبي الذي كان البحّار يصحبني به حتى الجزيرة لأنشغل بعدها بصيد الريتسا وأفشل بسبب الشوك الذي أخاف منه، بعدها أعود للشاطئ المزدحم لألمح جدي من بعيد ممسكًا بالجريدة، بينما تغفو جدتي قرب العصر في قيلولة مقدسة على كرسي قماش وثير، مستمتعة بنسيم البحر الذي يضرب وجنتيها برفق لتُغمض عينيها مُبتسمة كملاك، وبينما كانت أمي تبني بيوتًا من الرمال لي ولشقيقتي حياة، كان أبي طوال الوقت خارج إطار الصورة.

***

4

متشابهات

كقطة تعبر الطريق وهي خائفة ترفع قدمًا وتتراجع بأخرى، تسلّقت سيارة جدي مدخل المنتجع المرتفع بصعوبة بالغة، زأر المحرك وترجرجت العربة كأنها ستنفسخ حتى سكنت قبل البوابة بمترين كسلحفاة لاهثة، تقدم منّا رجل أمن مهيب الطّلة، مال بجِذعِه قُرب النافذة متفحصًا وجوهنا في ريبة ويكاد لسان حاله ينطق: لماذا أنتم هنا؟

أخرج جدي تصاريح الدخول وهو يتمتم باسمه في خجل، انتفض رجل الأمن فور سماع الاسم المتشابه مع اسم الباشا مؤديًا تحية عسكرية آمرًا زميله بفتح البوابة، تلقينا تحيات لا تليق بسيارتنا ولا هيئتنا، تقبلناها بدهشة حرصنا على عدم إبدائها فوق ملامحنا. بعد عدة أمتار اكتشفنا أننا تائهان، طلبت من حياة إرسال موقع الفيلّا على الهاتف، أرسلت لي وجهًا ضاحكًا ثم أردفت أنها جالسة على البحر، اغتظت وأخبرت جدي متعمدًا، استشاط غضبًا لمخالفة حياة الشروط المتفق عليها بعدم خروجها إلى الشاطئ منفردة وتوعدها بالعقاب، اضطررنا لسؤال أحد العمال المارين بالصدفة، أخبرنا بأن الفيلّا بشارع رقم 17، بعد ربع ساعة سيرًا بالسيارة وجدنا الأرقام غير مسلسلة، فشارع رقم ثمانية يليه شارع رقم خمسة، ثم شوارع أخرى لها مُسميات خلاف الأرقام، شارع البحر، والشراع، والقرصان، والقبطان.

اتصل جدي بحياة مهددًا بترحيلها للقاهرة إذا لم تعُد للفيلا في غضون دقيقتين، بالفعل تلقينا منها موقع البيت قبل انتهاء المهلة، المفترض أن الفيلّا تقع على البحر مباشرة، لكن عندما اتبعنا الخريطة وجدنا أنفسنا في الصف الثاني بشارع جانبي، والفيلّا لا ترى البحر على الإطلاق.. بل لا ترى شيئًا من الأساس.

مررنا وسط طابور شرف محدود من سائق الباشا ورفيعة الخادمة، استقبلانا بترحاب مبالغ فيه ودعوات بالصحة والسلامة كأننا عائدان من فريضة الحج، دلفنا عبر ممر حجري طويل يُفضي إلى حديقة بها أشجار ضخمة، لوهلة شعرت بأنها أكبر من حديقة الخالدين بإمبابة، لمحت نظرة انبهار بعينَي جدي رغم عصبيته، ورأيت جدتي من بعيد جالسة على أريكة عريضة بألوان مزركشة أشبه بأرجوحة وبيدها مروحة، الهواء مكتوم وكأنه مُخزّن من الصيف الماضي، تعلمت في المدرسة أن الطقس في مصر حار جاف صيفًا.. دفيء ممطر شتاءً، وصدقت ما لقّنوني إيّاه، مع أن نظرة واحدة من نافذة الفصل وقتها في حصة الجغرافيا كفيلة بإدراك أن المناخ خرج عن النص، وراح يرتجل بعشوائية مفرطة.

عندما اقتربنا وجدنا جدتي تتصبب عرقًا كأنها خارجة لتوها من ماراثون طويل، بدت مثل مندوب مبيعات وهي تشرح أن الفيلّا مكونة من ست حجرات وملحق بها غرفتان للخدم، واحدة لرفيعة وأخرى للسائق الذي سيظل معنا المدة

كلها، أبدى جدي بعض الامتعاض وكثيرًا من الندم لسفره بسيارته الكركوبة لكنه لم يقاطعها. مللت من إسهاب جدتي واكتفيت بشرح تفاصيل الطابق الأول، بحثت عن حياة فوجدتها مختبئة في حجرتها خوفًا من جدي، طمأنتها أن الأمر مر بسلام، واقترحت أن تخبره بوجود رفيعة معها نظير منحها بضعة جنيهات، ارتاحت ملامحها وتهيأت للابتسام، تركتها وذهبت لتفقد غرفتي، تفحصت السقف لأطمئن على شاشة عرض أفلامي، ثم تحسست الفراش بكفي فوجدته ناعمًا باردًا، داعبني شيطاني لكني فضلت التزود بوقود من فتيات البحر أولًا.

ارتديت ملابس خفيفة أخرى وخرجت محاولًا استنتاج موقع الشاطئ، متكئًا على وصف أعرج من حياة، قرب المدخل استوقفتني جدتي مستنكرة خروجي خاويًا، ولمّا بدت الحيرة على ملامحي أوضحت:

- بطيخة وكراسي خشب وسندوتشات وثرمس شاي وإزازة مية كبيرة وكورة و..

لم أسمع بقية ما قالته بسبب ضحكاتي حتى شعرت بوجع في بطني، تبادلت نظرات مع حياة، فأدركت أنها ذهبت للشاطئ خلسة دون علم أحد، قبلت يدي جدتي ورأسها ووعدتها بتجهيز كل ما سبق للغد، أما اليوم فللاستطلاع فقط.

خرجت محملًا بالدعوات لأعود "سالم غانم" وكأني ذاهب

للحرب. بعد شارعين شعرت بأنني في متاهة، وكلما اخترت طريقًا في مخيلتي ظننته سيوصلني للبحر، اكتشفت أنني أعود لنفس النقطة التي تحركت منها لكن من اتجاه آخر، يجبرني سور الفيلّا التي أمامنا على الدوران لمسافة طويلة كي أصل للطريق العمومي.

تشعبت السكك الضيقة وتشابهت عليّ، حتى لمحت رجلًا نوبيًا يقود سيارة تُشبه التوك توك، عندما استوقفته وجدتها تعمل بالبطارية، سألته عن طريق البحر فرحب بتوصيلي، مررنا بفيلات كثيرة ألوانها حمراء وصفراء وبيضاء وزرقاء بغير تخطيط ومع ذلك أعجبتني عشوائيتها. لاحظت أن الأرض التي نسير عليها رملية لكنها غير ممهدة وتميل للحمرة، الزهور والأشجار والمساحات الخضراء تحتل كل الفراغات بغير استثناء، المكان أقرب للجنة التي في خيالي، لكنها شديدة الحرارة حتى في أحضان الظلال. أنزلني النوبي الطيب وأشار ناحية اليسار قائلًا:

- من هنا على طول تلاقي البحر في وِشّك.

اتبعت نصيحته بغير تجويد، لامست الرمال بقدمي فشعرت برجفة غريبة، وضعت صندلي تحت إبطي وتقدمت بحماس شديد، لكن بعد ثلاثة أمتار فقط انشقت الأرض عن رجل ينافس عمود النور طولًا، ويرتدي زي الأمن الأزرق السخيف، اعترض طريقي قائلًا باستخفاف:

- على فين يا كابتن؟

كان أحد تصاريح الدخول الثلاثة في جيبي، فأخرجته بثقة وأبرزته في وجه رجل الأمن قائلًا بنبرة واثقة:

- أنا حفيد الباشا بالمناسبة.

تفحص الرجل التصريح باحترام لكنه تفرس فيّ بريبة، دون أن يحيد عن صرامته قال بنبرة مغلفة بالتراجع:

- اتفضل، يوم سعيد إن شاء الله.

أفسح الرجل الطريق لكنه ودّعني بنظرة شك، تقدمت وأنا أسمع ضربات قلبي رغم الثقة التي حاولت التحدث بها، متكئًا على تشابه أول مقطعين من اسم الباشا مع اسم جدي، أعدت التصريح لجيبي فشعرت بمفتاح صغير مشبوك به، قرأت ما دُوّن عليه.. "كابينة 44"، فرحت لوجود كابينة، لكن عندما اقتربت من البحر لم أجد كبائن ولا شمسيات أو مقاعد خشبية، لا أحد يلعب الراكيت، وبالطبع لم أبحث عن آكلي البطيخ.

وقعت عيناي على مجموعة من الرجال والنساء بملابس البحر يلتفون حول منضدة عالية، رُصّت فوقها زجاجات كبيرة مختلفة الألوان والأحجام، بجوارها علب صغيرة بلاستيكية شفافة، ربما تحوي طعامًا، لم أتبينه من فرط صغر حجمه، تتعالى ضحكاتهم ولا أفهم حرفًا ممّا يقولون، يتحدثون إنجليزية أشبه بلكنة الأفلام الأمريكية، كم أفتقد شريط الترجمة الآن!

مررت بجوارهم مبتسمًا في بلاهة، قبل أن أبتعد ناداني

أحدهم:

- فين الصندوق يا ابني؟

- صندوق إيه؟!

تساءلت في دهشة وشعرت بلعثمة على وشك التمكن من لساني، كيف عرفوا أن صندوق الصور الخاصة بأمي معي؟ ولماذا يسألون عنه؟ قبل أن تكبر علامات الاستفهام برأسي ابتسم الرجل ابتسامة لطيفة قائلًا:

- صندوق الفريسكا.. إجري روح هاته وتعالى بسرعة.

ظللت منزرعًا في مكاني لا يُنبت رأسي سوى علامات استفهام، راودتني رغبة في لكمه وتحطيم أنفه، لكن تناسق عضلات جسده وحجمها ثبتا عقلي مكانه، اخترت الجنوح للسلم، وابتسمت ابتسامة لزجة متمتمًا بكلمات غير مفهومة. جلست بعيدًا عنهم، الشاطئ مزدحم للغاية، مغروسة في رماله جذوع خشبية عريضة لها مظلة من جريد وسعف، أسفلها كراسي بلاستيكية بيضاء، وأرائك عريضة ممددة عليها أجساد برونزية لامعة لسيدات ورجال، ضحكات هنا وهمسات هناك وابتسامات في كل مكان، ولمسات خفية لا تخطئها عين مخرج سينمائي مثلي، الكل مُمسك بكئوس ممتلئة بشراب مختلف ألوانه، أزرق وأخضر وأحمر وآخر بلون اللبن، البعض يفضل الوقوف، وآخرون جالسون في استرخاء مريب، موسيقى متنوعة لا أعرف مصدرها، تختلف من مظلة لأخرى، بعضهم يتراقص في مكانه بحركات منتظمة

بطيئة مثل العرائس الخشبية، لكن البحر خالٍ من السابحين، والشاطئ يئن تحت وطأة أقدامهم، تركوا الماء وتجمعوا فوق رمال ساخنة اضطرتني لارتداء صندلي مرة ثانية، صارت حركتي صعبة بسبب الرمال التي تسربت بين أصابعي وتجمعت أسفل قدمي من فتحاته، بدوت مثل سلحفاة كسيحة في شاطئ يعج بالأرانب السمينة المرحة.

أوليت ظهري للبحر فوجدت بحيرات بيضاوية ضخمة، حول كل بحيرة مجموعة من المباني المتشابهة من طابق واحد، تشكل نصف دائرة، لا شك أنها الكبائن. تفاديًا لسخونة الرمال خلعت صندلي وقررت الجري، وجدت الكابينة الخاصة بفيلّا الباشا حول البحيرة الثالثة، في منتصف الدوران تمامًا، تحمل لافتتها الرقم 44، وعندما وقفت بباحتها الأمامية اكتشفت أنها كابينة لا ترى البحر.

***

5

مرادف قهر

علاقتي بالبحر هنا مثل ثمرة فاكهة نبتت داخل صوبة في غير أوانها، نضجت وصارت ضخمة زاهية لكنها ظلت ماسخة. ربما لأنها الزيارة الأولى للساحل الشمالي بغير استعداد، وربما للتوقيت المقارب على الغروب وهو وقت انصراف لا حضور، لا أعرف سببًا محددًا بعد.

فتحت باب الكابينة بحذر ممزوج بالقلق مثل لص مبتدئ، وجدتها أشبه بغرفة صغيرة، بها أريكة متوسطة أمامها شاشة تلفزيون ضخمة، وفي أقصاها ثلاجة عظيمة تقارب جدي في طوله، وأمامها دورة مياه أنيقة مثل الفنادق، بجوارها غرفة ذات باب خشبي مفتوحة من أعلى يبدو أنها مخصصة لتغيير الملابس، لكن فتحات الخشب في جنباتها تشف أكثر ممَّا تستر، تخيلت فنانة من اللاتي أحبهن وهي تغير ملابسها وترتدي مايوهًا من قطعتين، وأنا أراقبها بشغف من الفتحات فتنهرني بدلال لأتمادى أكثر.

الطقس بالكابينة خانق فغادرتها، جربت الجلوس بشرفتها فوجدت الجو حارًّا للغاية ولا أستطيع رؤية البحر، وجهي في الحائط وعيني على الجيران، وإذا ما فعلت مثل آخرين وجلست أمامها على الرمال حول البحيرة الممتدة من البحر سأكون غريبًا لافتًا للأنظار، وربما يتهامسون عنّي باعتباري الوحيد الذي لا يرتدي مايوهًا ولن أرى البحر أيضًا، أصابتني

رجفة من جديد وشعرت برغبة في العودة إلى إمبابة بعدما ملئني الاغتراب، حتى استوقفني نداؤه المتناغم:

- فريسكا يا بندق..

لوحت له بسعادة وناديته بنبرة واثقة، الشيء الوحيد الذي أعرفه من المصيف موجود هنا، أتى الرجل واتكأ على ركبته اليسرى واضعًا الصندوق على فخذه اليمنى، وأمسك بالمشبك الحديدي وعيناه تسألان فأجبته بحماس:

- واحدة مدورة كبيرة بالعسل.

لمحت ابتسامة استنكار على ملامحه لكنها اختفت مثل ومضة عابرة، قدّم لي قرص الفريسكا وأغلق الصندوق ورفعه ليستقر فوق كتفه ووقف ينتظر، بحثت في جيوبي عن جنيهات فضية أعطتها لي جدتي منذ يومين، وجدت منها ثلاثة فأنقدته اثنين منها باعتبارنا في الساحل الشمالي، ولا بد أن الأسعار أغلى من الإسكندرية، قضمت ربع الفريسكا وأنا أشعر بثقة غريبة كأني انتصرت على عدوي، تفرس بائع الفريسكا في الجنيهين بقرف كأنهما صرصاران ميتان فوق كفه وقال:

- الفريسكا بعَشرة يا أستاذ.. دول اتنين جِنِي بس.

- عشرة؟

ظللت أكرر الرقم مثل رسالة الهاتف المسجلة المعلنة عن عدم وجود الرقم بالخدمة، فجأة ابتسم وأنزل صندوقه

والتقط واحدة صغيرة بالسمسم، مد يده بها وهو يسألني بود:

- إنت منين؟

تناولتها منه بلا تفكير وأجبته كأني أقف أمام ضابط مباحث إمبابة الذي نعمل له ألف حساب:

- من إمبابة.

- أجدع ناس.. المرة دي علينا، ولو عاوز حد يساعدك في تنضيف الكابينة قولي وأنا أتصرف.

قالها وتركني متخشبًا مثل شمسيات الشاطئ، ممسكًا بقطعة الفريسكا الهدية، أو الصدقة إن شئنا الدقة، لكن مع رعشة يدي واضطرابي سقطت مني، وفاق طعم الرمال حبات السمسم فيها عندما ابتلعتها.

شعرت بأنني أريد البصق في وجهه، لكنه أولاني ظهره ومضى ينادي على الحلويات التي يبيعها بعدما طعنني بسكين "تِلِم". أغلقت الكابينة وحبست دموعي.

عُدت للفيلّا بصعوبة مترجلًا، المسافة بعيدة والطريق يرتقي لأعلى مع كل صف من الفيلّات، وصلت لاهثًا وبدوت مثل التائهين في الصحراء على مشارف الموت من العطش، لمحت جدي يشرب الشاي مع جدتي بالحديقة ويتصبب عرقًا هو الآخر، لا يبدوان في حالة سرور مثل المُصيفين، إنما أشبه بمعزيين في سرادق كبير خاوٍ حتى من أهل الميت، لم يلتفتا

ناحيتي، ثم علا صوت جدي سائلًا جدتي عن مرادف صفار البيض، ممسكًا بقلمه، فاتحًا جريدته على صفحة الكلمات المتقاطعة، أجابته جدتي بعفوية بأنها تُفضّل البياض عن الصفار تجنبًا للزفارة، قبل أن تسترسل أسكتها بنظرة حازمة ودفس رأسه في الجريدة.

تجنبتهما وقررت الصعود لغرفتي، في طريقي توقفت لشرب بعض الماء، فجأة لمحت خيالًا يمرق من حجرة رفيعة ويختفي، لوهلة شككت في بصري، ثم تأكدت أنني رأيت رجلًا من ظهره يرتدي فانلة داخلية ويهرول من حجرتها، تقمصت شخصية رئيس مباحث إمبابة عند مروره بالبوكس في شارعنا ونحن نلعب الكرة أو نتجمع بلا هدف، ليكشف عن أذرعتنا بحثًا عن مدمني المخدرات من أجل تجنيدهم كمرشدين، اقتربت من باب حجرة رفيعة لكني لم أسمع صوتًا، نظرت لحجرة السائق وراودني شك، تخيلت ما جرى بينهما فدفعني الحماس متسلحًا بالشجاعة، فتحت الباب دون استئذان، وجدته فوق فراشه بالفانلة الداخلية إيّاها، ابتسمت له ابتسامة مَن عرف السر، لكنه فاجأني بنظرة منكسرة ونبرة واهنة، طالبًا مساعدته في ارتداء جلبابه، أخبرني بأنه شعر برعشة مفاجئة، ثم رفع كفيه وأغمض عينيه وهو يدعو لرفيعة الخادمة:

- ربنا يكرمها إدتني برشام.. ربنا يخفف عن كل مريض يا ابني.

رغم أدائه المسرحي الفاشل إلا أنه نجح في إرباكي. عند

إغلاقي باب غرفته وجدت رفيعة واقفة بباب حجرتها مرتدية جلبابًا ضيقًا مفتوحًا حتى ركبتيها، كانت بدون طرحة الحجاب لأول مرة، ثم راحت تمشط شعرها مستندة على حافة الباب في دلال، لا أعرف لماذا تصورت أنها تدعوني لفراشها بهذه الوقفة المتراخية ونظرة العين المرحبة، لكني خفت من الفضيحة والعقاب، فمن المؤكد أن جدي لو عرف سيتقمص شخصية سيدنا إبراهيم ويذبحني دون حاجة لأن يراني في منامه قبلها.

صعدت إلى غرفتي وتمددت على سريري بالعرض تاركًا رأسي يتدلى لأسفل، خُيل لي أنني أرى الحديقة مقلوبة، وجدي وجدتي مغروسَين في نجيلتها برأسيهما. أغمضت عينَي متذكرًا صور كابينة ميامي المطلة على البحر، التلاصق بين الشمسيات، أصوات الباعة الجائلين والمصطافين المتداخلة مع الضحكات، والأغاني التي أعرفها منبعثة من أجهزة التسجيل الضخمة، أوراق اللعب المغروسة في الرمال، رنين الزهر وهو يتدحرج على الطاولة لتتعالى الآهات، صمت لاعبي الشطرنج وفترات التفكير الطويلة قبل أن تمتد يد لتحرك الملك بعيدًا عن الخطر، لكنها لا تفلح بسبب المربعات المحدودة المتبقية فيقتله عسكري أسود بسهولة.

استغرقتني الذكريات حتى غفوت، في منامي رأيت أنني أسبح قرب الشاطئ، ومع ذلك أشارف على الغرق، من بعيد لمحت جدي يمتطي ظهر لوح خشبي من المنتشرين في شاطئ ميامي، لوحت له كي ينقذني، طمأنني أنه آتٍ

لينتشلني وناداني باسمي الثلاثي، كان يبدل المجدافين بسرعة حتى اقترب مني وضرب رأسي بقوة فهبطت إلى القاع وأنا أنزف، ومن بعيد تترامى لسمعي أصوات أعرفها، ومع ذلك لا أستطيع تمييز أصحابها، وكلها تلومه على فعلته.

***

6

بطلة فيلم الزوجة الثانية

لا توجد بالضرورة مصادر مُحددة للبهجة، مثلما لا توجد أسباب واضحة للارتياح، سواء للأماكن أو الأشخاص، كلاهما يداهمك فجأة بشعورٍ طاغٍ حتى يملأك. في يومي الثالث بالمصيف لمحته جالسًا مع زوجته في مكانه الذي لا يغيره، يأتيان مبكرًا وينصرفان وقت الغروب، وكأن شمس النهار عهدته المؤتمن عليها كل صباح.

اليوم ناداني فاقتربت متحفزًا رغم ابتسامته الودود التي استقبلني بها، قبل أن يتفوه بحرف علا صوتي بحدة:

- أنا مش بيّاع الفريسكا على فكرة.

قاطعني وهو يربت كتفي:

- أنا جارك.. الفيلّا اللي على يمينكم وسمعت اللي اتقال لك، تعالى اقعد.

عرفني على زوجته ذات الشعر الأبيض، امرأة ذات وجه بشوش مثل جدتي، تحمل ابتسامة طفلة، أدركت أنها ليست مصرية، حييتها بإنجليزيتي الكسيحة لكنها فهمتني، وقدّمت لي مشروبًا لطيفًا وضعت فوقه قليلًا من الصودا. دخل الرجل في الموضوع، اختار طريقة جدتي وكلمات أمي، وربما انتقى عبارات يقولها جدي من حين لآخر، بدون فلسفة شرح أن الناس ليسوا سواسية، وأن ما ضايقني منهم على البحر

ليس بالضرورة سلوكًا عامًا هنا، أفهمني كيف أستمتع بإجازة حقيقية بعيدًا عن السائد والمعتاد، والذي قد لا يُناسبني ولا يُريحه هو وزوجته، ابتسم بود كصديق حميم ثم قال بصوت خفيض:

- على فكرة إحنا كتير هنا لكن مش بنلفت النظر، إنت بس اللي اتكعبلت في ناس غلط من أول خطوة. حاول تقرب من أي حد شبهك يا عارف علشان تبقى مبسوط.

قدمت زوجته مشروبًا ثانيًا لنا وتكلمت قليلًا فلم أفهم حرفًا ممّا تقول، سكت الرجل ولم يتفضل بالترجمة، ربما أراد اختبار وقع كلامه على عقلي قبل انشغالي في موضوع آخر، لكني في الحقيقة كنت مستجيبًا لكلامه.

غمرني شعور بالارتياح للرجل وزوجته وصارا من مسببات البهجة في الوقت ذاته، أسميته الخواجة رغم أنه عرفني بنفسه، ربما تأثرت بزوجته الأجنبية فاخترت هذا الاسم، كانت تتعثر في نطق حرف العين باسمي فخرج على لسانها "آرف" بدلًا من عارف، لم أستطع كتم ضحكاتي وضحك زوجها معي رغم اعتذاره بالنيابة عنها، ساهمت ضحكاتنا في إذابة الثلوج كلها حتى إنهما دعواني إلى الغداء معهما على الشاطئ، مقبلات خفيفة صنعتها ذات الشعر الأبيض في البيت. لم أشعر بمرور الوقت كأنني أجلس مع أبي وأمي، صارحتهما بشعوري وأنا أستعد للنهوض بعدما اكتشفت أن جلستي طالت لثلاث ساعات ونصف الساعة، أخبراني بأنهما ليس لديهما أولاد ويمكنني الجلوس كل يوم معهما إذا

أحببت، شعرت بأن الدعوة صادقة ونابعة من القلب، تركتهما مبتهجًا وكل حين أتلفت حيث يجلسان على الشاطئ وألوح لهما مودعًا. رغم الابتسامة الملتصقة بوجهي ظللت محملًا بهموم سؤال الخواجة الذي فشلت في الإجابة عنه. استفسر منّي عن طبيعة عمل جدي، فأخبرته كذبًا بأنه رجل أعمال وصديق للباشا الذي نُمضي أسبوعًا في فيلّته، ولمّا سألني عن طبيعة الأعمال، تعطلت الإجابة وفشل عقلي في البحث عن مخرج، اخترت الخاطر الذي ومض بذهني وقلت بلعثمة:

- أعمال مقاولات في ليبيا.

لا أعرف لماذا بات الأمر يشغلني بهذا القدر، ربما مع كل جولة داخل صندوق الصور تقفز أسئلة كثيرة إلى رأسي.. لماذا سافر جدي إلى ليبيا؟ لماذا لا يريد الحديث عنها؟ لماذا لا توجد له ولو صورة واحدة في ليبيا؟ ولماذا يُلح الباشا عليه كي يعود إلى العمل طالما لم يكن مرتاحًا فيه؟ أسئلة تروح وتجيء بغير جواب مثل كرة تنس الطاولة.

ألقيت بأسئلتي في حِجر جدتي آملًا أن تتعطف بإجابة مسهبة هذه المرة.

- قسمة ونصيب.

كالعادة أجابت باقتضاب، لكن حياة أفضت بالسر عندما صرنا وحدنا.. همست:

- جدك اتجوز على جدتك مرتين ومحدش منهم بيحب يفتكر السيرة دي وبيقولوا عليها ليبيا.

هززت رأسي مندهشًا، دلّلت حياة على صحة كلامها بالصور ذاتها التي وصفتها بخادعة، قالت بثقة العارفين:

- خلّي بالك مفيش ولا صورة تجمع بين أمك وأبوك وجدك في فرحهم لأنه وقتها كان متجوز الجوازة الأولى. وكمان مفيش ولا صورة لجدك وهو في ليبيا.

ربما تحمل كلمات حياة بعضًا من المنطق، لكن الجواب صار مثل عصا موسى، خرجت منه عشرات الأسئلة، لماذا تزوج على جدتي مرتين؟ ولماذا يستعملون ليبيا كلمة سر؟ والأهم لماذا يعرض الباشا على جدي الزواج لمرة ثالثة في هذا العمر المتقدم عندما اقترح عليه العودة إلى العمل، ووارد أن يسافر بعدها إلى ليبيا كما فعلها من قبل؟

سكبت أسئلتي في حِجر حياة هذه المرة، لكنها رمتني بنظرة شفقة ثم اقتربت منّي واحتضنتني قائلة:

- الحاجات دي تعرفها لمّا تكبر. دلوقتي بقى امشي لأني مش فاضية لك وعاوزة أسجل فيديو.

في نفس اليوم حاولت حياة الاحتفاظ بصندوق الصور بحجة أنها تُفسد عقلي، لكني جررته نحو سريري ورفعته بصعوبة ثم قلبته، غطت الصور فراشي، بحثت بدقة عن صورة تُشير ولو من بعيد إلى أن جدي كان في ليبيا فلم أجد، تعبت من البحث حتى غلبني النعاس فنمت ملتحفًا بالصور. صحوت متأخرًا يغمرني الكسل، نزلت لتناول إفطاري فلم أجد سوى شقيقتي تعبث بهاتفها وأمامها سكين كبير، لا ترى

الدنيا إلا عبر مساحة صغيرة بحجم كف يدها، لكنها فيما يبدو سعيدة، لاحظت أنها تلف إحدى أصابعها بشاش كثيف، ولمّا سألتها ابتسمت بخبث ثم أفهمتني أنها جرحت إصبعها أثناء تقطيع بعض ثمرات الخيار، بدت كاذبة ولديها روايتان واختارت إحداهما على عجل فخرجت ماسخة، فلا وجود لقطعة خيار واحدة بالثلاجة أو على المائدة.

أخبرتني وهي تتأهب للمغادرة بأن جدي وجدتي ذهبا للكابينة منذ ساعتين ومعهما رفيعة، أوصلهما السائق بالسيارة المرسيدس وسيصحبها الآن لتلحق بهما، تفاصيل ملخصها أنني إذا ما أردت إفطارًا فعليّ إعداده بنفسي.

- يا خيبتك.

عاتبتني جدتي، كادت تختنق بالكابينة كأنني المهندس الذي صممها، ظلت تحكي عن كبائن شاطئ ميامي التي ترد الروح، وكيف كانوا يتطايرون من تيارات الهواء، إنما منذ وصولها هنا فتر حماسها وباتت راغبة في العودة، ولأن كلامها على هوى جدي لم يقاطعها، مكتفيًا برمقي بنظرة لوم لإصراري على المجيء إلى الساحل الشمالي الذي اختزل في كابينة لا ترى البحر. ارتديت المايوه وذهبت للشاطئ صحبة حياة التي كانت ترتدي فستانًا طويلًا بأكمام قصيرة، زي مطابق للشروط والمواصفات التي وضعها جدي، بعدما فات ميعاد نزولها البحر من السابعة حتى التاسعة صباحًا فقط. جلسنا أسفل مظلة بالصف الأول، الساعة تقترب من الثانية ظهرًا والشاطئ شبه خاوٍ، لا أعرف أين ذهب المصطافون اليوم،

مؤكد هناك شاطئ آخر مياهه أفضل من تلك التي تستقبلك صخورها عند نزولك، وكأنها تحذرك من اندفاعك لتعيدك إلى مكانك مرة ثانية آمنًا على مقعدك بلا حراك، مجرد تمثال بابتسامة بلاستيكية إذا ما مر بجوارك أحد تعرفه.

ضحكت حياة على كلامي ثم تلفتت حولها ولمّا اطمأنت، همست رغم أننا وحدنا على شاطئ طويل عريض:

- أنا هنزل البحر شوية وأنت راقب الطريق يا عارف أحسن جدك يشوفني.

في ثوانٍ خلعت حياة فستانها ليظهر المايوه الأسود أسفله، اندفعت مُسرعة نحو البحر كأنها ستنتحر، وسرعان ما غابت حتى لم يعُد يظهر منها سوى شعرها. شعرت بدهشة لوهلة ثم تعودت على الوضع الغريب الذي نحن فيه، حياة تسبح ولا ترى الشاطئ، وأنا أجلس على البر وظهري للبحر.. كأننا في حالة خصام مع الطبيعة.

قررت تسلية وقتي بتمشية على الرمال، لمحت الخواجة وزوجته جالسين أسفل شمسيتهما فتوجهت إليهما وجلست دون استئذان فرحبا بي، أشرت ناحية حياة التي تسبح، وحكيت لهما حكايتها مع جدي وشروط السباحة، استاء الخواجة ولم يُخف استياءه مرة ثانية بعدما نقل كلامي مترجمًا لزوجته التي انزعجت ملامحها، عرضت زيارة جدي وجدتي في المساء وفتح الموضوع معهما، قبل أن أثنيها عن هذه الفكرة الانتحارية خطر ببالي أنني لو رأيت جدي

قادمًا ناحية البحر لن أستطيع تحذير حياة، لن تسمعني مهما ناديت، انتبهت إلى أنها توغلت وابتعدت فشعرت بقلق، انتفضت من جلستي مع الخواجة وزوجته دون استئذان كما جلست، هرولت ناحية شاب يجلس فوق كرسي مرتفع ويرى البحر مكشوفًا ككتاب مفتوح، أشرت نحو حياة وطلبت منه معاونتي في استدعائها، أطلق صافرة طويلة لكنها لم تستجب، زاد قلقي ونقلته له بكلمات قليلة:

- باين عليها بتغرق ولا إيه؟

هبط الشاب من برجه العالي وهو يطلق صفيرًا عاليًا متقطعًا، بدأ البعض يقترب منًا ثم زاد الجمع على عشرة، بدأ الشاب يتهيأ للنزول والصفير مستمر لا ينقطع، قفز في الماء بلا تردد لكن عندما اقترب من حياة سابحًا التفتت ناحيتنا وبدأت تتجه نحوه، ففهمنا أنها بخير، هللنا وأطلق البعض صفيرًا وعلت كلمات باللغة الإنجليزية لم أفهمها.

فجأة هبطت كف ثقيلة على قفاي كمرزبة، وجدت جدي ورائي ممسكًا بذراعي كأنني لص ضُبط متلبسًا بسرقة أحذية المُصلين في مسجد، آلمني قفاي وأوجعتني قبضته، ولم أنجح في الإفلات منها، همس بكلماته إيّاها التي تشي بعقاب مُضاعف:

- حسابك معايا لمّا نرجع البيت يا ابن الكلب.

تظاهرت بأنني متماسك وقلق على شقيقتي، تمتمت بالحمد عدة مرات حتى لانت قبضة جدي، في تلك اللحظة كانت

حياة تخرج من البحر وانشغل هو بمراقبة عيون المتلصصين على جسدها داخل المايوه، رغم أنه شرعي، فتملصت منه وجريت في اتجاه الكبائن بأقصى سرعة، لم أسمع سوى بعض السباب المتطاير لكني لم أنظر ورائي، وصلت إلى خط النهاية، حائط الصد، ملاذي الأخير.. جدتي، رويت لها ما حدث وأنا ألهث، احتضنتني وهي تبكي، ولمّا سألتها عن سبب دموعها التي لا تتوقف لم تُجبني، ربما طاف بمخيلتها ما سوف يفعله جدي فيّ، فقررت رثائي مقدمًا بالدموع.

***

7

عكس بدايات

أول مرة أشعر بشعور المساجين، فرغت بطارية هاتفي المحمول وفقدت الاتصال بالعالم الداخلي والخارجي، فألقيت مشبك غسيل محملًا برسالة قصيرة في شرفة غرفة حياة لتنتبه، ولمّا خرجت تبادلنا الحديث، وجهها لا يزال باكيًا وصوتها متحشرجًا، الكلمات على طرف اللسان تسبقها الدموع، لم أفهم منها ما حدث لها، ربما صفعها جدي عند خروجها من البحر، ولم أشأ سؤالها أكثر حتى لا أزيد من وجعها، حاولت التخفيف عنها لكني فشلت.

غدت لغرفتي التي قرر جدي حبسي فيها حتى عودتنا إلى إمبابة في الغد، انتهى المصيف بعد أربعة أيام، نهاية حزينة سريعة لا يتوقعها أحد، أخرجت صندوق الصور وقررت الانشغال به حتى موعد النوم، الذي يبدو أنه لن يأتي مبكرًا هذه الليلة، قلبت الصندوق على فراشي وأفرغته من محتواه، ثم حملته لأضعه أسفل سريري، وجدته لا يزال ثقيلًا، فتحته مرة ثانية فاندهشت لكونه خاليًا، لكن كلما حملته شعرت بثقل، رحت أتحسس باطنه وجوانبه حتى شعرت بأن قاعدته تحوي شيئًا طريًا، نزعت حواف القاعدة بسهولة فوجدت عشرات الجرائد والمجلات مخبأة بعناية أسفل قاعدة الصندوق، تصفحت بعضها واحدة تلو الأخرى في دهشة، كلها تعود لسنوات بعيدة وبتواريخ متقاربة في عامين متباينين،

يفصل بينهما عشر سنين، فتحت واحدة فطالعتني صورة جدي تتصدر الصفحة الأولى والبقية بصفحة الحوادث، يعلوها مانشيت عريض عن ضبط قضية رشوة كبيرة بوزارة الصناعة، تفاصيل الخبر تُعلن بلا مواربة أن جدي بصفته مدير العاملين بمصانع الباشا قدّم رشوة لوكيل وزارة الصناعة، اتجهت لصفحات الحوادث بالجرائد الأخرى، وجدت الخبر ذاته بتنويعات مختلفة منذ ضبطه واعترافه ومحاكمته وظهوره في صورة بملابس بيضاء وراء القضبان، حتى الحكم عليه بسبع سنوات، الغريب أن بعدها بنحو عشر سنوات أخرى تكرر الخبر نفسه بحذافيره، القبض عليه متلبسًا بتقديم رشوة بصفته مدير الواردات بشركات الباشا، لكن هذه المرة لمدير الجمارك، كي يوافق على تمرير شحنة لصالح شركة الباشا، الذي أنكر علمه بالرشوة، بل واستنكرها، مؤكدًا أن تشابه أول مقطعين من اسم جدي مع اسمه أساء إلى سمعته كثيرًا.

دون تفكير خرجت منّي كلمة ليبيا مصحوبة بشخرة طفيفة.. ثم ضبطت نفسي متلبسًا بالبكاء الصامت، انتبهت لدموعي وهي تبلل وجنتي ثم تهبط على الجريدة فوق صورة جدي فتغطي وجهه ببقعة مبللة.

فجأة دار المفتاح وانفتح الباب، ظننت أن رفيعة ستقدم لي وجبة العشاء باعتباري لا أزال محبوسًا، لكني وجدت جدي أمامي، وبنبرة آمرة قال:

- إلبس هدومك وافرد خِلقتك وانزل علشان عندنا ضيوف

مهمين تحت.

تلقيت النبأ مثل لكمة مفاجئة، ظللت أنظر له بضيق، لكني تماسكت رغم ترنح مشاعري، غادر جدي الغرفة دون انتظار لردي، لملمت الصحف وأعدتها مكانها ووضعت الصور فوقها مقلوبة، لم أعد أريد رؤية وجه أحد حتى لا أبكي مرة ثانية.

فتحت باب غرفتي بتكاسل غريب كأن قدمَيّ مربوطتان بأكياس من رمل، صرت سجينًا لا يرغب في حريته، الحبس أهون من مواجهة الحقيقة، لمحت حياة متزينة وتغادر حجرتها، فأيقنت أن جدي زارها قبلي، نبهتها إلى ضرورة ارتداء طرحتها، همست أن جدتي هي التي تولت دعوتها مع خلع الحجاب ولم تعرف السبب، ورغم معارضة جدي تغلبت جدتي عليه هذه المرة بالضربة القاضية كما قالت حياة.

هبطنا من الطابق الثاني مُغلفين بدهشة تضاعفت عند وصولنا إلى صالة الاستقبال، وجدنا شابًا طويلًا عريضًا، عمره من عمر حياة، وربما يكبرها بعام، ملامحه أجنبية إلى حد كبير، لكنه رحب بنا بكلمات مصرية فأدهشنا أكثر، قدّمه جدي بترحاب كبير: "سمير حفيد الباشا"، الفتى لم يكن يعرف أننا نستجم في الفيلّا واعتذر لنا عن الإزعاج. دار حوار قصير بيننا عن القرية والشاطئ، ولمّا عرف أننا لم نرَ شيئًا حتى الآن وسنغادر إلى القاهرة في الغد، صمّم على بقائنا لعدة أيام، لاحت نذر رفض مبكر على ملامح جدي، وبوادر شحب لخطبة عصماء مُملة عن ضرورة الرحيل، لكن الشاب اللطيف حسم الأمر، اتصل بجده الباشا وأعطى السماعة لجدي، الذي

ظل يهز رأسه كالبندول وهو يتمتم بكلمتين لا ثالث لهما:

- وهو كذلك.

أنقذنا سمير حفيد الباشا من عقاب ما زلنا نحتار في جدواه لو نفذه جدي علينا، بماذا نجيب إذا ما سألنا أحد عن سبب عودتنا مبكرين من المصيف؟ هل نقول إن حياة نزلت البحر لتستحم؟!

أمر استعصى على فهمنا، لكن الحفيد حل العقدة بسهولة مثل جنّي المصباح السحري دون حاجة إلى فركه.

خرجت الملابس من حقائبنا ورقدت بالدواليب مرة ثانية، عمّت حالة من البهجة أرجاء الفيلّا، حتى رفيعة الخادمة عادت لفستانها الضيق المفتوح، اتسعت ابتسامتها وتضخمت بجاحة نظرتها في تلك الليلة، ولوهلة تخيلت أنها تدعوني لفراشها بجدية هذه المرة.

الكل بدا سعيدًا ما عدا أنا، بداخلي جرح ينزف ببطء وتتسع خطوطه فيفقدني الأمل في أن يندمل.

انصرف الحفيد بعدما أخذ رقم هاتفي، واعدًا بلقاء في الغد وسهرة لا تُنسى، معتذرًا عن عدم بقائه معنا الليلة لانشغاله مع آخرين، ولمّا طلب منه جدي المبيت رد ببساطة وتواضع شديدين:

- لا.. أنا الليلة بايت عند ناس أصحابي.. ما تشغلوش بالكم خالص.. البيت بيتكم.

صعد جدي لجناحه مطرقًا دون كلمة واحدة بعد انصراف الحفيد، بدا لي وهو يسير أنه مثل جندي أسير. جلسنا مع جدتي لبعض الوقت حتى تثاءبت بسبب صمتي وانشغال حياة بهاتفها، في طريقها للطابق العلوي ألقت بجملة غريبة بعدما حدقت في شقيقتي لوهلة، رفعت كفيها للسماء قائلة:

- ربنا يجعله من نصيبك يا حياة يا بنت بنتي.

نظرت لحياة فوجدت وميض ابتسامة سرعان ما ابتلعتها عندما التقت عينانا، ثم صعدت لغرفتها. وتركتني وحدي يداهمني شعور بعدم الارتياح رغم أنني محمل بكل مشاعر الضيق من قبلها.

في تلك الليلة أيضًا تأكدت من الأدلة التي رتبتها بجوار بعضها أن رفيعة تمارس الجنس مع السائق، فاستحضرت شخصية ضابط مباحث قسم إمبابة وقررت إخافتها حتى تستجيب لرغباتي وتتركني أعبث بجسدها كما أشاء، تسحبت من الطابق العلوي وخرجت من باب جانبي، اقتربت من غرفتها وألصقت أذني ببابها محاولًا استراق كلمات تؤكد شكوكي، في اللحظة ذاتها انفتح الباب ورأيت رفيعة أمامي بقميص نوم أخضر يكشف أكثر ممّا يستر، شهقت كأنها رأت عفريتًا ثم رقعت بالصوت الحياني فكتمت فمها بكفي قبل أن تكتمل صيحتها، دفعتها لداخل الحجرة وأغلقت الباب بقدمي، أسقطتها على الفراش وألقيت بنفسي فوقها، لم أجد منها مقاومة بل أحسست بجسدها اللين تحتي وكأنني أغوص في رمال متحركة، تحركت رغبتي وشعرت برعشة مباغتة

بين فخذيّ، رفعت يدي بحرص وقبل أن أكيل لها الاتهامات لثمت شفتي بقبلة طويلة، وبعدها غبنا في عناق طويل، ثم أجلستني بجوارها وبدأت تتحسسني وهي تهمس بكلمات لم أفهم معناها وكأنها ممسوسة.

بعد أقل من ربع الساعة خرجث من غرفتها وأنا أستعدل ملابسي، مرتبكًا أشعر برجفة لا تزال مصاحبة لي منذ دخولي، أسكتتني رفيعة إلى الأبد، وقّعنا اتفاقًا ضمنيًا بيننا دون كلام ولا حروف، أدركت أنني أعرف سرها مع السائق، فقدّمت لي عربون محبة، كان كافيًا إلى حدٍّ ما لإسكاتي ليلة أخرى على الأقل. أعلم أنها ربما تضحك الآن على خيبتي، وربما ستذهب للسائق من بعدي لتمارس جنسًا حقيقيًا بدلًا من "لعب العيال" كما وصفته عندما أغرقت ملابسي قبل أن أخلع بنطالي.

كنت محتاجًا لهذه المغامرة فيما يبدو كي أنسى همومي وأبدّد ضيقي، قفزت السلالم في طريقي لحجرتي والخجل يدفعني والرجفة لا تزال ترفرف بروحي فترجف ضلوعي. فجأة وجدت جدي أمامي، تسمّرت مكاني، وحاولت استدعاء موضوع ليبيا ليمنحني ثقة في مواجهته، لكن خطيئتي مع رفيعة شوشت عقلي، تفاديت النظر إلى نصفي الأسفل حتى لا يلحظ بلل ملابسي، لا تزال لديّ بقعة كبيرة لو دقّق النظر فيها لرآها بوضوح، ووقتها لن أملك إجابة مقنعة. امتدت كفه نحوي فرجفت، تحسس رأسي ومرر يده على شعري من الخلف ثم مسح جبهتي وقال:

- شايف لمّا انتبهت لنفسك وبقيت تخلّي بالك من صحتك

وِشّك نوّر إزاي؟

قالها ومضى، خرجت منّي تنهيدة طويلة، لكن دموعي عند عودتي لغرفتي استغرقت وقتًا أطول بكثير.

***

8

حيوان منقرض

رغم الإفراج عنّي من سجن جدي لم أعد راغبًا في الذهاب للبحر، تمددت على أريكة مطاطية بالحديقة بجوار جدتي، عند قدميها تتربع رفيعة الخادمة، ترمقني خلسة كل حين بنظرة لا تخلو من بجاحة، شعرت بأنها تعايرني بطفولتي فتضايقت، ظلت تثرثر كعادتها، تنقل أخبار الجيران التي وصلتها من الخادمات والسائقين والطباخين. قالت فيما سمعت إن فيلّا الباشا كانت بالصف الأول على البحر، لا يوجد أمامها ما يحول دون رؤية الماء، وهواؤها يُطير الجالسين بحديقتها، حتى جاء مَن هو أكبر من الباشا ليسكن القرية، فلمّا لم يجد فيلّا للبيع على البحر قرر أن يكون هو الصف الأول، والباشا وجيرانه يرحلون للصف الثاني، ومن يومها والفيلّا لا ترى سوى جدران بيت الديناصور الأكبر جارنا، الذي كشّر عن أنيابه في وجه الباشا وجيرانه ثم ابتلعهم.

أشارت رفيعة ناحية السور في نهاية حديقتنا كأنها تدلل على صدق روايتها، علقت جدتي قائلة:

- والنبي كنت فاكرة الباشا أكبر حاجة في مصر بعد الريِّس.

ضحكت رفيعة على كلام سِتها وتشعب الحديث بينهما عن صنوف الطعام التي تريدها على الغداء، واضح من الاختيارات والكميات أنها تنوي دعوة حفيد الباشا. شردت

رغمًا عنّي في الخبيئة التي تعثرت فيها أمس، تراجعت عن إخبار جدتي بالحقيقة التي كشفتها بخصوص سفر جدي إلى ليبيا، حتمًا هي تعرف مثلي، أيضًا قررت عدم إبلاغ شقيقتي، حياة خبيثة ومؤكد كانت تعرف وكذبت عليّ، وإلا لما حاولت أخذ الصندوق مني أكثر من مرة، ولا بد أنها أرادت محو دليل الإدانة الذي كان راقدًا بقاعه.

خرجت لأجلس على الشاطئ الخالي من المصطافين كالعادة في هذا الوقت من النهار، اقتربت من الماء لأُبلل قدمي فزاد ضيقي رغم اتساع البحر حولي، أشعر كأنني نبتة غُرست في طين لا يناسبها، في أرض قاحلة ولا أحد يرويها بما يكفي لتزهر، فظلت ذابلة لا تنمو ولا تورق، ولن يكون لها زهرة يومًا ما. عدت إلى الفيلّا مختصرًا الطريق من ناحية الكابينة، لكني لمحت أشخاصًا أمامها يروحون ويجيئون، بعضهم يرتبون وضعية مقاعد، وآخرون ينثرون طاولات عالية، وأحدهم يحمل سماعة صوت ضخمة. توجهت ناحيتهم فلم أجد أحدًا أعرفه، هبطت فجأة كف رقيقة على كتفي، التفتُّ فوجدت سمير حفيد الباشا مبتسمًا ابتسامة أعرض من الشاطئ، وهو يقول:

- إيه رأيك في المفاجأة دي؟

ضربني وجوم غريب فظللت صامتًا، أمسكني من ذراعي وطاف بي حول المقاعد والطاولات، ثم توقفنا أمام أورج كبير أو هكذا ظننته، شرح لنا شاب يتحدث العربية بلكنة شامية عن الموسيقى التي ينوي تشغيلها في حفل الليلة،

ظللت أهز رأسي وكلماتهما تتسرب من أذني تباعًا، ثم همس لي سمير قبل انصرافه بالمفاجأة الثانية:

- الليلة كمان عندنا شاندي.

مضيت في طريقي وأنا أقلب كلمة شاندي في رأسي، لا أعرف ما إذا كان مشروبًا أو طعامًا أو مطربًا جديدًا، جال بخاطري أنها ربما تكون طقوسًا خاصة بحفلات الكبائن التي أسمع عنها ولم أرَها. استعنت بحياة عند عودتي، فابتسمت بثقة العارفين ببواطن الأمور ولسانها لا يتوقف عن نعتي بالجهل، شارحة معنى كلمة شاندي أنها challenge بالإنجليزية، ولأن لغتي كسيحة سمعتها شاندي.

فسّرت حياة الماء بعد الجهد بالماء، لم أفهم معنى الكلمة الجديدة، فتحت موقع جوجل على هاتفي ففهمت أنها تعني التحدي، ضربت رأسي الحيرة فقالت شقيقتي عندما لاحظت دوخة حِماري:

- دي موضة مكسّرة الدنيا بقالها سنتين، تحدي في شرب كميات كبيرة أو أكل حاجات غريبة أو تعمل حاجة مجنونة، والعيال بيدخلوا في سبق عربيات وموتوسيكلات، وساعات النط من فوق مكان عالي.. المهم إنك تبقى قد التحدي وتعمله للآخر وقلبك يكون جامد وإلا بلاش تدخله وخليك متفرج.

- يعني إيه؟

قرفصت حياة وقالت مبتسمة بخبث:

- فاكر سوسن جارتنا اللي اتحجبت من سنة؟

- أيوة فاكرها وشفتها قبل ما نسافر لقيتها قلعت الحجاب.

- أهي سوسن دخلت تحدي تحلق قَرعة لايف قدام الكاميرا، وعملتها واتحجبت بعدها علشان تداري راسها، ولمّا شعرها طلع تاني قلعت الطرحة بنت الأبالسة.

- واستفادت إيه برضه.. مش فاهم؟

- دي فكرتي والمصحف أصلًا وكان نفسي أعملها بس خُفت من جدك، واستفادت فلوس بالهبل ومتابعين وإعلانات على التيك توك والفيديو بتاعها كسّر الدنيا يا خايب.

هززت رأسي بغير اهتمام، تذكرت الضمادة التي كانت تغطي أصابع حياة منذ يومين، لا بد أنها أحدثت إصابة بنفسها وهي تستخدم السكين في "شاندي" آخر، واجهتها بسرعة فلاحظت ارتباكها لكنها صممت على الكذب. شعرت بتفاهة الأمر وأنه لا يستحق منّي وقتًا أكثر حتى لو لم أستوعبه، ورغم حداثة سني وانعدام تجربتي في الدنيا باستثناء ليلة رفيعة الخادمة، إلا أنني شعرت بحاجتي للجلوس مع الخواجة وزوجته، ربما أردت الهروب من واقعي والبحث عن نفسي في زمن مضى.. ربما لست أدري.

***

9

كرامة _ مبعثرة

باتت رغباتي مثل جياد برية لا أملك السيطرة عليها، ولا أضمن خطوط سيرها التي تركض فيها بعشوائية، حتى قدرتها على الركض إلى النهاية لم أعد واثقًا منها، تاهت بوصلتي بين رغبتي في مواجهة جدي وبين العودة لإمبابة بعيدًا عن ممتلكات الباشا، لا أشعر هنا بالأمان ويغمرني إحساس بخطر قريب يحوم حولي، ازداد حتى كاد يغرقني، ينقبض قلبي وترجف ضلوعي كل حين، ولا شيء يحدث سوى الانتظار القاتل.

ارتدت حياة ملابس بيضاء وحرصت أنا قدر الممكن على لون الزي المحدد لنذهب إلى الـ white party التي يقيمها سمير في الكابينة الليلة، لولا إصرار حياة على الذهاب وحماسها الزائد وإلحاح جدتي كي لا أتركها بمفردها، لما خطوت خطوة من الفيلّا إلى هذه الكابينة الكئيبة التي لا ترى البحر، لكن عندما وصلنا وجدناها تختلف في الليل عن النهار، كأنها مكان آخر، أضواء مبهرة وخيوط فضية مهداة من القمر تبعث رسائل سعادة، وجوه تلمع وتبتسم طوال الوقت، مشروبات تدور على الحاضرين بألوان عديدة، تُراق في أكواب مختلفة الأشكال والأحجام. راودني إحساس قوي بأن الحياة هنا بلا مشاكل أو هموم، وأن كل هؤلاء عبروا وحدهم إلى الجنة دون التوقف بمحطة الدنيا التي نعيش فيها،

بمشاكلها التي علقنا بها بعدما تعطل بنا قطار السعادة وخربت عربة البهجة.

انطلقت حياة بعيدًا عنّي، خلعت طرحتها ولفّتها حول معصمها مقلدة فتيات أخريات، أطارت نعليها في الهواء وكأنها تتخلى عنهما للأبد، هرولت حافية فوق الرمال، بدت مثل فراشة تطير بعيدًا. راقبتها قلقًا عليها لكن بعد ثوانٍ تاهت عن عيني وسط الحشود البيضاء المتكدسة أمامي وحولي، لم يعُد سهلًا عليّ التعرف عليها رغم قرون استشعاري التي طالت هذه الليلة، الجميع متشابهون، وعلى الرغم من كل نذر البهجة راودني شعور بخطر قادم لكني لا أعرف له سببًا واضحًا بعد، ولا من أي اتجاه سيُداهمني.

- تعالَ نخبط ونعمل تشالنج.

نظرت لمحدثي في دهشة، ربت كتفي كصديق حميم مع أني أول مرة أراه فيها، لم أفهم مقصده رغم فهمي لكلمة التحدي هذه المرة، لكن الكلمة الأولى التي باللغة العربية هي التي أربكتني، أعرف أنها تُقال عن المخدرات أحيانًا في إمبابة، لكني لم أتصور سماعها هنا علانية، خاصة أن فتاة تقف بجواره وربما تكون خطيبته أو شقيقته.

وقفت كتمثال تنقر الحيرة رأسه حتى ضحكت الفتاة وهي تتأبط ذراعه هامسة بصوتٍ مسموعٍ: "جارسون"، وبعدها انفجرا ضاحكين فانزعجت، الكلمة تتكرر للمرة الثالثة منذ وصولي للكابينة، مصحوبة بأسماء مشروبات أو أطعمة غريبة

وبصيغة أمر، لم أفهم في البداية سبب مناداتي بهذه الكلمة، حتى أدركت متأخرًا أنها بسبب ملابسي، وأنهم يطلبون مني إحضار المشروبات لهم، لم أرتدِ طاقمًا أبيض مثل الجميع واكتفيت بقميص فقط، أما بنطالي فكان أسود فظنوني جارسونًا.

ربت الشاب كتفي لكن بشفقة هذه المرة واعتذر بالإنجليزية، اصطحب فتاته إلى ما وراء الكابينة، فتتبعتهما مثل كلب بوليسي يتشمم آثار مجرم على الرمال، ما إن اقتربت من الباحة الخلفية حتى وجدتهما يستنشقان مسحوقًا أبيض على ظهر كفيهما، مستخدمين عملة ورقية خضراء ملفوفة على شكل أسطوانة رقيقة، ظهرتُ لهما فجأة كعفريت كي أخيفهما، لكنهما استمرا فيما هما عليه، وعندما فرغا من المسحوق نظرا نحوي ببرود شديد، ثم ابتسما فجأة في بلاهة وأعطاني كل منهما الورقة التي كان يستنشق بها المسحوق، ورقتان فئة كل واحدة عشرة دولارات، ظللت ممسكًا بالورقتين في ذهول للحظات حتى ناداني سمير من بعيد فتوجهت نحوه، علت الموسيقى وصارت صاخبة فمال على أذني زاعقًا:

- التشالنج حيبتدي بعد خمس دقايق.. استعد يا عارف واختار صح.

قالها ثم دس في كفي حبة بيضاء ومد لي يده بزجاجة ماء صغيرة، وضعت القرص في جيبي وبللت ريقي ببعض الماء، قيدني القلق فقررت بدء رحلة البحث عن حياة. كان الخيط

الذي قررت السير وراءه هو الحفيد سمير نفسه، شاهدته من بعيد يقف معها وسط آخرين، راقبتهما متسترًا بالحشود المتراصة أمام الكابينة على الرمال وتتمايل مع الموسيقى كأننا في حفل زار، كانا يبتسمان ويتضاحكان بصورة عادية، ثم تجرعت حياة الكثير من الماء فشككت أنها ابتعلت حبة مماثلة لتلك التي أعطاها سمير لي، توجهت ناحيتها لأتأكد من ظنوني، لكن في اللحظة ذاتها ظهر موزع الموسيقى، كان شبه عارٍ إلا من شورت أبيض قصير للغاية ظننته "كيلوت" من الذي كنت أرتديهم صغيرًا، تدافع الشباب أمواجًا ناحيته وهو يلوح لهم في جنون على أنغام أغنية راحوا يسبقونه بترديد كلماتها قبله. فجأة غابت حياة عن عيني هي وسمير، ثم لمحت شبحين ناحية باب الكابينة فهرولت إلى هناك، عند وصولي لم أجد أحدًا، لكن قبل مغادرتي سمعت تأوهات وصوت لهاث مريب، دخلت الكابينة مرة ثانية بخطوات مترددة، لمحت بغرفة تغيير الملابس أربعة أقدام تظهر بوضوح، وبعض الملابس تغطي قدمين منهما، اقتربت ونظرت عبر الفتحات الواسعة، شاب وفتاة يفعلان ما أفعله على سقف حجرتي مع الفنانات كل ليلة، كانا مندمجين لدرجة لم يشعرا معها بتلصصي عليهما رغم أنني في مرمى بصرهما وعلى مسافة ذراع منهما.

غادرت مذهولًا وقررت إخبار سمير بما يدور في كابينته، لمحته بالقرب من موزع الموسيقى ورأيت حياة تقف على يساره وتتمايل، الكل يُصفر والموسيقى تعلو صاخبة مرة

ثانية، وسرعان ما اندمج الجميع في رقص هستيري، ثم تاهت حياة مع سمير مرة ثانية وسط الزحام كأنهما أشباح تتراءى لي كل حين.

قسّمت المكان لمربعات حتى وقعت عيناي عليها، توجهت ناحيتها وجذبتها من يدها وأخرجتها من حلبة الرقص، نظرت لي في شرود كأنها لا تعرفني، ثم ابتسمت وبعدها ضحكت بلا سبب، أدركت أنها تناولت مخدرًا، فصممت على عودتنا للبيت، لكن في لحظة تراجعت مؤقتًا رغم أن حياة لم تقاومني، خفت أن يكون جدي مستيقظًا ووقتها سيقتل حياة وربما يدفنني بجوارها. رأيت البقاء حتى مطلع الفجر لأضمن أنه استغرق في النوم قبل وصولنا.

أجلست حياة على أقرب مقعد وتوجهت ناحية سمير، نحيته جانبًا وأخبرته بما يدور بالكابينة وما دار من قبل وأبرزت الدولارات العشرين لأؤكد صحة روايتي، عاتبته لتقديمه حبة مخدرة لشقيقتي، أجابني بضحكة هستيرية، ثم أشار لي ناحية فتاة بيضاء ممتلئة وهمس:

- دي فاضية اليومين دول.. روح اشتغلها قبل ما غيرك يعلّقها وخد دورك في الكابينة لو حابب. وحلال عليك الدولارات يا عارف يا جامد. دول ألف جنيه بسعر النهاردة.

شعرت بأنني في دوّامة، تعتصرني وتجذبني لأسفل، مقاومتي تضعف، وحتمًا ستبتلعني إذا ما ظللت مكاني، غدت إلى حياة التي تركتها بالقرب من الكابينة فوجدت مقعدها

شاغرًا، فتشت المكان ودرت عبر حشود الراقصين عدة مرات، تفرست في الوجوه كلها لكن حياة اختفت.

علت الموسيقى بصورة مزعجة، دقّت طبول بجنون، الكل يرقص في مكانه على شكل دوائر صغيرة، يتركونها تتسع كل حين ويتراجعون للوراء ومع كل خطوة يصرخون، اقتربوا منّي، حاوطوني، انصهرت بينهم، لوهلة شعرت بأننا في زار من تمايل الأجساد وهز الرؤوس، الأيادي كلها ممسكة بكؤوس، الابتسامات تعلو الوجوه، بعضها في بلاهة وبعضها في نهم. دفعتني الحشود للوراء كأنها اكتفت بهذا القدر من دهشتي، راح عقلي يُلح على عيني لأفتش عن حياة وسط الغرباء، لكن عينيّ تائهتان ورأسي يدور، أحسست لوهلة أن الأرض تميد بي مع أنني لم أشرب قطرة خمر. من بعيد لمحت سمير آتيًا من وراء الكابينة بمفرده، يبدو مرتبكًا نوعًا ما، قبل أن أخطو نحوه ظهرت حياة وراءه وهي تسير مترنحة كطير مذبوح، بدت مثل بجعة ترقص رقصتها الأخيرة، اقتربت بخطى متعرجة حتى وقفت وسط الدائرة الواسعة الخالية فأفسحوا لها المجال كي ترقص، رفعت رأسها وشهقت ثم تهاوت على الرمال، وبعدها علا صراخ الحشود كأنهم يزفونها إلى السماء.

***

10

عاصمتها طرابلس

صارت حياة حزن قلبي الثاني والأخير، مِن بعدها لا أحد يستحق الرثاء، دخلت غرفتها ورقدت فوق فراشها، كنت مشتاقًا لوجهها باحثًا عن روحها، مفتشًا عن ضحكتها المجلجلة، مفتقدًا لكلامها معي، الآن لا أجد سوى الوحدة، يؤلمني الشوق، ويمزقني الغياب حتى يُبكيني، أغفو لدقائق كل بضع ساعات على أمل رؤيتها تتكلم وتتحرك، لكني أستيقظ على خيالات سوداء تروح وتجيء، وآيات قرآن تُتلى بغير انقطاع، ووجوم لا يفارق الوجوه.

ظننت أنني اعتدت الغياب وتعودت الفراق بعد رحيل أمي، لكن فقد حياة اقتلعني مثل غصن ضعيف حاول مقاومة رياح الخريف، أعرف أنها لن تعود من المكان الذي وصلت إليه، لكن من سوء طالعي أنها غادرت قبلي، فتركت بقلبي جرحًا لا أظنه سيبرأ، وأورثتني حزنًا لا ينفد، وهبتني وجعًا احتل صدري لينزف كل حين بؤسًا، فلا أفلح في التغلب على حزني بكل ما بداخلي من حنين.

ترقد جثة حياة باردة في المشرحة منذ يوم وبعض اليوم، أنفقت جدتي دموعها كلها عليها، ولم يتبقَّ لها سوى بياض عينيها، في حين التحف جدي بصمت حزين وانزوى في ركن بعيد. الصورة اكتملت لأول مرة ولم تكن خادعة كما كانت تقول حياة، أعطاها الحفيد سمير مخدرًا أعجبها تأثيره،

وغالبًا دخلت معه في تحدٍّ، فتناولت المزيد حتى تبلغ النشوة وتتفوق عليه، لكنها ماتت في منتصف الطريق. العشرات يتعاطون المخدرات ويمارسون الجنس في الكابينة، لكن حياة الوحيدة التي اختارها الموت من بينهم، ربما لأنها غريبة عنهم ولن يتأثروا بغيابها.. وربما لأنها مارست طقوسًا لا تعتنقها ولا تجيدها فلم تنجُ مثلهم.. لست أدري، كل ما أعرفه أن القدر لم يكُن منصفًا معي، لم يمهد لي، لم يُعطني إشارة، رغم إحساسي بالخطر لكني لم أفطن إلى أنها علامة، كان لتوقعاتي سقف، أما تصريفات القدر فتجاوزت عنان السماء هذه المرة بغير مقدمات.

مر يومان الآن ولم تُدفن حياة بعد، راقدة في سكون بالمشرحة لا تدري أننا لا نملك حتى دفنها، يومان قضيناهما بلا نوم رغم أن أصابع الاتهام لا تُشير إلى مجهول، فقضايا القتل دائمًا جوعى لمتهم، تحركت الشرطة وقررت البحث عن الفاعل وتقديمه للمحاكمة، صُنِّفت القضية رأي عام بسبب كلمة شاندي التي سمعتها بالخطأ، ومواقع التواصل الاجتماعي تحدثت عن مجون المصايف الجديدة، وفساد أبناء الطبقة المخملية، وأنا وحياة صرنا منهم. أشاروا كلهم مع تحريات الشرطة ناحية الحفيد سمير، باعتباره صاحب الليلة ومنظم الحفل، قررت النيابة حبسه مؤقتًا، ربما لتهدئة الرأي العام كما قال محاميه وبعدها سيخرج، "مسألة وقت" كما أعادها بثقة على مسامعنا، التهمة قائمة على افتراضات واستنتاجات لكني أعلم يقينًا أن الحفيد سمير هو الذي فعلها،

ومع ذلك لا أملك بجعبتي سوى الظنون.

في الليلة الثالثة اجتمع محامي الحفيد سمير بجدي لبضع ساعات للمرة الرابعة وفي حضور الباشا الذي جاء خصيصًا من اليونان، ثم ارتأى جدي أن تكون المفاوضات ثنائية، دخل حجرتي بعين دامعة ويد مرتعشة، صمت برهة كمَن يفتش عن ذاته في رأسه، نظرت ناحيته فألفيت وجهه معتمًا، عيناه حادتان تطل منهما قسوة ولا مبالاة، أخافتني نبرته وأدركت أنني سأتجرع شمًا في كأس من شهد، أفزعتني ملامحه التي تبدلت فجأة وشعرت برجفة تغزو بدني كنعجة شاردة رأت الذئب بعدما سمعت عواءه.. قال:

- أنا زمان فديت الباشا الكبير بسنين كتيرة من رصيد عمري، أول مرة سبع سنين كاملين، والمرة التانية أخدوا منّي نُصّهم وخرّجوني حُسن سير وسلوك، أنا فهمت إنك عرفت الحقيقة لمّا شفت الجرايد على سريرك وفتحت صندوق أمك تاني يوم واتأكدت، أنا كنت ناوي لمّا نرجع إمبابة أفهمك أنا ليه عملت كده، لكن حصل اللي حصل لأختك الله يرحمها، دلوقتي الفرصة جات لغاية عندك علشان تفهم موقفي وتعرف تأمّن مستقبلك، وتعمل قرشين يطمّنوك لمّا تكبر وتعيش مرتاح لآخر عمرك.

- أنت عاوزني أتحبس ظلم؟

- لأ تتحبس فرصة، دي فرصتك تاخد قرشين ينفعوك.. مفيش ظلم وعدل، أنت ينفع تتحبس مكان واحد ما ينفعش

يتحبس ولا يستحمل السجن ساعة واحدة كمان، ربنا خلق كل واحد فينا وإداله طاقة احتمال، وكل واحد عنده بديل جاهز بس الشطارة يلاقيه في الوقت المناسب، هي دي الفرصة، أنت محتاج للفلوس والحبس سهل عليك، وهو عاوز الحرية والفلوس عنده سهلة.

فَصل جدي السم عن العسل، طلب بلا مواربة تسليم نفسي للشرطة والاعتراف بإعطاء مخدر لشقيقتي وأنني حاولت إنقاذها بعدها لكن قضاء الله سبقني، أكد لي جدي أن محامي الباشا طمأنه، وأن أي قاضٍ سيقدر عقوبة بسيطة لأنها شقيقتي وكنّا تحت تأثير المخدر، لن تزيد العقوبة على سنة أو اثنتين، أقصاها ثلاث سنوات، هناك ظروف تستوجب التخفيف والرحمة والشفقة، لن يكون الحبس مؤبدًا وفقًا للعقوبة التي تنتظر الحفيد سمير طالما لم أنطق أنا بالباطل.

لاحظت أن باب الحجرة لا يزال مواربًا، وأمام عيني نصف جسد المحامي. اقترب جدي من الباب وتهامس معه لفترة، ثم عاد أكثر عصبية وكأنما أُعيد شحنه:

- أنت متخيل الباشا ممكن يعمل إيه لو ما سمعناش الكلام؟ سمير حفيده الأقرب وبيحبه أكتر من ولاده.

- جِثّة أُختي لسه في المشرحة مادفنّهاش.. حرام عليك تدفنّي قبلها.

- الحرام إنك تضيع فرصة العمر، صدقني كلها سنة أو اتنين بالكتير وتخرج مليونير مش محتاج شُغل، وبعدين قولي

إنت عملت إيه بحريتك؟ ولا حاجة، لكن لمّا الفلوس تجري في إيدك ممكن تعيش زي الناس، تبقى غني وعندك مشروع وممكن تتجوز وممكن..

قاطعته بحدة:

- وإنت الفلوس اللي عندك ما صرفتهاش علينا ليه؟ وليه خليتنا نعيش محتاجين؟ وليه معملتش مشروع لينا نعيش منه بدل ما نموت ونتحبس؟

هز رأسه أسفًا وقال:

- لأن الفلوس اللي أخدتها زمان من الباشا مش زي فلوس اليومين دول، أنا كنت خايب والقرشين اللي عندي يا دوبك يكفوني أعيش مستور أنا وسِتك، وما تنساش إني كنت باصرف على أمك في مرضها وعليك إنت وأختك وعلى تعليمكم ولبسكم من يوم ما أمك اتطلقت. صدقني يا عارف أختك خلاص كده كده راحت، وجات لك فرصة تكفّر عن ذنبك.

- ذنبي أنا؟

- أيوة.. لأننا بسبب إصرارك جينا هنا، مكان مش بتاعنا ولا الناس اللي فيه شبهنا، كنّا في حالنا وعلى قدنا، لكن إنت بتمد عينك لغيرك. إنت السبب في المصيبة دي.

سكت ربما ليسمع منّي موافقة أو يلمس سكوتًا فيعتبره علامة رضا، فلمّا تملكه اليأس أردف:

- صدقني أنا صحتي كبرت وما قدرش أستحمل السجن اليومين دول وإلا كنت عملتها بدالك، إنما أنت لسه صغير وشاب تقدر تستحمل، على الأقل لمّا نحزن على حالنا ونمرض نلاقي قرشين نتعالج بيهم.

لم أستطع منع دموعي، رجوت جدي أن يتركني أعيش وحدي، سأعمل في مهنة وأصرف على نفسي بعيدًا عنه وعن الباشا، لا أريد السجن ولو ضمنوا لي الجنة، بدأت أصرخ وعلا صوتي، لا أتذكر كل ما قُلت حتى اقترب جدي منّي، ربت رأسي في حنو وقد تبدلت نبرته:

- اعتبر نفسك سافرت ليبيا تشتغل، أنا كنت بصبّر نفسي كده في السجن، وبقول على أيامه الصعبة سفرية ليبيا، والناس صدقت إني سافرت وعملت فلوس ورجعت، أي بلد حتسافر له علشان تشتغل حتبقى أيامك كلها شقا وتعب، مش فارقة كتير عن السجن، هتفضل تدور في ساقية طول النهار وبالليل تتخمد للصبح واللي تعيده تزيده.

- يا جدي أرجوك افهمني أنا..

قبل أن أكمل كلامي تهاوى جدي على أقرب مقعد فجأة، بدا كجبل دُكت قواعده، لهث طويلًا ثم قال بصعوبة:

- تقدر تقول لي السجن يفرق إيه عن عيشتك في إمبابة؟ ده يمكن الحياة في السجن تكون أريح وفرصة تتعلم صنعة، ومفيش شقا كل يوم ولا حمل هَم لأي حاجة، الوقت نفسه مش بيتعمل له حساب، وماتنساش إن الباشا عارض ملايين،

يعني كان كريم معانا وعدّاه العيب واللي إنت عاوزه حتاخده، ما يصحش نطمع أكتر من كده.

أطرقت مأخوذًا، ربما كان العرض مغريًا لكني لم أَلِن بعد، كرهت حياتي وجدي معًا، فكرت في الموت وأن حياة ارتاحت برحيلها عن عالمنا، ربما كانت ترقص رقصتها الأخيرة وهي راضية، واحتفظت بابتسامة خافتة على شفتيها بعد موتها كأنها شامتة في أحوالنا، وربما كانت تدعوني كي ألحق بها.

سيطرت فكرة الانتحار على عقلي، ولم يتوقف جدي عن الكلام، لم أسمع سوى كلمات مبعثرة فشلت في إعادة ترتيبها، حتى قال بأسى شعرت بأنه حقيقي لأول مرة:

- يا ابني إحنا العَشرة مننا بقرش في نظر الباشا، مالناش سِعر ولا قيمة، زينا زي كلاب الشارع لا مؤاخذة.

أنهى كلامه وانتهى دوره، دخلت جدتي الغرفة بوجهٍ باكٍ كأنها تُكمل المشهد، خرجت منها الكلمات متحشرجة، ترجوني طاعة جدي حتى لا تطوله بهدلة بسبب رفضي، ولمّا استفسرت عن مقصدها أقسمت إنه سيعترف على نفسه بارتكاب الجريمة لو أني رفضت. أحسست أنني غُرست في كابوس ثقيل لا استيقاظ منه ولا حياة من بعده، وأن مَن يقفان أمامي ليسا جدي وجدتي، إنما هما الباشا وزوجته، يطلبان تقديم نفسي كقربان للحفيد سمير، الذي أمضى يومين بالحجز ولا يستطيع التحمل أكثر من ذلك، وعلى

الدوبلير أن يستعد لأداء بقية الدور بدلًا منه، المشهد الأخطر في الرواية، والذي قد يودي بحياة البطل.

- أنا هسيبك للصبح تصلي ركعتين استخارة وتكون أعصابك هديت وفكرت في مستقبلك، وبكرة نروح القسم تسلّم نفسك مع محامي الباشا والخيرة فيما اختاره الله.

قالها بنبرة تليق بصورة الجد الطيب الحنون، وأردفت جدتي من ورائه قبل مغادرتهما غرفتي:

- اعقل يا عارف يا ابني خلّينا نستلم أختك من المشرحة وندفنها، كفايانا حزن وفضايح سايقة عليك النبي.

أمضيت الليلة باكيًا، احتضنت صندوق الصور، توقفت أمام العشرات منها لأمي وأبي وجدي وجدتي، لا يمكن أن تكون ضحكاتهم أو ابتساماتهم حقيقية، شعرت بأنهم يسخرون منّي ويستخفّون بي، كلهم ماتوا لا أمي وحدها، ربما لو كانت معنا لما سمحت بكل ما حدث أن يكون.

لملمت الصور وغادرت الفيلّا من الباب الخلفي، ذهبت إلى الشاطئ بصندوقي، لم يعُد يهمني أن يظنني الناس بائع فريسكا أو حتى ماسح أحذية، نزفت كبريائي بعدما طُعنت كرامتي. من بعيد لمحت الخواجة وزوجته، ذهبت إليهما وجلست دون استئذان كعادتي، قدّما لي واجب العزاء ثم حذرني الخواجة بنبرة شك من محامي الباشا وشمعته السيئة التي تكونت من هذه القضايا، البراءات التي يتحصل عليها وبنى عليها شهرته أتت كلها من كباش

فداء مثلي، انتهزت الفرصة لمّا فهمت أنه عرف كل ما دار وراء الأبواب، حكيت تفاصيل العدوان الثلاثي من جدي والباشا ومحاميه، واستقبلت بدموعي الحل الذي اقترحه الخواجة، سيصطحبني إلى قسم الشرطة ونبلغ بما جرى حتى لو استدعى الأمر أن يعود جدي إلى ليبيا مرة ثالثة بسبب تحريضه لي على الاعتراف بجريمة لم أرتكبها كما قال الخواجة. فجأة تلقى مكالمة على هاتفه اضطرته للانصراف مع زوجته لأمر هام كما وصفه، ناجيته بعين متوسلة ألا يتركني وحدي، طمأنني بأنه لن يفعل، ونبّه عليّ بانتظاره لساعة واحدة فقط، وبعدها سيعود لكي ننفذ ما اتفقنا عليه.

أرحت رأسي على الصندوق ومن فرط تعبي غفوت، استيقظت على يد تهزني سائلة عن الفريسكا، شباب وفتيات يستعدون لركوب قارب كبير، بغير تفكير طلبت منهم أن يصطحبوني في نزهة معهم، ولدهشتي وافقوا بغير اعتراض، صاح أحدهم: fantastic، وراحت البقية تضحك بهستيريا وهم يتناقلون خبر ركوبي معهم، لم أفهم سببًا للمبالغة في كل شيءٍ هنا، لكن لم يعُد يهمني شيء، كل ما دار بتفكيري الابتعاد عن جدي حتى يفوت بعض الوقت ويمر اليوم ويستمر سمير في الحبس فيبعد السجن عنّي بمسافة آمنة، لا أعلم ماذا أنا فاعل غدًا، لكن لا بد سأجد مخرجًا حتى لو كان باب الانتحار غرقًا في عرض البحر هو باب الخروج.

توغل القارب حتى بعد عنّا البر، توقف في نقطة اختاروها للسباحة، وجدوا صفحة الماء رائقة فيها، طلبوا منّي توزيع

الفريسكا عليهم أولًا، لاحظت أن غالبيتهم مخمورون، ولوهلة رأيتهم جميعًا بملامح متشابهة، يشبهون حفيد الباشا. فتحت الصندوق ببطء وأخرجت الصور، أشرت لهم على صورة جدي وجدتي ثم ألقيتها بالماء، ضحكت بصوتٍ عالٍ، وتناثرت الصور تباعًا على صفحة البحر، بعضها مقلوب وأخريات لا أميزها عندما ابتعدنا عنها. تبادل ركاب القارب نظرات فيما بينهم، ثم علت ضحكاتهم مثلي، أمسكوا ببقية الصور وراحوا يلقونها في البحر، أعجبتهم اللعبة ومارسوها بجنون غريب، لم يتبقَّ بقاع الصندوق إلا الجرائد والمجلات التي تفضح جدي، وزعتها عليهم وبدأنا نلقيها سويًا، تشربت صفحاتها المياه المالحة وثقلت فغاصت، ربما ذابت حروف العار التي كُتبت بها أخبار جرائمه، لكنه الآن يرتكب غيرها بدم بارد.

انزويت في ركن القارب، فرغ الصندوق وملُّوا من اللعبة، عشرات الصور لا تزال تطفو على صفحة الماء وتتهدهد، انكمشت وتراجعت عن فكرة الانتحار، جبنت، وكلما تخيلتها ارتعشت، سرت برودة غريبة بجسمي، دثروني بغطاء القارب، قدّم لي أحدهم كأسًا تحوي مشروبًا أحمر قانيًا، سيُعيدني لحالتي الطبيعية.. هكذا قال لي، تجرعته دفعة واحدة وبعدها صرخت من ألم ضرب بطني فأفرغت ما في جوفي، عادت الصور تتراقص أمام عيني، هرولت لمقدمة القارب كمَن يهرب من مصيره إلى حتفه، كدت أسقط في الماء لولا أحدهم قبض على ذراعي في آخر لحظة، افترشت الأرض، دار المحرك قبل أن تنزوي الشمس في قلب البحر، سمعت

همهمة وتناثرت كلمات عن بوليس منتشر بالشاطئ، نهضت من رقدتي وأنا ما زلت أرتعش، كنّا نقترب من الشاطئ، لمحت الخواجة وبجواره جدي واقفًا وسط العشرات من رجال الشرطة بملابسهم البيضاء، جحافل نمل تنتظر قطعة السكر القادمة إليهم بعد قليل، لم أعرف وقتها إذا كان الخواجة قد نفّذ اتفاقنا لينقذني، ولم يتبقّ سوى سماع أقوالي كمجني عليه، أم إن جدي اعترف على لساني ونسب لي الجرم وحدي، فأصبحت المتهم ولم تفلح شهادة الخواجة في إنقاذي.

***

اليوم وبعد مرور أعوام طويلة لا تزال عبارات القاضي ترن في أذني وهو ينطق الحكم في القضية، لم تهزني كلماته الإنشائية التي جعلها مقدمة لحكمه، فطالما سمعت مثلها من جدي وكان يكذب علينا، ولا أثرت فيّ الآيات القرآنية التي تلاها بصعوبة وأخطأ في تشكيلها فأفقدني إحساسي بها. ربما كان الحفيد يسمع الحكم في اللحظة ذاتها وترتجف أوصاله مع كل كلمة أكثر منّي، لكني ظللت متماسكًا إلى أن نطق القاضي بالعقوبة، السجن خمسة عشر عامًا، كأن القاضي أراد أن أدفع ثمن كل يوم قضيته حرًّا بعدد سنوات عمري الفائتة، شعرت لوهلة بأنني فقدت الإحساس بالزمان والمكان معًا، خرجت من القفص لعربة السجن لا أشعر بقدمَي، كأن شخصًا آخر تلبس جسدي ومضى مستسلمًا مُطرقًا مع حارسه.

طوال خمسة عشر عامًا بسجن ظرة لم أكتب ما جرى لي، تركت صفحات بيضاء في دفتري بعدد السنين التي أمضيتها وراء الأسوار، حاولت النسيان ففشلت، ظلت ذاكرتي تلح على عقلي لأكتب، وبعد خروجي منذ بضعة شهور استجاب العقل أخيرًا وبدأت في تدوين كل ما فات، منذ موت أمي حتى مقتل حياة وتسليم نفسي.

رقدت فوق أريكة خشبية أمام كابينتي التي تحمل رقم 44، ارتشفت بعضًا من كأس النبيذ الأبيض البارد وانشغلت بحل الكلمات المتقاطعة، توقفت مجبرًا عند السطر الثالث أفقيًا.. عكس كلمة "مُخيّر"، رغم أنني أعرف الإجابة، لكني طويت الجريدة في ضيق وعدلت من رقدتي، سمحت للشمس أن تلفح وجهي، صرت أشبه بجثة دافئة تنتظر دفنها لكنها لا تبرد أبدًا، أحدق في الفراغ بلا أفكار أو أحاسيس، كل شيءٍ بلا معنى، الناس أطياف عابرة تمر برأسي، وصور مهزوزة تعبر مخيلتي، محطات لرحلة مشئومة خرجت منها تعيسًا، وحيدًا لا يعرف أحد شيئًا عنّي، لقبي صار "الباشا"، وعلى الرغم من خيوط حكايات أقرب لأساطير تُنسج حولي كل صيف، لكني مع الوقت صرت أستمتع بسماعها بعدما وجدتها تؤنس وحدتي.

نهضت متكاسلًا من رقدتي وترجّلت نحو الشاطئ، الآن أرى البحر الذي كرهته بعدما ابتلع كل ذكرياتي، وترك لي ذكرى واحدة قاسية لم أعُد أحب تذكرها، تلفتُّ حولي لأنفض الشجن من قلبي، فلم أجد مخلوقًا غيري كالمعتاد في هذا

الوقت من الصباح. فجأة فَضّ بكارة السكون صوت زاعق:

- فريسكا.

من بعيد لمحت فتًى يافعًا أسمر نحيفًا، يُشبهني إلى حدٍّ كبيرٍ عندما كنت في عمره، يمشي في خطوط متعرّجة، كأنه يراوغ قدره، متغافلًا عن مصيره، ومع كل خطوة يخطوها فوق الرمال بصندوقه، كان يقترب منّي.

توجهت ببصري نحو السماء وأغمضت عيني، أمامي الآن أكبر شاشة عرض لكنها بلا فائدة، بعدما تبخرت أفلام خيالي، ولم يعُد متبقيًا سوى مأساتي، ومقولة شقيقتي حياة التي تتردد طوال الوقت في أذني.. كل الصور خادعة.

"تمت"

مزرعة الخنازير

1

نبوءة - مبعثرة

داخل قاعة عتيقة تنافس الزمن في رتابته، تتأرجح الحقيقة فوق أحبال الظنون، بين بطء إجراءات وثغرات قوانين وعجز متقاضين ومكر محامين، تُجهَد الحقيقة وتُنهَك وتترنَّح في طريقها للمظلوم، يظنها في صفه كلما اقتربت منه، يفتح ذراعيه ويقترب لتبتعد فيقبض على فراغ، تميل ناحية خصم آخر وتُعيد الكرّة فلا يُمسك بها أحد، حتى تهوي على الأرض وتدهسها أقدام المتقاضين، بينما يرتفع هتافهم: "يحيا العدل".

ألقى المعلّم فايز نظرة على ساعته متأففًا من بطء عقاربها، تتبقى ثلاثون دقيقة على بدء الجلسة ونظر قضيته، عرج إلى نقابة المحامين الفرعية، اسم ليس على مسمى، مجرد حجرة خانقة داخل مبنى المحكمة الآيل للسقوط، لم تفلح نافذتها الضيقة في تنقية هوائها على مر السنين، فاحتفظت برائحة اعتادها المترددون على المكان ورضوا بها مُجبرين، لكن فايز يدخلها لأول مرة وافدًا جديدًا، لفحته الرائحة واخترقت أنفه حتى دمعت عيناه فتسمَّر في مكانه، سعل مرات وفكر في المغادرة، رغم أنه معتاد على روائح كريهة أشد منها، لكن تلك الرائحة لا مثيل لنتانتها كما وصفها بينه وبين نفسه.

خطا خطوة ثم توقف مندهشًا، شعر بأن المكان يختبر بقية حواسه، فمن بعد الرائحة وقعت عينه على إشارة مرور، قديمة ومتربة، مثبتة قرب نهاية الغرفة، يخرج منها سلك غليظ عبر النافذة ممتد إلى الصندوق العمومي لكهرباء مدينة مَلّوِي، لاحظ أن فانوس الإشارة العلوي مضاء باللون الأحمر، توقف تلقائيًا احترامًا للإشارة، ثم ضرب جبهته بكفه من تصرفه العفوي، وقبل أن تكتمل دهشته سمع مَن يُناديه بصوت جهوري أفزعه:

- اتفضّل يا معلم فايز.. حماتك بتحبك.

لمح محاميه جالسًا في أقصى الغرفة، دعاه ليقترب حيث فُرشت وليمة على طاولة خشبية عريضة، رُصّت فوقها بعناية أطباق فول وقراطيس طعمية يتوسطهم تل عظيم من الأرغفة، في حين تناثرت أطباق الطماطم والباذنجان والطُرشي كأبطال ثانويين لهذه الموقعة المنتظرة.

اقترب بخطى مترددة ملتفتًا كل برهة ناحية إشارة المرور، ولمّا وصل إلى الطاولة تجشّأ محاميه فتناثرت من بين فكيه بقايا طعام وهو يقول:

- اقعُد كُل معانا لُقمة، الإشارة لسه حمرا.

لم يتردد في قبول دعوته للطعام، شعر بجوع مفاجئ من المائدة الشهية، لاك لقمة مغموسة بالفول في فمه بينما استرسل محاميه في شرح ما حيّر عقله وأدهش بصره من إشارة المرور التي اعترضت طريقه وأجبرته على التوقف

لوهلة. منذ سنين بعيدة انتدب أحد القضاة من القاهرة للعمل بمحكمة ملوي، لكنه لم يبدأ الجلسة في موعد ثابت أبدًا، في كل مرة يُباغت المحامين بميعاد مختلف، وكأنه يراوغهم حتى يحكم في غيبتهم متعمدًا، أو هكذا خُيل لهم، فاتهم الكثير من القضايا بسبب القضاء المستعجل كما كانوا يسخرون منه، صدرت أحكام غيابية على موكليهم فخسروا أتعابهم، ولمّا غلب حمارهم مع القاضي، تفتّق ذهن المحامي عن الاستعانة بإشارة مرور مسروقة ومُحرّزة على ذمة قضية قديمة، وجدها مركونة بالمخازن ولم تتسلمها وزارة الداخلية، ولأن لا أحد يستعجل عودتها لمكانها الطبيعي، خطر ببال المحامي تركيبها بحجرة النقابة الفرعية، أمدّها بكهرباء عمومية باعتبارها أملاكًا عامة من الأصل، ولن يُسأل أحد عن سرقة التيار، ثم اتّفق مع حاجب المحكمة على دخولها الخدمة بعد إعادة تأهيلها لتنبئهم بما لا يعلمون.

دشّنوا الإشارة واحتفلوا بتشغيلها، ظلت تعمل بانتظام على مدار خمس سنوات، بدأت منذ منتصف السبعينيات، يضيء الحاجب نورها الأحمر عند وصوله المحكمة ليُدركوا أن البيه القاضي لم يحضر بعد، فإذا ما وصل ودخل غرفة المداولة يضيء لهم الحاجب الضوء الأصفر، ولا يُغيره إلى الأخضر حتى ينتهي القاضي من آخر رشفة من قهوة الصباح.

قاطعه المعلم فايز وهو يهم بالنهوض متسربعًا عندما لاحظ تغير ضوء الإشارة فجأة أثناء الحديث:

- الإشارة اصفرّت يا متر.

رد محاميه ببرود:

- أقعُد كمّل أكلك ودخّن سيجارة كمان، طالما قلبت صفرا يبقى جناب القاضي يا دوبك بدأ يفطر، قدامنا نُص ساعة كمان على ما يخلص فنجان القهوة، وأول ما الجلسة تبتدي الحاجب يولّع النور الأخضر لغاية ما البيه القاضي يرفع الجلسة، وساعتها الإشارة تنطفي خالص وتبقى عتمة وقت النطق بالأحكام.

عاد فايز لطبق الفول بشهية أكبر ونسي قضيته بين ثنايا حكاية الإشارة، وانشغل محاميه بحل الكلمات المتقاطعة، بعد ثلاث محاولات خاطئة علا صوت المحامي سائلًا عن مرادف كلمة "فزع"، فجأة اقتحمت الغرفة عجوز سمراء نحيلة لها أذنان طويلتان تنافسان أذني الحمار، يتدلى منهما قرطان ذهبيان صغيران على شكل مفتاح الحياة، عرف فايز من تحية الناس لها أنها العرّافة. اقتربت منه وهزت قفص الخوص الذي تحمله، معلنة بغير غموض ما يحويه من ودَع، توجّس فايز منها بلا سبب وتوقفت اللقمة في زوره لبعض الوقت، اعتدل في جلسته وأعطاها ظهره متظاهرًا بمراقبة الإشارة الصفراء، اقتربت العرّافة منه وكأنها قادمة خصيصًا من أجله، تفرس في وجهها بريبة، راعه كثرة التجاعيد وبعض الأخاديد المحفورة بعدد سنين الشقاء ومصائب الزمن، ابتسمت العرّافة العجوز فظهرت بقايا أسنان رجف لها فايز ونقل بصره لمحاميه يطلب عونه، أشار لها المحامي كي تبتعد شاكرًا خدماتها، لكنها تجاهلته واقتحمت عزلة فايز، توغلت

لتضاعف رجفته حتى نجحت في تعرية خوفه وبعثرة لا مبالاته المتصنعة، ثم خاطبته وهي تقترب أكثر حتى لفحته أنفاسها الساخنة:

- يا ولدي إنت داخل على مصيبة وجايز ربك ينجيك منها.. خلّيني أشوف بختك بخمسة قروش.

تردد فايز لكن نظراتها الثاقبة التي اخترقت صدره جعلته يمد يده داخل قفصها، قال لنفسه لا يزال هناك بعض الوقت لبعض اللهو، لكن قبل أن يقبض على الودع أمسكت العرّافة بيده وأخرجتها ثم قلبتها، قررت قراءة كفه، وقرفصت أمامه في رشاقة حسدها عليها، فهو يصغرها بنحو أربعين عامًا ولا يقوى على الجلوس مثلها.

تفرست في كفه وساد صمت مهيب، تجمّع حولهما كل مَن في القاعة كأنهم ينتظرون ما سوف يُخرجه الحاوي من جِرابه، قطبت العجوز بين حاجبيها وتأزمت جبهتها حتى بان الانزعاج على ملامحها، فخرجت الكلمات متعثرة من بين شفتي فايز:

- خير يا سِت؟

- ستموت يا ولدي لو القاضي نظر قضيتك، وبعدها تموت عيالك.

علت همهمات ولحقتها تكبيرات واستغفارات وحوقلات، أعقبها استنكار من محامي فايز، قبل أن يكبر بالون الجلبة نهضت العرّافة محتفظة برشاقتها تاركة كف فايز تهوي على

فخذه عندما خذلته أعصابه، لم تطلب قروشها الخمسة، بل حملت قفصها ومضت تعرج مغادرة حجرة النقابة وهي تهمهم بصوتٍ غريبٍ يُشبه خنخنة الخنازير، حتى غابت عن بصره وهو يتابعها صامتًا.

قطع محاميه السكون الذي خيّم فجأة من بعد الضوضاء، وقال بصوت جهوري كأنه يختتم مرافعة في قضية محسومة ضَمن فيها البراءة:

- ما تشغلش بالك، دي ولية عجوزة خرفانة، قضيتك مدنية مفيهاش إعدام ولا يوم سجن، وإنت لا متجوز ولا عندك عيال، قوم بينا نلحق الجلسة بلاش كلام فارغ وشغل دجالين.

قالها محاميه وهو يُشير ناحية الإشارة التي تبدّلت إلى الضوء الأخضر، القهوة انتهت والقاضي يُلملم أوراقه في غرفة المداولة في طريقه للمنصة، بعد لحظات معدودات سيصيح الحاجب صيحته الشهيرة: "محكمة".

نقل فايز بصره بين محاميه وإشارة المرور الخضراء، ثم مسح عرقه الذي تفصّد منه أنهارًا، ترك عقله يدور لثوانٍ، لكنها كانت كافية لتقليب الفكرة على أوجه عديدة، علا صوت الحاجب لبدء الجلسة، وفي اللحظة ذاتها اتخذ المعلم فايز قراره بمغادرة المحكمة، تاركًا القضاء ومفضلًا القدر.

2

من المحرمات في الدين

ظل الراديو منذ الصباح يُعيد مقاطع من خطاب الرئيس عن تشجيعه الشباب للسفر إلى أفغانستان، ثم انتقل لبث شعائر صلاة الجمعة وخطبة اليوم عن فريضة الجهاد، ومثل كثير من المتفائلين ظن المعلم فايز أنها مجرد رياح خفيفة عابرة، لكنها فيما يبدو تحولت إلى خريفٍ قاسٍ أسقط أوراق الأمل تباعًا.

حزق الخطيب حتى نفرت عروق رقبته وهو يزعق في وجوه المصلين، المحتجزين كأسرى منذ ساعتين داخل مسجد مدينة ملوي لسماع خطبة الجمعة، صرخ فيهم مُعيدًا كلماته كأنهم لا يفقهون..

"لا يَحِلُّ لكم أكل الخنزير؛ لا لحمه ولا شحمه، لا تشربوا لبنه، لا تقربوه كله، الذَّكر منه والأنثى، الصغير والكبير سواء، ولا يَحِل لكم الانتفاع ولو بشعرة منه، وإلا كان مصيركم النار وبئس المصير".

ارتفعت التكبيرات فاسترسل الخطيب بحماس أكبر مُبدلًا نبرة صوته لأخرى أكثر حدة:

- يا إخوتي أجمع الفقهاء على أن الخنزير كله رجسٌ، أي كله حرام، وهو مثل الخمر، بل والله أشد منها، حرام تربيته، ولا يجوز تقديمه لغيرك، ولا بيعه ولو لقبطي، ولا الجلوس مع

آكله أو مربيه والعياذ بالله، ولا التعامل فيه بأي صورة، كل هذا حرام حرام، ولو كان الأمر بيدي لأمرتكم بقتله.

كان بإمكان فايز حنًا سماع الخطبة من شرفة مسكنه وهو يتناول كوب الشاي المخلوط بالحليب ظهر الجمعة، ساهم الميكروفون الجديد في وصول الخطبة إليه بوضوح كمَن يجلس بالصف الأخير معهم، اكتفى بهز رأسه مستنكرًا كلمات الخطيب، الذي يحل أسبوعيًا ضيفًا ثقيلًا على أذنيه لبضع ساعات، كل الأسئلة محصورة بين الحلال والحرام، غالبية الأفكار محكوم عليها بالمؤبد في سجن الجهل، حتى تغلبت مظاهر التدين على الأخلاق من أول جولة.

علا صوت المصلين مرددين "آمين" وراء إمامهم، هز فايز رأسه يائسًا هذه المرة محاولًا إحصاء خطب الجمعة التي ضيعها الشيخ وتابعوه من عمرهم، رافعين أيديهم نحو السماء، صارخين بالدعاء على غير المسلمين، متمنين تفريقهم وحرقهم، يسيرون وراء إمام لسانه مثل ناي يعزف وينزف في آن، وما بين طرب المغيبين وأنين المستضعفين يزداد وجع المهمشين، الذين يعانون من زحام العزلة وآلام الفرقة. رفع فايز حنًا رأسه للسماء، وومضت عيناه وهما تناجيان الرب راجيتين عدم الاستجابة، دمعت عين وانكسرت أخرى فأطرق، منح دموعه رخصة للانهمار لتنساب في صمت، كأنها في جنازة مهيبة تودع الأمل بعدما تكاثر المتطرفون في بلدته وبدلوا هويتها، ولكي يُخفوا جريمتهم وضعوا فوقها سجادة صلاة.

انتهى إلى أن لا قيمة لحديث النفس بينما الروح مخنوقة لا تستطيع أن تجد لحريتها سبيلًا، مسح ما تبقى من دمع ورفع رأسه للسماء مع صوته بالسؤال بنبرة احتجاج: هل تسمعهم؟ هل يمكن أن تستجيب لهم وأنت لست بحاجة إلى رأيهم لتدمير وتشتيت ما خلقت؟ عادت دموعه تلح بالانهمار لكنه لم يسمح لها هذه المرة، تسلح ببقايا إيمان أن المحنة بعدها فرج، لعن شيطانه الذي جعله متشائمًا ونوى الذهاب إلى الكنيسة للصلاة والتطهر من ذنب التفكير، لكن ما لم يتوقعه فايز حتًا ولا أكثر المتشائمين تطرفًا، أن كلمات الخطيب هذه الجمعة كانت بمثابة خطبة الوداع لمزارع الخنازير في محافظة المنيا كلها، لا مزرعته وحده بمدينة ملوي.

***

غربت الشمس واحتجبت مبكرًا هذا اليوم، ربما حزنًا وهمًا على تحول مريب انهمر كماءٍ نجس على رؤوس الناس.. أقباط ومسلمين. الراديو يُذيع قرار الرئيس السادات المنتظر خلال أيام بحظر ذبح إناث الماشية لمدة شهر قابلة للتمديد، وأئمة المساجد تُشيد به، ومقالات رؤساء التحرير تمجده، ومذيعو البرامج التلفزيونية لا يملون من سرد فوائده.

حمل فايز لفّة صغيرة من اللحم في ورق كرتون عائدًا لبيته، طوال الطريق يُمنّي نفسه بوجبة شهية تُنسيه بعض همومه، لكن قبل أن يشرع في طهوها خاف من انتشار رائحتها، جيرانه بعضهم من المسلمين، والوشاية خير من الصمت.. شعار مرفوع الآن في كل نجوع وقرى ملوي، عممته الجماعة

الشنية على الجميع، تذكر خلطة أبيه التي كان يُتبل بها لحم الخنزير ليُحببه في مذاقه، كان يتجنب أكله وهو صغير بسبب زفارة تفوح منه عند طهوه، ترن في أذنيه كلمات الأب عن إساءة ذبح الخنزير فيحتقن بعض الدم في جسده ويتشربه، فتظهر الرائحة الزفرة حتى بعد الطهو، يلوم الأب على الجزار، ويتحايل على سوء النحر بالخلطة التي برع في إعدادها، حتى جعلت الرائحة زكية والطعم يُغري بالمزيد، أجرى جردًا دقيقًا لذاكرته، فتّش فيها عن التركيبة كما تعلمها من أبيه، عندما كان يطحن المكونات كلها في دكانة شمعون العطار ويحتفظ بها في البيت، شمر أكمامه وانهمك في العمل بعدما تهلل وجهه مثل طفل وجد حلوى كان يبحث عنها باشتياق، استدعت ذاكرته غالبية مكونات الخلطة العجيبة وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح، التين الصعيدي المجفف بعد طحنه، ونصف كوب شاي حبر أسود، وعيدان الكرفس، مع إضافة عيار نبيذ أحمر للمسحوق، بعدها يخفف الخليط بالماء، ويضعه فوق النار لنصف دقيقة، يتركه يبرد ثم يستعمل المصفاة ليحصل على منقوع الخليط.

وقف يلتقط أنفاسه كأنه أجرى عملية جراحية، جفف عرقه وبحرص شديد سكب السائل فوق قطعة لحم الخنزير وتركها تتشربه عبر أنسجتها، نظر في ساعته ثم وضع اللحم على النار لدقائق قليلة حتى نضج، جرى لعابه وبدأ في التهام وجبة تُنسيه همومه مؤقتًا، كان سعيدًا لنجاحه في استعادة الوصفة للخلطة السحرية كما كان أبوه يُسميها، ولم تترك

رائحة وراءها وأضاعت زفارة الخنزير. فجأة توقفت اللقمة في زوره بسبب دقات جرس الباب المتتالية، خطا مترددًا ليفتح داعيًا العدرا أم النور أن تحميه من شرور الوشاية وعيون المتلصصين، وهاجس غريب يخبره بأن الجماعة السنية وراء الباب سيذبحونه، ويضعون الخلطة على جسده ثم يشوونه على نار هادئة.

فتح بحرص وما إن وجد محاميه أمامه حتى تنهد وارتاحت ملامحه، دعاه للدخول قائلًا بابتسامة ودودة بعدما تبخر خوفه وهو يُقلد نبرة صوت المحامي المميزة:

- تعالى.. حماتك بتحبك.

جذبت رائحة الشواء محاميه، أول ما تذوق الطعام برقت عيناه، أعاد سؤاله عن نوع اللحم، ولمّا تصدر الخنزير الإجابة سأله عن المرعى، لم يُصدق أنه يأكل لحوم حيوانات تقتات على القمامة، حكى فايز بفخر الطاهي عن خلطة أبيه السحرية التي تُغير الطعم وتُخفي الرائحة، لكن المحامي لفت نظره اللون الداكن للقطع الأخرى التي أعدها فايز تمهيدًا لحفظها بثلاجته، قلبها محاميه بيده وقرّبها من أنفه، أعاد السؤال عن مكونات الخلطة بفضول مفضوح، توجس فايز وتظاهر بنسيانها، ثم أضفى على الخلطة السحرية صفة السرية، وبعدها تدثر بالصمت.

شرد المحامي طويلًا، بدا ذهنه مشغولًا، حتى إنه لم يُفاتح فايز في موضوع قضيته التي أتى من أجلها بعدما احتلت

الخنازير رأسه وراحت تمرح فيها بغير توقف.

بعد عدة أيام، وفي صباح مبكر، كان فايز حنًا يجلس بجوار محاميه في سيارته متجهين للمزرعة، ما إن وصلت السيارة وهبط منها المحامي حتى سبقه سؤاله:

- مزرعة خنازير؟!

لا أحد يعرف إذا ما كان السؤال استفهاميًا أم استنكاريًا، ربما حمل المعنيين معًا، دهشة السائل ونبرة صوته المغايرة لملامحه عند رؤية مئات الخنازير تمرح وسط جبال من القمامة تشيان بذلك، على أية حال لم يشغل السؤال حيزًا كبيرًا بذهن المحامي خاصة أنه لم يتلقَّ إجابة عنه بعدما اكتفى فايز حنًا بإيماءة لم يلمحها محاميه.

عاد المحامي من الزيارة التفقدية للمزرعة إلى المحكمة، عرج إلى غرفة النقابة الفرعية، الإشارة منطفئة والغرفة خاوية والجلسة مكتظة بالمحامين والمتقاضين وما بينهما من الأهالي والمنتفعين، سأل عن سبب عدم تشغيلها فأخبره محامٍ مخضرم بأن القاضي علم بأمر الإشارة، ولم يمر يوم حتى طالبت إدارة المرور باستردادها، لكن بعض المحامين أقاموا استشكالًا لمنع تنفيذ الحكم حتى لا تعود الإشارة لموطنها الطبيعي، واليوم محدد لنظر القضية أمام القاضي نفسه. لوى المحامي شفتيه يائسًا، لا بد من البحث عن فكرة جديدة بدلًا من الإشارة التي سيصدر الحكم حتمًا بعودتها اليوم، تأملها وهو يبتسم كأنه يودعها بعد خمس سنوات من

العِشرة الطيبة، ثم نظر في ساعته وهو يميل بجذعه من النافذة، لمح سيارة مرسيدس خضراء تحمل لوحة معدنية منسوبة لمحافظة القاهرة، غادرها شاب أحنى الزمن قامته الطويلة قليلًا ربما من فرط انحنائه للمسؤولين، بعد لحظات دخل الشاب الغرفة، لاحظ المحامي أن بصحبته آخرين وقفوا بالباب، وأدرك بعدما دار الحديث بينهما أن مهمتهم منع المتطفلين.

عرض محامي فايز حنًا فكرته ثم سكت ضامًا ساقيه، عاقدًا ذراعيه فوق بطنه، منتظرًا موافقة، لكن الشاب لم يُرحه بجوابٍ شافٍ، ربما لأنه ليس صاحب قرار إنما مجرد رسول، هرش الشاب مفرق رأسه وهمس ببضع كلمات بنبرة آمرة لا تقبل المراجعة، ثم نهض دون استئذان مشيرًا بكفه للمحامي كي يبقى في مكانه، فهو لا يحتاج لوداع بزفة "كدابة"، وكما دخل بهدوء خرج.

***

3

تقال عن التي ارتدت النقاب

انقلب فايز لشيخ عجوز مع أنه لا يزال شابًا في نهاية العشرينيات، هيئته ولقب المعلم الذي يسبق اسمه أضافا سنوات وهمية لعمره. عاش طفولته في بحبوحة وهدوء، ومنذ عامين ورث عن أبيه مزرعة خنازير هي الأكبر بمدينة ملوي، أحب المكان لمّا أخبرته أمه أنها ولدته فيه عندما فاجأها طلق الولادة وبعدها ثُقلت للمستوصف، كاد فايز يموت حتى أنقذ الطبيب حياته فأسموه على اسمه، لم يُكمل تعليمه وانشغل بتربية خنازيره، ولمّا مات أبوه فوّضه أشقاؤه لإدارتها رغم أنه أصغرهم، قضى عمره كله بين هذه الحيوانات التي تبدو لزجة وقذرة لدى كثيرين، لكنها بالنسبة له أكل عيشه ومهنته التي لا يعرف غيرها، ولا يجد فيها غضاضة كما تربى ونشأ.

حرص الأب على اصطحابه للكنيسة منذ صغره، زرع فيه بذرة إيمان نمت وكبرت، رواها خجله وانطواؤه المتزايد، لم يقُل له أحد من رجال الدين إن الخنازير حرام، ولد قبطيًا وشبّ مؤمنًا وعاش مسالمًا مع المسلمين وغيرهم، لا يهمه دِين أو مِلة مُشترٍ ولا يسأل عنها، لا يرى سوى راحة باله وزيادة رأس ماله كي يُسعد أشقاءه الذين لا يهمهم سوى المال، لم يتزوج لخجلٍ لم يستطع التخلص منه مع الجنس الناعم، ومع ذلك يغمره سلام نفسي، أشبه براهب في دير،

زَهد الدنيا وما فيها رغم تواجده كل نهار مع الخنازير.

- إلبس الهدوم دي وحصّلني على العربية، الليلة لازم ناخد قرار.

قلب فايز محتويات الكيس، فوجد خمارًا وطرحة سوداء إضافية للوجه، نظر لمحاميه مندهشًا فأجابه بغير اكتراث:

- أيوة نقاب.. إلبسه علشان محدش يتعرف عليك وابقى اقلعه في العربية لمّا نوصل.

- إنت اتجننت يا متر؟

- مش أحسن ما تموت يا معلم فايز؟

لم ينتظر محاميه ردًا وسبقه للسيارة، بعد أقل من خمس دقائق كان فايز يرفل في نقاب متلفتًا كل برهة كامرأة مرتبكة، استقر في المقعد الأمامي وهو يلهث، ثم كشف وجهه فبدا عليه كثير من الضيق. اصطحبه محاميه إلى عُرزة نائية خلف مدافن الصدقة، أخبره بأن الحدث جلل ويحتاج لمزاج رائق في جلسة "حشيش عمل" كما يحلو له تسميتها، وبعدما دارت الجوزة دورتها الثالثة التفت المحامي ناحيته مقترحًا خطة جديدة للدفاع، خاصة وأن المحكمة حكمت بإعلان إفلاس المعلم فايز حتًا وشركاه.

خطة المحامي الجديدة لن تُقدّم إلى قضاة في محكمة أخرى إلا إذا فشلت، ووقتها ستكون دليل الإدانة الأول على فايز نفسه.

- قُلت إيه يا معلم؟ مفيش وقت للتفكير.

غطّت الدهشة ملامح فايز عقب سماعه تفاصيل الخطة من محاميه، خطاياه تندرج تحت لافتة واحدة بعنوان شيك بدون رصيد، تهمة بسيطة وعادية كما قال المحامي، ويعتبرها المصريون دليل ذكاء وفهلوة، جريمة لا تمس السمعة والشرف، الكل يُقبل عليها كأنها سُنة تجارية مُستحبة، آلاف القضايا تتداول بالمحاكم كل يوم ولا أحد يسدد ما عليه، الكل يضع توقيعات مزورة، وحتى لو صحيحة فعادة ما ينكرونها من أول جلسة، والإجراءات تأخذ شهورًا، وحتى لو صدر فيها حكم من محكمة الدرجة الأولى، لا يزال هناك معارضة واستئناف وما بينهما من حيل وثغرات حتى يتوه المدعي ويتوب أيضًا ويقبل بالفتات، أما لو استكبر وطالب بحقه للنهاية فتنتظره سنوات عجاف أمام محكمة النقض، وفي النهاية القانون يسمح بالتصالح وإنهاء القضية فلا يظهر الجُرم في صحيفة السوابق، فلِمَ إذن هذه الخطة المعقدة المتشعبة التي يقترحها محاميه؟ والتي إذا انحرفت خطوة واحدة يمكنها الذهاب به إلى محكمة الجنايات، حيث لا تأجيل ولا استئناف.

- وممكن أتطَس عشر سنين لو الملعوب انكشف، ده غير الجُرسة والفضيحة.

قالها فايز حنًا وهرش مقدمة رأسه متفرسًا في ملامح محاميه في انتظار رده على حججه التي ظنها قوية، لكن المحامي أخرج نفسًا طويلًا من الدخان غطى وجه فايز وقال

ببرود:

- عشر سنين سجن وفضيحة ولّا تموت يا معلم فايز؟

دسّ يده في حقيبته، وبعد تدويرها لبرهة أخرج ورقة واحدة مطوية، فردها لتكبر كثعبان طويل يستجيب لساحر، كشف يحوي مئات الأسماء، وقرين كل اسم رقم يتزايد فتجاوره أكثر من ثلاثة أصفار قرب ذيل الورقة، مزّق المحامي شكوك فايز كلها وأحال هواجسه إلى حقائق مخيفة، هذه الأسماء ستتحول إلى قضايا بذات العدد، أكثر من مائة وثمانية وستين قضية ستُرفع ضده في محكمة واحدة، وربما عدة محاكم في وقت واحد، سيخرج من قسم شرطة ليدخل آخر، سيُحجز في تخشيبة وتنتظره أخرى على أحر من الجمر، وفي النهاية لن يفلت، ولا بد وحتمًا ستصيبه عقوبة واحدة على الأقل. وضع المحامي الجوزة بين قدميه وهو يقول:

- حتى لو زعق لك نبي مستحيل تِفلت، ولو اتحبست مرة حتكمل بقية القضايا وإنت محبوس. ديونك كبرت وكل الشيكات مطلوب سداد قيمتها وحسابك مافيهوش خمسة جنيه على بعض.

قالها المحامي ثم رفع كتفيه وأرخى شفته السفلى، همّ بالنهوض عندما أتى الحشيش الذي تعاطاه على مدار الساعة أثره وثقل رأسه، لكن فايز ظل منزرعًا مكانه ورأسه لا يُنبت فكرة واحدة تُنجيه من هذه النار، مع أنه لم يقرب الحشيش،

لكن الخطة التي أعدها المحامي راحت تلعب بعقله، خطة يستحي إبليس من ربِّه أن يوسوس بها إلى بشر، لكن محاميه لن يمل من سكبها في أذنيه، وفي كل مرة سيُضيف لها كثيرًا من الوعود ليُضيِّع مرارتها، يؤكد له أن آذان البشر مسدودة بالطين، وعيونهم مليئة بالتراب، لن يروه ولن يسمعوه، فقط بطونهم هي التي ستدلهم على الطريق، ووقتها سيتبعونه كالقطيع، ولمّا لم يُبدِ فايز حنّا اقتناعًا صريحًا، رجع محاميه بظهره للوراء فبدا مثل زعيم سياسي سيُلقي حكمة على مسامع مؤيديه.

خرجت كلمات المحامي هذه المرة تدك حصون الخوف التي يتستر وراءها فايز حنّا..

"الحياة بيت عنكبوت مشدود إلى خيطين.. الخوف والمغامرة، لكن الخائف ميّت قبل أوانه، وكل يوم يمر عليه يزور فيه قبره بالدنيا ليتأكد من عمقه واتساعه حتى يحين موعد رقوده فيه، ثم يُهال عليه التراب من بعدها فيمهد طريقًا للمغامرين، لمحبي الحياة فقط، ليسيروا فوق قبره حتى النهاية، وربما لا يكتفون".

برقت عينا فايز وبدأ عقله يميل، بدا متقبلًا لما يُقال، فأردف المحامي بفصحى لا تليق بالمقام:

- الدنيا مشدودة على خيط الأمل، فلا تفتر عزيمتك قبل أن تَخبُر كل الطُرق أمامك.

احتار فايز وغلبته الظنون، شابت روحه وغابت ملامح

الصبا من وجهه، كساه غبار الزمن الذي تقلب وأدار له ظهره، تكاتفت عليه الجماعة الشنية كما يسمونهم بالمنيا، قتلوه بسكين "تِلِم"، دعوا الموردين والمشترين لمقاطعته رغم أن معظمهم من الأقباط، لكن حُكم الجماعة نافذ على الكل فاستجابوا صاغرين، والحكومة وضعت الطين في أذن والعجين في الأخرى فلم تستمع لشكواه، حرّر محاضر ضدهم فحرقوا مزرعته وقتلوا نصف خنازيره، ونجا النصف الآخر بحياته لمّا تنازل عن بلاغه ضدهم، ومع ذلك لم يرحموه، اعتبروا مجرد الإبلاغ ضدهم كبيرة من الكبائر التي لا تُغتفر، ارتأت الجماعة الشنية الخلاص منه حيًّا، فتفتق ذهنهم عن وضع صورته على جسم خنزير، لصقوها على جدران البيوت وقرب السكة الحديد وعلى أسوار المدارس وأعمدة الإنارة، بات الكل يعرف أن المعلم فايز حنّا خنزير مهدور دمه من الجماعة الشنية، أرادوا أن يموت خوفًا وقهرًا دون أن تمتد يدهم إلى رقبته، ومع الوقت بدأت شجاعة فايز حنّا تخور، ثم مسّه الجزع من الموت فتوارى بمنزل أحد جيرانه قبل أن ينتقل لبيت محاميه، ومن يومها كلما التقاه المحامي لا ينقل له سوى التهديد بالموت، وفي الوقت ذاته يُقدّم له طوق نجاة وحيدًا بحياة جديدة، ليتركه كل مرة متأرجحًا بينهما لا يستقر على قرار.

أطلق محاميه الرصاصة الأخيرة قائلًا:

- صدقني مفيش حلول تانية.. لا يفل الحديد إلا الحديد.

ندت من شفتي فايز ابتسامة لم تكتمل، وأمسك بالجوزة

وسحب نفسًا طويلًا أخرجه بهدوء، ثم راح يتأمل حلقات الدخان وهي تتعقد وتدور ثم تختفي في الهواء.

***

4

مفرد مجاذيب

على ضوءٍ خافتٍ آتٍ من بعيد، خرج ظل طويل من بين شواهد القبور ثم بان صاحبه، كان شابًا رث الثياب، طليق اللحية، أغبر الشعر والوجه، ممسكًا ببوق طويل، ويصيح:

- يا عباد الله لقد قامت الساعة.. قوموا يا عباد الله حان وقت الحساب.

سمع كل مَن في الغُرزة صوتًا ينادي من بعيد، تكرر النداء ثم علا نفير بوق ينفخ فيه أحدهم بإصرار، نظر فايز لمحاميه مندهشًا وسرعان ما تبين أن الدهشة تصبغ ملامح مساطيل الغُرزة وكأنها عدوى، خرج الناس ليتبينوا الأمر، تعثر بعضهم وهو ينهض فسقط مكانه، وقام آخرون بصعوبة، ساروا بخطى متثاقلة متعرجة ناحية باب الخروج المفضي إلى حوش المقابر، في ذيلهم خطا فايز بخطوات مترقبة وكلمات العرّافة ترن في أذنيه عن قدره المحتوم، تكرر النفخ في البوق وعلا الصوت مناديًا عباد الله الراقدين تحت التراب لينهضوا. خرج المحامي إلى حوش المقابر ممسكًا بيد فايز، وجدا أمامهما شابًا اعتلى شاهد قبر، وبيده بوق طويل رفيع، نظر لهما بغضب وأشار ناحية المدافن بيده هاتفًا:

- فِرّوا إلى الله، أهل الجنة من اليمين، وأهل النار إلى اليسار.

مع تعالي صياحه ووصوله حد الصراخ، اقترب بعض المساطيل مع صاحب الغُرزة وصبيها، قذفوا الشاب بحجارة، لكنها لم تفلح في تفتيت عزيمته، علت ضحكاته وأمسك بالبوق نافخًا فيه مرة ثانية، رأى المحامي أن الصوت سيجذب الأهالي وسيجُرُّون الشرطة في ذيلهم، فاقترح على فايز المغادرة قبل وقوع الفأس في الرأس، ثم همس:

- دي أمارة من عند ربك للخلاص.

تسمّر فايز مكانه، قيّده الخوف وشعر باقتراب نهايته وتحقق نبوءة العرّافة، نظر بفزع لمحاميه كأنه على وشك الفرار منه قبل قيام القيامة، فجأة مال المجذوب بجذعه وأعمل يديه في فوهة عبوة بلاستيكية ضخمة راقدة بجواره، ثم أمالها على جنبها وسكب ما فيها فوق المقبرة التي يعتليها، وأشعل عود ثقاب ألقاه على كوم من التبن، راح بعدها يتقافز مكانه بينما ألسنة النار تعلو وتستعر، ومع زيادة الجلبة التي وقعت وسيل الحجارة التي يقذفها المساطيل نحوه تضامنًا مع صاحب الغُرزة، رغم أن غالبيتها تحيد عن هدفها بفراسخ، اضطر فايز حثًا للهرولة وراء محاميه، اختار الخروج عن طريق أهل الجنة من جهة اليمين، في حين مضى محاميه من اليسار، وسرعان ما التقيا بعد أمتار قليلة عندما انتهى صف المقابر الذي كان يفصلهما.

أمسكت النار في أوراق الشجر الجافة وأخشاب التعريشة بمنتصف الحوش، علت ألسنة اللهب وطالت كل ما في طريقها، سكت صوت نافخ البوق فجأة وعلا صراخ

المساطيل من بعيد، ثم دوى عيار ناري وحيد، وساد بعده صمت مريب، لم يقطعه إلا طقطقة النيران.

أنهى المجذوب حياته، أو ربما أطلق أحدهم عليه الرصاص، لكن فايز حنّا ومحاميه نجوَا من النار، وأمام الحوش الخلفي الذي خرجا إليه، وجدا جمعًا غفيرًا من الأهالي أتوا مهرولين، سائلين، مفزوعين، صوت العيار الناري جعلهم لا يخطون خطوة للأمام، مكتفين بالوقوف مكانهم منتظرين مَن يخبرهم بالنبأ اليقين. جال المحامي بعينه وسط الحشود فلاحظ أنهم أغراب عليه، أدرك أنهم الفلاحون أصحاب الأراضي الملاصقة للقرافة وغالبيتهم من المسلمين، دفعهم الفضول للتلصص فصاروا شهودًا محتملين، ولمّا بادر أحدهم بالسؤال أجابه المحامي بإسهاب عمّا يدور بالعُرزة، ثم رفع صوته ليُسمع الآخرين حتى يزيد عدد الشهود ويصل الخبر للجميع.

اختتم المحامي روايته بموت المعلم فايز حنّا صاحب مزرعة الخنازير مع المساطيل، أشعل في قلوب الشهود المحتشدين الغيرة على دينهم، أخبرهم بأن المعلم القبطي لم يكتفِ بتربية الخنازير، بل راح يُدخن الحشيش مدنّسًا حرمة قبورهم مرتين، بعدها جذب فايز من يده ولف وجهه بكوفيته وخرج به من وسط الجموع وكأنه أخفاه عن أعينهم، اكتفوا بلعنه مع شاربي الحشيش وشمتوا في موتهم محروقين، وبينما كان فايز ومحاميه يبتعدان اقتربت سيارة الشرطة من الجهة الأخرى وسرينتها لا تتوقف عن الرنين.

أبطأ فايز من خطواته ووقف يتأمل المشهد من بعيد على ضوء النيران التي لم تخمد بعد رغم أنها أكلت الجميع، جذبه محاميه بيد حازمة وهو يحثه على الفرار هاتفًا:

- حياتك في موتك.

قالها ومضى تاركًا يده فخطا فايز وراءه مجبرًا بعد إعلان موته، مكتفيًا بنظرة وداع أخيرة على أهل بلدته، ثم مد خطوته ليلحق بمحاميه، الذي ابتسم ولسان حاله يقول بلا مواربة: "اتبعني ولن تندم".

***

سارت جنازة صامتة وكأنها تخص كلبًا يتيمًا أجرب، لا يتجاوز عدد المشيعين فيها أصابع اليد الواحدة، إخوة فايز الثلاثة، ومندوب عن الجماعة الشنية شارك في جنازة فايز حنًا، ليتأكد من اتباعهم للتعليمات التي فرضها الأمير عليهم قبل يومين، رفعت الجماعة لاءات ثلاثًا وفرضتها بالقوة فانصاع إخوة فايز صاغرين..

لا مشاركة للأقارب، لا صلاة بالكنيسة، لا دفن في نور النهار.

على مبعدة من الجنازة احتشد شباب ملتحون من عناصر الجماعة، طوقوا موكب الصندوق، الذي يضم جثمان فايز حنًا، وراحوا يلوحون بأسلحة بيضاء متباينة الأطوال والأحجام، تتلألأ نصالها فى ضوء القمر، وكأنهم ذاهبون لغزوة وقتال المشركين، حتى روعوا المشيعين، استعجلوا دخول فايز إلى القبر، في حين وقف إخوته يبكون في صمت،

دموع تترقرق وتنساب بهدوء، وكفوف تمسحها بسرعة وكأنها عار، لتتجمّع في عناد، وتنساب بعدها مرات ومرات.

في هذا اليوم دُفن تابوت يحوي جثة واحد من الذين ماتوا في حريق الغُرزة كما أسموه، عقب إشعال المجذوب النار فيها متوعدًا المساطيل بقيام الساعة وبدء العذاب، ربما تكون جثة المجذوب ذاته أو أخرى لمجهول الهوية وضعت بالصندوق بدلًا من جثمان فايز كما خطّط محاميه، الذي انتقى واحدة متفحمة والسلام، مشوهة الملامح، لم يتعرّف عليها أحد، ووقّع المحامي بمحضر الشرطة أنها جثة موكله المرحوم فايز حنّا، أقر أنه تعرّف عليها من خاتمه الذي وضعه في إصبع الجثة بالاتفاق مع عامل المشرحة، وأيّده أشقاء فايز مؤكدين أنها جثة أخيهم، وحين هبط الصندوق في الحفرة وسط دموع الفراق، كان فايز يأكل بضع لقيمات من خبز في حجرة شبه معتمة ببيت محاميه حتى يُقيم أوده، لم تكن له شهية ولا شغف في شيء، وشعر بأن جنازته بروفة لنهاية حياته وخاتمة مسيرته.

اشترى المحامي ما تبقى من خنازير فايز من إخوة المرحوم، ونقلها ليلًا إلى مزرعة نائية في جنوب أسيوط وتركها تتكاثر في أمان بعيدًا عن الجماعة الشنية، ليُسدل الستار على مزرعة حنّا بملوي إلى الأبد، بعدما وضعت الحكومة يدها على الأرض وحوّلتها لمقلب قمامة تتصدر مدخله لافتة كبيرة مدون عليها "مَقلب الوحدة الوطنية العمومي".

***

5

تجدها في جماعة

تحرك الموكب المهيب، ومالت الأشجار بفروعها مع الرياح مثل السكارى كأنها تحتسي الخمر خفية من جذورها.

جلس فايز حنّا بالعربة الثانية متواريًا، ملتحفًا بشالٍ عريضٍ يخفي ملامحه، حتى لم يعُد يظهر منها إلا عيناه، اللتان راحتا تدوران في قلقٍ، لا تستقران على مشهد يُريح القلب، ولا يتبقى في ذاكرته سوى أطياف مهزوزة تتراقص من بعيد قبل أن تأكلها النار. غادرت العربات محافظة المنيا بعد شقشقة فجر شتاء حزين، لا تكف سماؤه عن الدموع وكأنها تودّع فايز حنّا في مشهد جنائزي مهيب تعويضًا عن مراسم دفنه الخافتة.

خمس سيارات نقل ضخمة تسير في طابور منتظم، مُلصق على جانبي كل عربة صورة كبيرة للرئيس السادات، وبجوارها صورة الرئيس الأمريكي كارتر وهما يبتسمان، وعلى الجانب الآخر من العربة شعار المعونة الأمريكية الأحمر الشهير.. يد في يد، ولم يغفل محاميه ألوان علمي مصر والولايات المتحدة الأمريكية وهو يُشرف على وضع الملصقات بكل عربة، فنثرهما بكل الأركان متداخلين كأنهما في علاقة حميمية.

ترقد في جيب جلباب فايز حنّا بطاقته الجديدة، احتفظ

محاميه فيها باسمه الأول حتى يتعود على بقية الاسم الذي اختاره له.. "عبد النبي الشيخ"، وفي الوقت ذاته لن يخطر ببال متشكك أنهم احتفظوا بالاسم الحقيقي.

عندما تسلمها فايز قلبها بين أصابعه ثم سأل بدهشة طفل:

- طيب لو حد افتكر خِلقتي إيه العمل وقتها؟

- نقول له يخلق من الشبه أربعين، ومع ذلك اطمّن.. العِمّة والدّقن الطويلة وشنبك اللي طار، مع الشال اللي يخفي نص خِلقتك.. كلهم يغيروا الملامح ويحيروا السائل.

- لكن يا متر أنا..

- مش أحسن ما تموت يا معلم فايز؟

هزّ فايز رأسه كمَن يعترض بغير كلام واكتفى بهرش لحيته التي غطّت رقبته، سيرة الموت تنهش قلبه بينما السيارة تقطع الطريق الزراعي بسرعة في طريقها للقاهرة كأنها تتعجّل البداية الجديدة، اجتازت خطة المحامي مرحلة من بعد أخرى بنجاح منقطع النظير، بدا مثل جِنّي مصباح علاء الدين، وما على فايز سوى حكّه، لكن أصابعه لا تزال مترددة. ندت من بين شفتيه ابتسامة مبتورة رغمًا عنه، متذكرًا محاميه وهو يضع ساقًا فوق أخرى مُقلدًا نبرة صوت الرئيس السادات، عندما أعلن قراره بعدم ذبح إناث الماشية، يومها سأله مستنكرًا:

- إنت مجنون يا متر، القرار ده علشان يبيعوا الفراخ بدل

اللحمة اللي أسعارها ولّعت.

- القرار ده صحيح لمصلحة بتوع الدواجن، لكن باب استيراد اللحمة لسه مفتوح، كل قرار في مصر له باب تاني موارب، المهم تاخذ بالك وتعرف تعدي منه، إحنا نقدر نستورد لحمة من السودان، ومن الهند، ومن عند العفريت الأزرق لو عاوزين، أهم حاجة إن الورق يقول إنها مستوردة، ومع الخلطة العجيبة بتاعتك نبيعها على إنها لحمة بتلْو والناس تاكل وتدعي لك.

- هو إنت يا متر عرفت منين إن القرار ده حيطلع في التوقيت ده؟

- من ناس كتير يهمها مصلحتك طالما حتستفيد من وراك.

- لكن يا متر..

قاطعه محاميه بسرعة:

- مش أحسن ما تموت يا معلم فايز؟

تدور الفكرة في رأس فايز، الحياة حلوة والمكسب مُغرٍ، لكن المقامرة كبيرة، ولو انكشفت الخطة سيذهب إلى السجن وغالبًا سيموت فيه ببطء، وحتى لو أنهى العقوبة لن ترحمه الناس، ستنقلب عليه الكنيسة وربما تُخرجه من المِلّة، مال عقله إلى طريق الموافقة لكن قلبه لا يطاوعه على السير فيه بعد، يعلو صوت العقل ويُلح عليه، ستعيش على الأقل يا فايز بعيدًا عن الموت قدر الممكن، وفي رفاهية.. ذلك أفضل جدًا،

يهز رأسه ويميل بجذعه كأنه يعتصر ضميره بين ضلوعه، يريد خنقه مؤقتًا ليستريح.

من بعيد لمح فايز سلسلة جبال بالكاد، تبدو شامخة لكن في سأم، ربما من طول الانتظار على مدار السنين وهي في مكانها، فهدأت نفسه إلا قليلًا. راح يتأمل حاله، صار الآن فايز عبد النبي الشيخ، تاجر مواشٍ من أسيوط، يريد الخير لأهل منطقة مصر القديمة التي استأجر محاميه بها بيتًا ليعيش فيه ويوسّع تجارته بالقاهرة، سيناريو مرسوم بدقة، وأول مشاهده موكب طويل من خمس عربات نقل محمّلة بلحوم مُبرّدة تحرسها صور الرئيس المؤمن مع صديقه كارتر كما يُناديه، لتفتح أبوابًا واسعة على الجمعيات التعاونية التي ستوزّع لحوم الخنازير على أهل القاهرة وضواحيها بأسعار لا تقبل المنافسة، كما يؤكد محاميه كل حين.

برقت عينا المحامي وهو يختتم كلامه بثقة:

- وبالهنا والشفا.

فتح فايز قدرًا يسيرًا من النافذة سمح بدخول تيار بارد أنعشه، راح يدعو ربه ألا يدخله في تجربة وينجيه من الشرير، ثم سرعان ما ينتابه الندم وهو ينظر إلى السماء، مؤكد هو الشرير ولا أحد سواه، دخل التجربة بإرادته وطمعه، فشل في إسكات ضميره ومات قبل أوانه، وكل ما هو آتٍ حياة أخرى كما يؤكد محاميه، فرصة لا ينبغي أن يتركها تتسرّب من بين أصابعه حتى لا يعضها من الندم وهي خاوية

إذا ما فاتته مكاسب الحياة الجديدة التي منحها له الرب.

ظل يُعيد الحكاية بينه وبين نفسه حتى يُريح فؤاده ويُسكت ضميره مؤقتًا، لكن صوت العجلات على الطريق الوعرة يوتره، ولا يسمح له بغفوة بسيطة ليحلم ويرى في منامه نور أمل ولو من بعيد.

اقتربت العربة الأولى التي تحمل لحوم الخنازير من كمين الشرطة الكبير، عشرات العساكر المدججين بالسلاح الآلي، وضباط كثيرون ومخبرون كالجراد، يفحصون السيارات ويتفرسون في وجوه أصحابها كأنهم مشبوهون، توتر فايز لكن مُحاميه الجالس بجواره ربت فخذه مطمئنًا، ثم غادر السيارة وتوجّه ناحية الضابط كبير الرتبة، انتقاه بعناية، فهو يعرف متى وأين يضرب ضربته، من داخل عربته لمحهما فايز لكنه لا يسمع ما يدور بينهما من حوار، تشي حركة الجسد أن الأمور لا تسير على ما يرام، قسمات الضابط تميل للجهامة، لم يتحرك من مكانه ولم تسترح ساقاه، عيناه تحملان الكثير من الشك والريبة، في حين لا تخلو ملامح المحامي من الابتسام، ولا تتوقف ذراعاه عن الدوران في الهواء، يُطلق عشرات التبريرات على ما يبدو، بينما شفتاه تُسربان مئات الكلمات في وقتٍ واحد، ربما تحمل بعض الرجاء كي يمروا بسلام ويدخلوا مصر آمنين كما تخيل فايز حتًا.

فجأة تحرك المحامي نحو باب ثلاجة العربة التي أمامه وأمر السائق بفتحه، شاهدهم فايز من مكانه وهم يُخرجون صناديق الخنازير المذبوحة المجمّدة وعليها اسم شركة

الشيخ للحوم الجاهزة، وشعارها "مذبوحة وفقًا للشريعة الإسلامية حلالًا طيبًا". أمر الضابط بفتح إحداها، وتفحصه على ضوء مصباح يحمله عسكري هزيل، سال لعابه على اللحم النيء في الأكياس، تبادل الضابط حوارًا مع المحامي زادت معه جهامة قسماته، وبدا المحامي كمَن ينفي عن نفسه أمرًا ما، ثم تيبّس فايز مكانه لمّا وجد محاميه يُشير للضابط ناحيته.

تجهمت ملامح المحامي كأنها عدوى انتقلت إليه ومضى مطرقًا خلف الضابط، الذي تقدم بخطوة عسكرية ناحية السيارة، التي يجلس فايز بأريكتها الخلفية مرعوبًا حتى شعر لوهلةٍ بأنه بال على نفسه.

عقد المشهد لسانه، أحسّ أنه يقف على حافة الهاوية ثملًا، يترنح مع كل خطوة يقترب فيها الضابط من عربته، تلقائيًا تحسّس إطار الصورة التي تضمه مع أبيه وأمه وهو طفل صغير يقف بينهما، الشيء الوحيد الذي اختاره من بيته قبل أن يتركه ويعلنوا وفاته، مثل ملك فرعوني اختار أن تُدفن معه هذه الصورة فقط لتنفعه في حياة أخرى، خاصة أن صليبًا كبيرًا يظهر في خلفيتها.

توقف الضابط بجوار زجاج النافذة الخلفية ولوح بيده طالبًا من فايز خفضها، وقتها أدرك أنه اقترب من نهايته قبل أن يخطو أولى خطواته في طريق الحياة الأخرى التي وعده بها الرب على لسان محاميه.

***

6

أغنية للعندليب الأسمر

الكل يبحث عن فرصة للخداع في هذه المدينة، الجميع يقدم أوراق اعتماده سفيرًا للزيف، ممثلًا شخصيًا للكذب، مبعوثًا رسميًا للغش، وفي كل الأحوال مُرحب بهم على الدوام.

رفع محامي فايز حنًا من صوت الراديو، كان عبد الحليم حافظ يشدو بأغنيته الشهيرة "بالأحضان يا بلادنا يا حلوة بالأحضان"، ابتسم المحامي ابتسامة لامست أذنيه، ارتاحت ملامحه وترك عقله ينشغل بحساب المكاسب بعدما انتهت المتاعب، لكن فايز لا يزال يشك في استقبال القاهرة له بالأحضان كما يشدو العندليب، لا يزال ملتحفًا بقلقه رغم أن الضابط في الكمين اقترب فقط كي يُحييه ويطلب البركة منه، باعتباره الشيخ فايز إمام مسجد أسيوط الكبير مثلما أخبره المحامي. اعتبارًا من هذه الليلة سيسبق لقبه اسمه كلما وطئت قدماه أي مكان في مصر كما يقول محاميه، لن يُعرف إلا بالشيخ فايز، رجل البر والتقوى، وسيتهافت المواطنون على نيل بركاته، مثلهم مثل الضابط الذي حصل مع قوة كمين الصعيد فوق البركة على عشرة كيلو جرامات من لحم الخنزير الطازج، والمذبوح على الطريقة الإسلامية.

في شقة بحي الخليفة الشعبي ألقى المحامي بجسده على مقعد عريض وثير تاركًا فايز يتفقد سكنه الجديد، انشغل

بحل الكلمات المتقاطعة بتركيز شديد، شقة واسعة تطل على ميدان صغير، تقع بالطابق السادس من عمارة حديثة تعود إلى الأربعينيات، أشار محاميه نحو المطبخ وهو يبتسم بخبث قائلًا:

- سِرّك في بير.

فهم فايز أنه في هذا المكان يمكنه إعداد الخلطة التي تُغير الطعم واللون كيفما شاء، لكنه قرّر ألا يُعطي سرها لمحاميه، تذكر مقولة أبيه أن ذات البئر التي تحوي السر سوف تروي أهل القرية أجمعين، سيُعد خلطته في الخفاء حتى يطمئن قلبه، خاصة أنها مطحونة جاهزة ولا تحتاج سوى ماء وقليل من النبيذ الأحمر.

ما إن تأهب فايز للجلوس بجواره حتى قال المحامي دون أن ينظر نحوه:

- شوف يا شيخ فايز، اللي أوله شرط آخره نور، بالنسبة لأتعابي في القضية أنا حاخد نص الأرباح صافية، والخمسين في المية التانيين حلال عليك لكن بعد خصم المصاريف منها.

- خمسين بالمية من إيه يا متر؟

- من بيع الخنازير يا شيخ فايز. ما تنساش إنك حتبيعها بسعر كيلو اللحمة البتلو، يعني باتنين جنيه ونص، يعني فضيلتك كسبان أكتر من الضعف في كل كيلو.

رد فايز بثقة:

- وماتنساش يا متر إني صاحب الخلطة ومن غيرها تنكشف، ولو انكشفت اللعبة تخرب كلها.

قاطعه المحامي بابتسامة لزجة باردة قائلًا:

- لو خربت اللعبة تموت وحدك يا معلم فايز.. كل حاجة باسمك.

دار رأس فايز قليلًا، ثم سأل بعقلية تاجر لم تفلح المصيبة في تغييبها:

- طيب خمسين في المية صافية من الربح لغاية إمتى يا متر؟

قال المحامي وهو ينهض باتجاه النافذة العريضة ويتابع السيارات التي تعبر الميدان كل حين:

- لغاية ما تموت مرة تانية ونعمل لك جنازة جديدة وبعدها نشوف نرجعك للدنيا إزاي.

هذه المرة تلجم لسان فايز وعجز عن الرد، فأردف محاميه وهو لا يزال يوليه ظهره:

- شوف يا شيخ فايز أنت من غيري ماتعرفش تعيش تاني، بطاقتك وتجارتك وشركتك ونقل خنازيرك وبيعها وتسويقها كله من خلالي، وكل ده وراه ناس غيري لأني موش لوحدي زي ما قُلت لك قبل كده، إحنا بقالنا أسابيع بنخطّط وندرس ونرتب، يعني لمّا أقولك حاخد النص أبقى كرمتك وعملت لك خاطر لأنك راجل ابن حلال وبلدياتي.

- أيوة يا متر لكن..

رفع المحامي ذراعه عاليًا ليُسكته وهو مستمر بالنظر عبر النافذة، ثم أكمل حديثه:

- الناس اللي بتساعدنا مش بيحبوا الراجل اللي يرجع في نُص السكة، وغالبًا مش حتكمل يومين ويتقبض عليك بتُهم كتيرة أقلها التزوير في أوراق رسمية، يعني أشغال شاقة مؤقتة، ده غير الفضيحة والجُرسة، وطبعًا لو الجماعة الشنية أخدوا خبر إنت عارف ممكن يعملوا فيك إيه، وسهل يوصلوا لك في أي مكان، حتى لو كنت تحت الأرض.

- استهدى بالله يا متر، أنا قصدي..

استرسل المحامي مثل قطار يستحيل إيقافه قبل بلوغه محطته التالية:

- ما تنساش إنك ميت وجنازتك مشي فيها إخواتك وأهل البلد شهود، يعني من النهاردة مفيش رجوع.

صمت فايز كجثة في قبر فاسترسل المحامي ملتفتًا نحوه وهو يُشعل سيجارته:

- عمومًا الموضوع مش حيطول، إحنا حنعمل الشغلانة دي كام شهر ونطلع منها بقرشين حلوين وبعدها كان الله بالسر عليم، ووقتها نشوف إنت عاوز تبقى مين وتعمل إيه، ووقتها ممكن نشوف لك صِرفة تخرج بيها من مصر وتبتدي في بلد تانية على نضافة، أنا بايت الليلة في لوكاندة الأُمرا جنبك

في الحسين لغاية ما أشوف شقة إيجار هنا، وحكلمك على تليفون الشقة بعد صلاة العشا تقولي اخترت إيه.

رد فايز حتًا في أسى وهو ينظر إلى الأرض:

- ما عدش ينفع معاك رجا.. يظهر إن الإنسان مُسيّر مش مُخيّر.

- الإنسان مُغفل لو رفض فرصة زي دي، سلامو عليكم يا شيخ فايز.

***

7

عاصمتها القاهرة

القاهرة الآن مدينة نذّاهة مع أنها عجوز متصابية دميمة، صبغت شعرها بصُفرة تؤذي الناظرين، تقتات على الزيف والكذب بعدما رفعت بُرقع الحياء، لكنها لا تتخلى عن طرحتها وسجادة صلاتها حتى ينجذبوا إليها، وعندما تنزلق أقدامهم تكشف لهم وجهها القبيح.

لا يمر يوم إلا ومحامي فايز حثًا يسكب في رأس موكله مفاهيمه عن العاصمة التي ابتلعتهما سويًا، وعندما لا يجد استجابة كافية من موكله يزيده من الشعر بيتًا، القاهرة منهوبة وليست محروسة، مدينة مقهورة، مترنحة، تتهاوى عارية كل حين من بعض قيمها حتى خلعت رداء فضيلتها ولم تعُد تأبه بستر عوراتها، مدينة هرِمة شارفت على السقوط، وعليهما أن ينهلا من بواقي خيراتها قبل دفنها تحت التراب.

- وطبعًا لو قُلت لك إيه اللي رماك على المُر حتقول لي اللي أمَر منه.

يضحك محاميه ويجيبه بغير ما يتوقعه:

- بالعكس، الحلاوة والخير هنا واحنا بنغرف منهم براحتنا، لكن أنا واجبي أفطّمك إن ده بسبب تشغيل مُخنا ومعارفنا، علشان ماتظنش إنها سهلة وشيطانك يوسوس لك تعملها

لوحدك.

وقف فايز حنًا خالي الوفاض أمام النافذة العريضة يطل على الميدان، كلمات محاميه تُعاد في أذنه، ثلج على عقله لثخرس ضميره، عبر النافذة لا يرى سوى صورة شبه جامدة، سكنت الحركة إلا من بضعة باعة جائلين عائدين بعربات خشبية خاوية، تفور روحه بداخله ويغلي الدم برأسه، أفكار سوداء تجري كأسراب نمل تحت جلده، يقف وحيدًا بلا أهل ولا سند، الإفلاس في انتظاره، والموت يحاصره، فباغتته الحياة، لكنها حياة بائسة تخص شخصًا آخر، روحه محملة بهواجس اليأس، وترفرف بأجنحة الإحباط بعدما فقدت الشغف إلى الأبد.

ظل مكانه لأكثر من ساعة كتمثال يرصد تلاشي النهار وبدء مراسم غروب حزين، حتى ومضت فكرة برأسه، ماذا لو رفض طلبات محاميه كلها؟ الرجل متورط معه ولا بد سيخضع لشروطه وحتمًا سيخاف منه، لن يُعطيه النسبة التي يطمع فيها، سيكتفي بعشرة بالمئة فقط، ولو لمس منه تعنتًا وإصرارًا سيرفعها إلى عشرين، سيُباشر بنفسه كل شيءٍ لمدة شهر أو شهرين، وبعدها يعود للمنيا ويُبلغ الشرطة ويطلب حمايتها، لن يبيع خنازيره إلا على حقيقتها، لن يخدع أحدًا حتى يبارك ربه تجارته، لا يُضير الشاة سلخها بعد ذبحها كما يقول شيخ الجامع في خطبه، وحتى لو كان السجن لسنوات معلومات هو مصيره المنتظر لتزوير بطاقته، فهو على الأقل أرحم ألف مرة من سجن العمر في جلباب الشيخ فايز عبد

النبي.

قرر أن يُبلغ إخوته بقراره الأخير، هم شركاء الكذبة، يعلمون أنه لم يمت ويعيش حياة أخرى في ثوب جديد، من البداية وافقوه على فكرته وكانوا مرحبين، لم يثنوه عنها وتقبلوا الأمر بغير شرح أو تفسير، ربما من أجل المال، لكنهم غلفوا موافقتهم ببعض القلق، ليُظهروا خوفهم على حياته كي يحفظوا ماء وجوههم، يدرك ذلك جيدًا ويعيه، لكن آن الأوان لفض غلاف الزيف وكشف الحقيقة مهما بلغ قبحها. ارتاح للفكرة وخلع جلبابه وعِمّته وذهب لفراشه كي ينام مطمئنًا وكأنه فعل كل ما دار برأسه.

***

على مقربة من بيت فايز حنّا توقفت سيارة مرسيدس خضراء، هبط من بابها الأمامي الأيمن شاب ليفتح بابها الخلفي منحنيًا، تدلى بصعوبة رجل مهيب الطلة عظيم الكرش والأرداف معًا حتى استقام واقفًا فبدا فارع الطول، وفي رحاب مسجد الحسين جلس ثلاثتهم لينطلق لسان محامي فايز حنّا واصفًا بفخر ما خطط له وانتهى إليه منتظرًا التصفيق له على حُسن جريمته. أنصت الرجل المهيب باهتمام ثم قال بصيغة مَن يُريد جوابًا بنعم:

- تلات شهور بالكتير يا متر، وبعدها تشوف صِرفة للشيخ. أنا موش عاوز فضايح. المرة دي مش زي المرّات اللي فاتت.

قالها ونهض ليُصلي ركعتين عندما لاحظ تكاثر المصلين

حوله لمصافحته، كان البعض يدعو له والبعض الآخر يطلب خدمة، وآخرون يكتبون بيانات على عَجَل ربما يستجيب لهم، علا صوت المؤذن بأن الله أكبر وأعظم، واصطف الناس في صفوف عرجاء، تتعلق أبصارهم بالرجل المهيب، قلوبهم حائرة وألسنتهم لا تتوقف عن الدعاء له كي يقبل طلباتهم حتى صرخ فيهم الإمام:

- استقيموا يرحمكم الله.

ولمّا تنبّه لوجود الرجل المهيب بالصف الأول هدّأ من نبرته وابتسم في وداعة مطالبًا مساواة الصفوف، ثم أقام الصلاة، وبعد ختامها دعا المصلين إلى التبرع للمجاهدين من أبنائنا أعضاء الجماعات الإسلامية بأفغانستان، مؤكدًا أن التبرعات تابعة لوزارة الأوقاف وتحت إشرافها تنفيذًا لتوجيهات الرئيس المؤمن محمد أنور السادات.

في توقيت مقارب لصلاة العصر بمسجد الحسين لكن على مسافة أربعمائة كيلو متر من القاهرة، جلس إخوة فايز حنّا الثلاثة على مقهى النصر بمدينة ملوي يتباحثون ويتدبرون أمر شقيقهم الذي غادر البلدة والمِلّة صحبة خنازيره التي اشتراها منهم محاميه، يقلقهم وضعهم المالي، يعتمدون على دخل مزرعة الخنازير في حياتهم، ولو خذلهم الشيخ فايز سيصبحون من المحتاجين، جميعهم موظفون بالحكومة لا يكفي راتبهم معيشة أسبوع وبضعة أيام على أحسن الأحوال، تنحنح كبيرهم جرجس، ثم ألقى بسؤال لم يكن على الخاطر:

- أنا خايف فايز ينكشف والكنيسة تاخد خبر ونتفضح ونسيب البلد.. تبقى مصيبة يا رجالة.

تلقّى الصمت جوابًا على كلامه، لم ينشغل ذهن أحدهم بالدّين طالما التجارة مستمرة، لكن صغيرهم الفصيح الذي يكبر فايز حتًا بعامٍ قال بعد تفكير قصير:

- العِبرة بالنية يا خويا، وفايز متدين ويعرف ربنا واحنا مجبرين.

تشجّع أوسطهم على الحديث فقال:

- المهم يبعت الفلوس علشان ندفع الشهرية للجماعة السّنية اللي طلعت لنا في المقدّر، والحكومة مطنّشة والقرشين الخايبين بتوع التعويض اللي خدناهم منها خلصوا، ولو بلّغنا المركز على الجماعة حنحصّل فايز ويمكن نسبقه، ادعوا له يكملها على خير ويرجع لنا بالسلامة.

نفث كبيرهم دخان الشيشة وقال بقرف:

- وهي السّكة اللي أخوك فايز مشيها فيها رجوع يا خايب؟ قول ربنا يعينه ويقدر يكمل لآخرها.

ساد فجأة سكون غريب من حولهم، وشعروا بأن هناك مَن يتلصّص عليهم، مال صغيرهم عليهم بجسده ثم خفض من صوته وقال:

- لو الجماعة السّنية شمُّوا خبر إننا عارفين الحكاية حيقتلونا والكنيسة مش حتعمل حاجة، من المصلحة نكفي

على الخبر ماجور ونكتم خالص، وفايز قال إن الفلوس هتتحول على البوسطة كل شهر عن طريق المحامي بتاعه، يعني كلها يومين ونعرف راسنا من رجلينا.

سرَت همهمات ربما تُعبّر عن استحسان لختام الكلام، لكن ظل كبيرهم متوجسًا، يعرف أن فايز منطوٍ على نفسه، قليل الحيلة، مسالم لا يحب المشاكل ويفر منها فرار المرء من الأجرب، وربما تلين عزيمته وتفتر حماسته ويغلب خوفه صبره، فينكشف أمره ويموت قبل أوانه، راوده شعور بالندم لموافقته على خطة محامي أخيه، لكن الديون كثيرة، والمعيشة مكلفة، واعتماده على مزرعة الخنازير كبير.

هز رأسه في ضيق، وقبل أن ينساق وراء هواجسه سمع مع الجالسين دقّات حوافر خيول تدب الأرض وتقترب من المقهى، على مبعدة ظهر موكب الشيخ جابر أمير الجماعة الإسلامية بالمنيا، ربما أتى في زيارة مفاجئة لملوي، لكن التعليمات سارية على الجميع من قبلها، ولا بد من إظهار الاحترام والتوقير في أي وقت، خاصة وأن أمير ملوي يُصاحب الأمير العام ويمتطي حصانه متأخرًا عن الأمير بمسافة.

اقترب الموكب، هبّ كل مَن في المقهى، وقفوا منتبهين لا يجرؤ أحد منهم على إبعاد ذبابة اختارت أرنبة أنفه لتمرح فوقها، لا عين تغفل، ولا جفن يجفل، ولا بدن يهتز، تماثيل ترتدي جلابيب تنقر الشمس رأسها بضراوة حتى يمر الموكب. الوحيد الذي تباطأ بسبب سمنته كان جرجس حنّا شقيق

فايز، نهض متأخرًا وفي ظنه أنها أفضل من ألا ينهض أبدًا، لكن الشيخ لمحه عندما التفت ناحيته، هدّأ من سرعته حتى أبطأ، ودار بفرسه دورتين وهو يشد لجامه، توقف الموكب وعادوا بخيولهم للوراء تاركين الساحة للشيخ جابر منفردًا، الذي أشار لأمير ملوي ناحية المقهى وتبادل معه كلمات قليلة، على أثرها ترجل ثلاثة مُعمّمين من فوق خيولهم، واستدعوا جرجس شقيق فايز حثًا ليمثل بين يدي الأمير، في حين سرت رجفة في بدن الجميع والكل يظن أن الدور آتٍ عليه لا محالة.

أمسك اثنان من المعممين بذراعي جرجس المفرودتين، بدا وكأنه سيُصلب، ومن خلفه جلده الثالث عدة جلدات بسوط الخيل القصير، متعمدًا إهانته أكثر من إيلامه، لكن جرجس لم يتحمل وقبل الضربة العاشرة بثلاث ضربات خرّ راكعًا على ركبتيه باكيًا في صمت.

اقترب الشيخ جابر من جرجس البدين، ظل يدور بحصانه الأبيض حوله حتى أصابه بدوار خفيف، عزّاه في وفاة شقيقه فايز دون أن يترحّم عليه، بعدها سأله عن مزرعة الخنازير فأجابه جرجس بتلعثم أنها بيعت والحكومة أخذت الأرض بتعويض هزيل، وأنه وإخوته توقفوا عن التجارة، ثم أضاف بنبرة جزعة:

- نشكر ربنا يا مولانا على التوبة والحمد لله واحنا كلنا محاسيبك.

عبث جابر بلحيته ثم سأله عن مشروعه الجديد ولمّا أجابه بالنفي، هزّ الشيخ رأسه مستنكرًا وقال:

- وتدفعوا الشهرية منين يا خواجة جرجس؟ نصيحة منّي تاجروا في الفراخ مع النصارى اللي من مِلتكم لأنها حلال وبتكسب اليومين دول، والا تسيبوا البلد وتشوفوا حتة تانية تلم جتتكم.

لم يُمهله وقتًا للرد، اعتبر سكوته موافقة، ألقى بالسلام عاليًا وهو ينظر ناحية المقهى فردوه جميعًا على قلب رجل واحد بصوتٍ جهوري، كأنهم يُحيّون العلم في طابور الصباح بالمدرسة، مضى الموكب مخلفًا غبرة غطّت وجه جرجس الذي وقف منكسرًا متألمًا تائهًا وسط الطريق، لا يعرف في أي اتجاه يسير، ولمّا نظر ناحية إخوته وجدهم متفرقين، لا أحد منهم يقف بجوار أخيه.

***

8

عكس نزاهة

ظل التلفزيون يُعيد المقطع ذاته كفقرة إعلانية على مدار الساعة، يظهر الرئيس السادات ملء الشاشة وهو في مجلس الشعب معلنًا بصوته المميز:

- وزي ما شفتم اللحمة رخصت بسبب القرار، الجزارين والتجار أُجبروا على احترام إرادة الشعب، ولو تطلّب الأمر ممكن أمد القرار مرة تانية وتالتة، وبقولكم من هنا والكل سامعني، كل محافظ في محافظته مسؤول شخصيًا قدامي عن الأسعار، وأنا بتابع بنفسي معاهم كل يوم.

دق الجرس فأطفأ فايز التلفزيون وتحرك ليفتح الباب وهو يزفر بقوة ليواجه محاميه بثقة، اندفع المحامي كالسهم مطلقًا تحذيرًا أشبه بوميض:

- إوعى تفكر تحلق دقنك أو تربّي شنبك مرة تانية لأن الجماعة الشنية لهم عيون كتير هنا.

ألقى محاميه بقنبلة في حِجره يمكن أن تنفجر فيه بأي لحظة، لتفتته إلى شظايا لا يقوى على لملمتها، تهاوى فايز على أقرب كرسي، شاخصًا ببصره إلى محاميه في ذهول عجوز فقد غالبية ذاكرته، سأله عنهم أكثر من مرة، لكن محاميه يتهرّب من الإجابة، لم يُرحه على الإطلاق وتجاهل ارتباكه قائلًا بهدوء يميل إلى البرود:

- قدّامنا أسبوع يا شيخ فايز علشان نبقى مطمّنين إن الناس أكلت خنازيرك ومبسوطة.

رد فايز بلعثمة مَن يتخيّر كلماته بصعوبة:

- كان بدي أقولك حاجة بخصوص..

قاطعه محاميه كالعادة:

- بعدين لمّا نطّمّن الأول، المهم دلوقتي تلبس جلابية نضيفة وعباية وننزل نزور سيدنا الحسين علشان الناس تشوفك وتعرفك، وبعدها نعدّي على المسمط عازمك على حتّة لحمة حلال.

قالها المحامي وضحك وسط وجوم موكله، ثم أمسك بالهاتف وأدار القرص منشغلًا في مكالمات طويلة أجبرت فايز على النهوض.

لم يكد الأسبوع ينتهي حتى أتته البشارة من محاميه، اللحوم نفدت من المجمعات ومحلات السوبر ماركت الجديدة في أقل من يومين، وفي اليوم الثالث سأل عنها الزبائن بلهفة.

قبل أن يُفيق فايز من دهشة الخبر، صاح المحامي:

- الطلبية الجاية هتكون الضعف، أنا كنت واثق إن مشروعنا ناجح من ساعة ما زُرت مزرعة الخنازير يا راجل يا بركة.

جذبه محاميه من ذراعه واقتربا من النافذة، أزاح الستار بهدوء كمَن يكشف عن عرض مثير فوق المسرح، مشيرًا بيده

إلى أقصى الميدان ناحية اليسار، لافتة زرقاء تبدو بوضوح للناظرين، الجمعية التعاونية الاستهلاكية، يمتد أمامها طابور أسود طويل من النساء المرتديات ملايات اللّف، دلّالات يشترين لحم الخنزير المُغلّف في عبوات نصف كيلو أو كيلو حسب الطلب والحاجة.

وضع المحامي يده في جيبه وانتفخت أوداجه وهو يقول بثقة العارفين ببواطن الأمور:

- طول ما الطابور ممدود وعينك مش جايبة آخره، إعرف إننا ماشيين مظبوط واطمّن خالص.

لم تؤثر الكلمات في فايز، ذهنه مشغول بطابور أفكار يمتد برأسه، طابور من أسئلة بلا إجابات، فخرجت منه الكلمات مغموسة في الخوف حتى آخرها:

- سِيبك من الطابور وقول لي إيه حكاية الجماعة الشنية اللي قُلت من كام يوم إن لهم عيون هنا؟

- ما تقلقش إنت في أمان وشكلك بالدّقن ومن غير شنب واحد تاني خالص، عمومًا من بُكرة هيكون عندك حارس يخدمك ويخلّي عينه عليك وأنا ضامنه، لكن خلّي بالك منين ما تأمن يجيلك الخطر، فاحتياطي سيب دقنك وما تقلعش العِمّة والجلابية علشان محدش يتعرّف عليك.

سكت فايز بعدما أقلقه كلام محاميه، تبخّرت كل شجاعته على المواجهة والمفاوضة، بات مثل طائر لديه أجنحة كبيرة لكن لا فضاء للطيران، ولمّا تكشّفت السماء أمامه اكتشف أنه

صار داجنًا، لن يطير مهما رفرف بجناحيه.

***

دقّ الجرس بإلحاح غريب، هرع ليفتح باب شقته فوجد جمعًا من بشر لا يقل عددهم عن عشرة دخلوا بغير استئذان، ألقوا بالسلام مشفوعًا بالرحمة وخلعوا أحذيتهم قرب الباب وجلسوا في صالون الشقة، وقبل أن يُغلق فايز بابه وجد محاميه أمامه، تباطأ المحامي في الدخول، ثم همس في أذنه وهو يحتضنه:

- مبروك يا معلم فايز.. الليلة عيد.

راح يُقدّم له ضيوفه تباعًا، جزارون ووكلاء أغذية لسلسلة محلات السوبر ماركت التي بدأت تنتشر بأحياء القاهرة الراقية، وتُجّار مواشٍ، وأعيان حي الخليفة ومصر القديمة. تفرس فيهم فايز حتّا بريبة، وجوه تنعدم فيها الأُلفة وتسودها العتمة، نبراتهم خشنة وعيونهم بجحة حاسدة يُطل منها الجشع بلا مواربة حتى ظن فايز أنه لو جلس معهم بمفرده لنهشوه حيًا.

علا صوت المحامي بفخر وهو يؤكد لفايز حتّا أن لحومه المستوردة أعجبتهم، تذوقوها بأنفسهم في وليمة صغيرة أقامها لهم ظهر اليوم، وجاءوا لتقديم القرابين ونيل الرضا.

دار الحديث من حول فايز حتّا وهو لا يمسك بناصيته أبدًا، عرف من ثنايا الكلام أن التجار يرغبون في عقد صفقة كبيرة معه بخمسين ألف جنيه دفعة واحدة، لعب المبلغ برأسه

وأفقده مقاومته، ربما لو سمع إخوته الرقم لتمنوا لو كان غيّر ديانته وبطاقته منذ الصغر، هزّ رأسه وشرد مبتسمًا ابتسامة مبتورة حزينة، حتى باغته أحدهم بسؤال عن صنف اللحوم المذبوحة، فارتبك ولم يرد مكتفيًا بتحويل الابتسامة إلى أخرى بلهاء، لكن محاميه تطوع بالإجابة:

- ده سر المرعى يا معلمين، والشيخ فايز بيستوردها من شريكه في الأرجنتين.

رد الرجل باستنكار وقد بدا على ملامحه بعض الضيق:

- واشمعنى الأرجنتين يعني؟ دي في آخر بلاد المسلمين يا شيخ فايز.

أجاب المحامي أيضًا هذه المرة وكأن فايز رجل أخرس:

- السّعر يا معلمين، هو في لحمة سعرها رخيص كده وطعمها بالحلاوة دي؟

- عندك حق والله، اللهم صلِّ على النبي، لكن إحنا عاوزين نصيبنا قايم مش متقطع علشان نعرف نشتغل ونطلع بحسنة حلوة يا شيخ فايز.

شعر فايز هذه المرة أن كلمات الجزار تُزلزل كيانه، تخيّل نفسه مذبوحًا ومُعلقًا أمام حانوت جزارة، والجماعة السّنية تقطع لحمه إربًا وسط تكبيرات الجائعين، ما يطلبه الجزار الخبيث هو المستحيل بعينه، خنزير وحيد يتيم يكشف الملعوب كله، ويحيلهم إلى الجحيم مباشرة دون حساب.

نظر لمحاميه نظرة غريق يُشرف على الموت فأنقذه مخاطبًا الجزار:

- وما له يا معلم، نسلمك نصيبك قايم مفيش عندنا مشكلة بعون الله، لكن اصبر علينا شهرين تلاتة لغاية ما نخلّص الطلبيات اللي ورانا، وربنا يكرم الكل إن شاء الله.

نهض المحامي واقترب من الشخص الذي يرتدي بدلة بُنية داكنة، أسفلها قميص أبيض غيّب الغبار والعرق نصاعته، تحرّر صاحبها من ربطة العُنق وراح يتنفس بصعوبة لبدانته، قدّمه المحامي قائلًا بفخر:

- سيد بيه سِدرة وكيل وزارة التموين، ومدير الجمعيات التعاونية في غرب القاهرة، عاوزين نكرم الحكومة يا شيخ فايز علشان الغلابة تاكل، أنا بعد إذنك اتفقت مع الجزارين على نُص البضاعة اللي جبناها، والنُص التاني حنوزّده للجمعية التعاونية، وإن شاء الله الطلبية الجاية نلبي احتياجات الكل.

من وسط الجمع انبرى جزار آخر فجأة وقد ساوره شك بان على ملامحه، وقال مخاطبًا فايز:

- بس أنا أعرف ناس كتير في أسيوط، جزارين وأصحاب مزارع مواشي لكن لا مؤاخذة عمري ما سمعت عنك يا عم فايز ولا عن شركة الشيخ بتاعتك.

تعرق فايز حنًا ونظر إلى محاميه كالمعتاد، هذه المرة بدا كممثل مسرح نسي جملة حوار وراح يرجو الملقن لينجده

بكلمة تذكره ببقية الكلام.

ضحك المحامي مشعلًا سيجارة، واضعًا ساقًا فوق أخرى ليستعيد ثقة اهتزت قليلًا، وقال:

- الشيخ فايز عقبال عندكم جميعًا كان جار سيدنا النبي.

ارتفعت الأصوات تُصلي وتُسلِّم بمَن فيهم فايز حتًا نفسه، فاسترسل المحامي وهو يهز رأسه مستحسنًا المقدمة التي اختارها، مؤكدًا على لقب الشيخ ليسبق اسم فايز في كل حديثه:

- الشيخ فايز عيلته من أسيوط لكن الكار بتاعهم موش الجزارة، كلهم فلاحين وعندهم طين كتير، ومن سنتين الشيخ فايز سافر السعودية، وهناك شارك واحد خواجة من الأرجنتين اللي أخدت كاس العالم في الكورة السنة اللي فاتت، ولمّا الخواجة صفّى الشُغل ورجع بلده اتفق مع الشيخ فايز إنه يورد له كل شهر كمية محترمة، وبعدها الشيخ فايز نزل مصر لأن أسيوط صغيرة، وربنا يبارك.

قطع الحديث صبي تجاوز العشرين بقليل يحمل صينية كبيرة تراصت فوقها أكواب شاي، خرج من المطبخ بثقة كأنه من أهل البيت، عرف فايز أنه يُدعى رضا لمّا ناداه المحامي، لكنه لم يعرف متى أتى ولا كيف دخل الشقة ومنها إلى المطبخ والجرس لم يدق من بعد وصول الضيوف. تبادل نظرة خاطفة مع محاميه لكنه تجاهله وانشغل بأحاديث جانبية مع الجزارين، خاصة المتشكك الذي يريد العجل قائمًا،

ربما كان يُبدّد هواجسه ويُقنعه بخنزير مذبوح أفضل وأبرك، هكذا حدّث فايز نفسه ليُطمئنها.

قبل أن ينفض مولد الجزارين، وهم يتبادلون معه السلام قرب باب الشقة، لمح أحدهم صورة فايز مع أبيه وأمه وهو طفل صغير، علّقها فايز على يمين الداخل في مكان واضح، لفت نظره الصليب المُعلّق على الجدار في خلفية الصورة، وقف أمامها ثم التفت ناحية فايز سائلًا في ريبة:

- دي صورة الحاج؟

أومأ فايز بالإيجاب وهو ينتفض، لكن محاميه أسعفه كالمعتاد بسرعة بديهة يُحسد عليها قائلًا:

- الحاج والحاجة لكن قبل ما تروح الحجاز، صورة في استديو تصوير في أسيوط والجماعة النصارى هناك بيتباركوا بالصليب زي ما انتم عارفين يا معلمين.

غادر الجمع ومر الأمر مرور الكرام، قبل أن يتأهب محاميه للانصراف نصحه بوضع الصورة في غرفة نومه حتى لا يتعرّض لحرج من الزائرين، تجاهل فايز نصيحته وهو لا يزال متمسكًا بقلقه وسأله:

- ممكن أعرف إزاي حتورد خنازير قايمة للجزارين يا متر على إنها عجول؟

ابتسم المحامي بخبث، أيقن أن فايز خطا الخطوة الأولى في مشروع مزرعة الخنازير الجديدة، ولن يلتفت خلفه مرة

ثانية، جذبه من ذراعه ناحية الأريكة عائدًا للصالون، وأجلسه على يمينه قائلًا بهدوء:

- فكرك يعني الريس السادات يقدر يمدد قرار عدم ذبح إناث الماشية شهر كمان؟

- وافرض عملها يا متر؟

ضحك محاميه وقال:

- ساعتها الناس تدبحه، القرار ده علشان يهدّي الشعب بسبب ارتفاع الأسعار، مجرد فرقعة، واحنا حنظبط السوق ونساعد الحكومة وهي برضه تساعدنا وتغمض عينيها عنّنا.. شيّلني وأشيّلك يعني. بالكتير شهر أو اتنين زي ما قُلت لك والموضوع كله يخلص، والجزارين اللي شُفتهم النهاردة مش حيبصوا في وِشّك تاني ولا حيطلبوا عجل قايم ولا نايم.

هرش فايز ذقنه وألقى بسؤال آخر أصعب من الذي قبله، وكأنه يُحاصر محاميه في لعبة شطرنج:

- طيب افرض إن الجزارين لقوا أسعارنا أقل وحبوا يشتروا مِنّنا بسعر الجُملة؟

همّ محاميه بالنهوض وهندم بدلته وقال بالهدوء ذاته:

- زي ما قُلت لك قبل كده، إحنا هنشتغل في اللحمة بتاعتنا كام شهر، نبيع ونكسب وبعدها نغيّر النشاط والمحافظة كلها ولا من شاف ولا من دِري، المهم دلوقتي هِمّتك معانا تعمل كمية كبيرة من الخلطة المركزة واحنا نبقى نخفّفها بمعرفتنا،

ورضا خدّامك لو حابب يساعدك هو جاهز.

قالها وأشار له ناحية الفتى العشريني الذي ظهر فجأة بالشقة. لكن فايز فقد هدوءه وسأل محاميه بعصبية:

- عاوز أعرف بالتحديد إمتى هنغيّر نشاطنا المهبّب ده؟

ضحك المحامي وقال وهو في طريقه إلى باب الخروج:

- لمّا تموت.. لكن دلوقتي البقية في حياتك يا شيخ فايز.

***

9

نصف برلمان

دارت أيام وليالٍ، ومرّت أسابيع، واكتملت شهور لم يهتم بحسابها أحد، المحامي افتتح مكتبًا بالقاهرة ونقل نشاطه إليها، وفايز حنًا لم يمت، تحول إلى ترس في ماكينة كبيرة تضخ أموالًا كثيرة من بيع الخنازير، كل شهر تأتي سيارة نصف نقل صغيرة لتحمل براميل صغيرة مُعبّأة بمنقوع الخلطة التي يُعدها فايز حنًا بمطبخه ويخففون تركيزها بكميات كبيرة من الماء، يضعها الخادم رضا بالصندوق الخلفي لتمضي حاملة السّر فوق ظهرها، سِر الخلطة الذي يملكه فايز وحده حتى الآن وفشل خادمه في كشفه، السّر الذي يُطيل حياة فايز، لكنه يعيش وسط الناس أشبه بممثل في مسرحية رديئة، يلعب كل ليلة دور الشيخ الملتحي، مانح البركة وموزع الصدقة، الكل يُشيد بجودة لحومه ويدعو له في كل صلاة.

الخلطة سحرية، غيّبت الطعم الأصلي للخنزير، وغيرت لون لحمه إلى داكن أقرب للبقري، ولا تترك وراءها رائحة، مثلها مثل الجريمة الكاملة التي ينشدها كل المجرمين، وساهم السعر المنخفض في إغفال التدقيق عن المنشأ أو التفتيش وراء فايز حنًا، صارت الجمعية التعاونية تبيع منتجاته، والطوابير تمتد من مسجد ابن طولون حتى سبيل أم عباس عقب كل صلاة جمعة، وهو الموعد الأسبوعي الذي اختاره

محامي فايز حنّا لنزول اللحوم بالجمعية، بعد أن تبتهل جميع المساجد بالدعاء لفايز حنّا، ويردد المصلون خلف الأئمة.. آمين.

بسط المحامي سجادة صلاة باتجاه القبلة وبدأ يُكبّر، ثم قرأ الفاتحة، ركع وسجد وتلا التحيات وسلم ثم نهض ملتفتًا إلى فايز سائلًا بعينيه إن كان استوعب طريقة الصلاة، أم يحتاج مزيدًا من الشرح.

طوى فايز حنّا سجّادة الصلاة وقال بهدوء:

- ما لوش لزوم، أنا عارف المسلمين بيصلوا إزاي، لكن مش ناوي أروح الجامع، مالكش صالح بالعبادة.

- ما ينفعش يا شيخ فايز، الصورة لسه ناقصة ولازم الناس تشوفك كل صلاة جمعة.

- الله يصلح حالك يا متر أنا..

قاطعه المحامي محتدًا:

- الموضوع دخل في الجد يا بني آدم، إحنا من شهر قُلنا إنك عملت عملية جراحية وعلشان كده مش قادر تروح الجامع، وبعدها قُلنا رجلك اتكسرت، لكن دلوقتي ما ينفعش ما تركعهاش.

- إحنا ما اتفقناش على كده يا متر.

قالها فايز حنّا بنبرة ضيق حقيقية، فأرخى محاميه شعرة معاوية وقد تبدّلت نبرته:

- يا سيدي اعمل نفسك بتصلي وقول في سِرّك اللي يريح قلبك، وكلها بيوت ربنا مش حنختلف.

بعد انتظام ظهوره في المسجد الكبير بحي الخليفة، اعتبر الأهالي الشيخ فايز حقًا رجلًا مبروكًا، هو الذي يُطعمهم ويرضى بمكسب قليل، وربما يخسر أحيانًا ويعوّض خسارته من بيع اللحم ذاته بالسوبر ماركت للأغنياء، وكلما غادر مسكنه احتشد المئات لمصافحته، وعند خروجه من الجامع في طريقه للبيت تزغرد النساء ويُقبل الأطفال مع ذويهم مبتسمين لتحيته. صار مثلًا وقدوة، وطالب المواطنون في أحياء مجاورة جمعياتهم التعاونية بالتعاقد معه، كبر البالون وتضخّم، وقبل انفجاره بقليل التقط الخيط صحفي باحث عن الجديد والمثير، أجرى معه حوارًا، والتقط له عشرات الصور مع الخنازير المذبوحة والمعبّأة في أكياس أنيقة، مطبوع عليها شعار شركة الشيخ "حلالًا طيبًا"، ومن بعد النشر سرت العدوى، انتقلت عدسات التلفزيون إلى حي الخليفة، أجروا معه لقاء بشقته وهو يرتدي جلبابًا فوقه عباءة وتُزين رأسه عمامة، ممسكًا بمسبحة كذيل الحصان، يُقلّب حباتها شاردًا في مصيبته، ومجيبًا عن أسئلة تم تحفيظها له قبلها بأسبوع عن طريق محاميه، لتخرج مغلفة بتقوى وورع إلى آذان المشاهدين، ثم صوروا معه لقاءً آخر بالطريق العمومي، وسط الأهالي الذين التفوا حوله، وفي نهاية اللقاء غلبتهم الحماسة فحملوه على الأكتاف وطافوا به هاتفين بحياته، لقطات تلفزيونية من زوايا عديدة وهو يمر من وراء الغلابة

وأهل السبيل والمساكين الجالسين على مائدته، مصحوبة بموسيقى هادئة تُثير الشجن، يتبسم الشيخ فايز في وجوه المواطنين، ويربت أكتافهم، وتارة يتحدث مع بعضهم في ود سائلًا عن الأحوال والأنجال، داعيًا بموفور الصحة ودوام الحال، يُصافح آخرين بترحاب، ويداعب أطفالًا، ويومئ لسيدات غاضًا بصره وهو يربت صدره بكفه.

التقطت الكاميرات صورة بانورامية للمواطنين وهم يأكلون بنهم على مائدة ممتدة، لا يرى أولها آخرها، فوقها صوانٍ عريضة تحمل تلالًا عالية من الأرز وقطع اللحم المغموس في خلطة فايز حنّا والمحمر بعناية، يوم البركة التي يمنحها الشيخ لأهل الحي كل شهر، ويتولى المحامي ترتيبها خَصمًا من نصيب الشيخ وحده، ولمّا اعترض فايز حنّا مرة ردّ عليه محاميه ببجاحة:

- ما هو الفرق في ميزان حسناتك يا فضيلة الشيخ.

هزّ فايز حنّا رأسه مستنكرًا، ضاق صدره بكل السباب واللعن لمحاميه، لكن لسانه لم ينطق بحرف، اقترب من النافذة وراح ينظر بعشوائية إلى الميدان، وقعت عيناه على شباب في مثل سنه يضحكون بصوتٍ عالٍ، كم يفتقد هذه اللحظات التي فشل في بلوغ نهايتها دومًا، انغلاقه وخوفه وانغماسه في عمله حرمه من لهو الشباب حتى اقترب من الثلاثين، أقصى ما فعله منذ عشر سنوات أن هبط مركز المنيا ذات ليلة مع صديقين، ذهبا إلى خمّارة ترقص بها غازيّة ليلة الجمعة من كل أسبوع، تجرّع صاحباه زجاجات البيرة بينما تعثر هو في

زجاجته الأولى، ولمّا عاد ورائحة الكحول تفوح منه خاصمه أبوه شهرين، لكنه قبل إعلان الخصام صفعه لأول مرة.

تحسّس فايز وجهه في ضيق بعدما تذكر الصفعة، ثم ومضت برأسه فكرة، ارتدى ملابسه وقفز في أقرب تاكسي متجهًا لمنطقة وسط البلد، صادفت عيناه اللافتات المزينة بمصابيح ملونة، فوقها أسماء الراقصات والمطربين بحروف بارزة، كلمة حانة بالعربية والإنجليزية تنطفئ وتومض فتزغلل عقله قبل عينه، على مقربة من أحد محال السهر دكان صغير أمامه ثلاجة بيرة مفتوح سطحها، يبرز من بطنها لوح ثلج ملفوف بقطعة خيش تغطي الزجاجات الخضراء الطويلة، التي تبرز أعناقها من الثلاجة وتناديه بشغف.

فكر في ابتياع زجاجة والعودة لمنزله كي يشربها على مهل، لكنه خاف من وشاية خادمه رضا. يؤكد له المحامي كل مرة أن الخادم لا يعرف حقيقة ما يفعلانه، وفايز يصدقه مجبرًا، ظل ينظر للزجاجات بلهفة عاشق مع أنه يوقن بزواج معشوقته من آخر وباتت محرمة عليه، رغم ذلك تحركت خطواته بثقل، وفي المتر الأخير، وبينما البائع ينظر له بدهشة واستنكار، وجد فايز حتًا مَن يُقرئه السلام بحماس، تنبّه لأنه يرتدي الجلباب والعمامة، ولا يزال حليق الشارب ومُطلق اللحية، أحسّ بنغزة بسيطة أوجعته فتحسّس صدره بعفوية، لامست أصابعه بطاقته الشخصية، فابتسم للبائع في بلاهة ثم رد السلام واستدار عائدًا، ومن خلفه بدا إعلان ضخم لمسرحية "شاهد ما شفش حاجة"، يتصدره وجه عادل إمام،

وقد غطّت قماشة عريضة عينيه فحجبت عنه الرؤية.

***

مثلما لا يمكن للمرأة إخفاء حملها بعد الشهور الثلاثة الأولى، بدا فايز حنّا في شهره الرابع بمصر القديمة مثل زعيم شعبي، يسير آمنًا بغير حراسة وسط رعاياه، يسعدون بمجرد رؤيته أو نيل شرف مصافحته، وفي غمرة توهجه نسي، ومحاميه من قبله، أن في مصر الهتاف والدعاء يكون لواحد فقط لا ثاني له، والمحبة المبالغ فيها والفداء بالروح والدم من الأمور التي لا تقبل القسمة على اثنين.

تحركت الأجهزة الأمنية لجمع المعلومات عن الوافد الجديد، لكنها لم تصل إلى مقدمات تؤدي لهذه النتائج المدهشة عن شعبيته الجارفة، ساورهم شك عظيم يليق برجال المباحث عن بدايات الشيخ القادم من أسيوط ولا يعرف أحد ماضيه، بدا مثل نبت شيطاني، تتبعوا الخيوط لكن ظلت حلقة مفقودة لا يصلون إليها، وفراغ كبير لا تسده المحبة البالغة والشعبية الجارفة، ومع اتساع الهوة كبر فضول الضباط وتضخمت حاسة الشك لديهم.

بعد اجتماعات مع قيادة عليا لا صبر لها على مزيد من التحريات وجمع المعلومات، انتهوا إلى اتباع الطريق المختصر، استدعاء فايز حنّا من بيته في ليلة من ليالي الشتاء الباردة لاستجوابه، واستخراج ما يكتمه من أسرار بين ضلوعه. صدر قرار باعتقاله لإضفاء ثوب قانوني على

الاستدعاء، وبعد استجوابه يبتون في أمره.

حاصرت سيارات الشرطة الشارع الذي يُقيم فيه الشيخ فايز من الجانبين، هرول الجنود وراح الضباط يُعطون التعليمات لمَن هم أصغر منهم رتبة كي يصطحبوا فايز من فراشه عنوة لو فكر في المقاومة، مع منعه من الاتصال بأحد الكبار الذين يملكون القدرة على إعادة القوات إلى المكان الذي أتت منه، لكنهم فوجئوا بما لم يتوقعوه. هدير شعبي علت أمواجه فجأة، غضبة أهالي عارمة أشبه بعاصفة عندما انتشر الخبر بالمنطقة، هرعوا من بيوتهم رغم البرد والمطر، صنعوا درعًا بشرية ينافس سور الصين العظيم حول مدخل بيت الشيخ فايز حنّا، هوجة ربما لم تحدث من أيام عرابي. تراجعت قوات الشرطة مُجبرة عقب نداء على أجهزة اللاسلكي التي علت خشخشاتها، نداء يُمكن اختصاره في كلمتين: "المأمورية اتلغت".. دون بيان أسباب الخيبة.

بعد الموقعة وهزيمة الشرطة أُقيمت الأفراح ومُدّت الموائد، أكل البسطاء والمهمشون وعابرو السبيل من أهل حي الخليفة والأحياء المجاورة من لحوم الخنازير بكميات مضاعفة هذه المرة، وليمة استثنائية استمرت على مدار ثلاث ليالٍ، اقترحها محامي فايز حنّا حتى يضمن ولاءهم وحمايتهم لهما من الشرطة إن فكرت في العودة. يحتاج محاميه بعض الوقت لبيان سبب استدعاء موكله رغم صلته بكبار المسؤولين، وهي حصانة عظيمة تمنح صاحبها حرية حركة في مساحة رحبة مهما أثار من غبار الشكوك وراءه، فلماذا

سقطت ورقة التوت فجأة بغير مقدمات؟

رغم نجاح وليمة الخنزير الاستثنائية في كشف الانتماء، وترسيخ الشعبية، وبيان المكانة التي وصل لها فايز حتًا في نفوس المواطنين، فلا شيء يضمن كسر العين والانصياع التام إلا إطعام الأفواه وملء البطون، ورغم ثقة المحامي في براءة موكله إلى يوم الدين بسبب شعبيته التي باتت جارفة، إلا أنه فشل في معرفة سبب الحملة الغاشمة للقبض على الشيخ، وانتابه قلق عظيم من عسعسة الشرطة وراءه، وانشغل عقله بمعرفة سر الخلطة تمهيدًا للخلاص من موكله في أقرب فرصة.

حتى الآن يستطيع فايز أن يلوي ذراعه ويطمع فيه متحصنًا بسر التركيبة التي يعدها في الخفاء، و الخادم رضا فشل في التلصص، ولا يزال فايز حريصًا على إبقاء السر في رأسه، لا يتوقف عن خداعهم ويتلذّذ بمراوغتهم، يكلف الخادم بشراء مكونات وهمية من السوق، فيعتقدون أنها التي يستخدمها في صناعة الخلطة، يشتري رضا الكثير من زجاجات الخل والزيت الحار وأشولة الدقيق، يدخل فايز حتًا مطبخه ويُغلق بابه، يُبعثر المكونات بعشوائية ويُلقي بالخل والزيت في حوض المياه، يظنون أنهم كشفوا سره ويقلدونه، يجربون تركيب الخلطة بالمكونات ذاتها في غيابه، فيكتشفون أن خلطتهم تُفسد اللحم وتترك وراءها أثرًا ورائحة، ليبقى السر بين ضلوع فايز يحتضنه كل ليلة ولا يبوح به لمخلوق.

رغم الخداع الذي يتكرر كل مرة بحذافيره إلا أن محاميه تعجبه اللعبة، يحترم ذكاء الآخرين حتى لو كانوا أعداءه، فما بالنا وفايز حنّا بالنسبة له دجاجة تبيض ذهبًا كل يوم، والآن صار لها شعبية هائلة حتى استحال ذبحها.

على الضفة الأخرى من النهر بمقر الحزب الحاكم خلف المتحف المصري، تواردت الخواطر ذاتها بذهن مساعد أمين تنظيم الحزب الوطني، الرجل الثالث بمصر كما يتهامس حوله المواطنون، قرّر النزول إلى الحلبة ومنازلة لاعبين جدد دخلوا ملعبه الأثير، رأى في فايز حنّا موهبة يستحيل إغفالها، وليس مجرد بقرة يمكن حلبها إلى حين كما صوّرها لهم محاميه عند وصوله القاهرة منذ شهور صحبة شيخه.

تنهّد المساعد ثم تحسّس بطنه واستعدل ربطة عنقه لتقسم كرشه لنصفين متساويين، دار بجذعه نصف دورة وأدار أربعة أرقام على هاتف أحمر مثبت على رف خشبي بجوار مكتبه، على الناحية الأخرى جاء صوت اللواء نائب مدير الأمن مرحبًا مستعدًّا لتنفيذ أي أمر يُقال، دخل المساعد في الموضوع بدون مُقدّمات لمّا رأى الأرض ممهدة:

- خسارة معركة يا سيادة اللواء موش معناها إننا خسرنا الحرب، أنا ما يهمنيش الماضي بتاع الواد الجربوع ده دلوقتي، بعدين نشوف حكايته وأكيد حنلاقي له مَسكة، اللي يهمني مستقبله، وأنا شايفه مع الحزب علشان شعبيته، فبعد إذنك تكون تعليماتك لأولادنا وإخواتنا الظُّبّاط في قسم الخليفة إن أي طلب يطلبه لأي مواطن يُجاب فورًا، تحياتي يا

معالي الباشا ونبارك لك قريب في حركة الشرطة.

وضع المساعد السمّاعة دون انتظار رد اللواء، يوقن أنه سيستجيب، الوعد بالمباركة عند الترقية يُثير الخيال ويُجدّد الأمل في الالتصاق بالكرسي، وحتى لو لم تنجح الحيلة سيفهم اللواء أنها تعليمات عُليا من الوزير، ولو أخطر وزيره سيظن الأخير أنها توجيهات من الرئيس، وهي بطبيعتها من النوع الذي لا نقاش فيه، أوامر تُنفّذ كما هي وبعدها نعالج الخطأ إن وجد.

تحسّس المساعد كرشه مرة ثانية، ثم ضغط زرًا صغيرًا، ليأمر مدير مكتبه بدخول فايز حنّا ومحاميه المنتظرين منذ ساعة أو يزيد. ما إن تخطّيا عتبة الباب حتى نهض المساعد ودار من وراء المكتب فاتحًا ذراعيه وهو يقول بصوته الجهوري رافعًا حاجبه الأيسر العريض دون التخلي عن ابتسامته الماكرة:

- ها.. نقول أهلًا وسهلًا يا فضيلة الشيخ والا مبروك يا معالي النايب؟

التقط محامي فايز حنّا الخيط بسرعة من شفتَي المساعد، وهتف قبل أن ينحني كرقم ثمانية:

- إحنا خدّامين مصر يا فندم شيوخ ونوّاب.

- عفارم عفارم.

ابتلع مساعد أمين التنظيم فايز بين ذراعيه حتى أوجعه،

بدا مستسلمًا واهنًا بطيئًا في حركته وكلماته، مثل مريض بمرض مزمن، لا يفيق من التخدير إلا قليلًا، ويخضع طوال الوقت لعمليات جراحية، لكنه لا يشفى أبدًا.

جلس فايز حنًا ودار الكلام من حوله كالمعتاد، وفجأة داهمه شعور غريب، شعر بأنه مثل خنزير لا يهمه سوى الطعام، أي شيءٍ يُقدّم له سيأكله حتى لو كان قمامة، المهم أن يملأ بطنه ويسد جوعه، بات لا يتفاعل مع ما يدور حوله، مُسيّر خانع فقد شرفه وروحه وهويته، وكل شيءٍ كان يملكه قبل أن يُطيع محاميه.

فجأة رج جسده صوت المساعد الجهوري وهو يقول:

- خلال أسبوعين مجلس الشعب يبتدي الدورة الجديدة، وإنت معانا بالتعيين يا شيخ فايز بإذن الله.

اتسعت ابتسامة المحامي، لم ينتظر المساعد ردًا، أخرج استمارة انضمام دفع بها ناحية فايز حنًا، الذي وقّع عليها بغير تفكير، ثم أطال النظر لمساعد أمين التنظيم وابتسم. اليوم تأكد أن الحكومة كلها سوف تحميه باعتباره من العشرة المبشرين بالحصانة البرلمانية.

***

10

السيدة العذراء

الرياح قوية لكنها لم تفلح بعد في نزع ثوب الطبيعة، لا تزال الأشجار مورقة والأغصان لم تتخشّب ليسهُل كسرها. انهمرت دموع فايز حنّا راثية حاله، لم يستطع حبسها لفترة أطول، يكفيه ما يحبسه برأسه من أسرار ويجاهد حتى يمنع خروجها كلما فتح شفتيه، يكذب كل يوم ألف مرة منذ أن يصحو حتى ينام، ينهض كل صباح مُثقلًا بشعور الاغتراب، كمَن نام في مكان واستيقظ فوجد نفسه في مكان آخر، أرهقته السباحة عكس التيار، وتلفت أعصابه من أهل القاهرة الذين لا يكفون عن الدعاء له، وفي الوقت ذاته يدعون على أهله وناسه في كل صلاة، أرهقته الأرجوحة التي يمرح فوقها منذ شهور، يوم خانع، ويوم طامح، ويوم ثالث جانح، وأحيانًا تائب من الذنب في خلوة مع النفس قرب الفجر، ليعود إلى جُرمه مع إشراقة شمس النهار. مشاعر متباينة تمزقه كل لحظة، كأنه شخص أتى من عالم آخر يتلصص على فايز حنّا الحقيقي، ويُلقّنه أمورًا لا علاقة له بها فيُردّدها وراءه كببغاء.

زفر في ضيق مفتقدًا نسخته الأصلية، ربما كانت أضعف وأقل حيلة، لكنها كانت تريحه وترضيه وتطمئنه، بات أشبه بنبتة ذابلة تتوق لقطرة ماء عذبة تجدد عروقها.. لنسمة رقيقة تحركها فتعلن حياتها، لدفعة هواء تُجلي روحه وتُزيل

طبقات الهموم التي تراكمت فوقها، حتى لاحت وسط العتمة بوادر نسيم فتمايل معها. دقّ قلبه ورجف بمشاعر جديدة عليه نحو فتاة بعينها، لم يستطع منع نفسه من التفكير فيها، وجدها مناسبة كزوجة، أم محتملة لأطفال منتظرين، عزوة وسند خاصة مع إحساسه بالوحدة وسط زحام البشر، حياة جديدة في مكان بعيد أكثر طهارة ممّا هو فيه.

بدأت القصة عادية مثل كل قصص الحب النمطية ، من أول نظرة، لكنها نظرة من طرف واحد، فمريم لم تُعلن عن مشاعرها يومها حتى أرسلت له أمها صينية طعام ردًا على هدية فخذة خنزير مُتبّلة أعدّها فايز بنفسه ليلة عيدهم، ولم ينسَ وضع الخلطة عليها من باب الاحتياط، بعدها دعاه أبوها لتناول الشاي شاكرًا هديته، ورغم كل المشاعر الدافئة التي غمره بها الأب والأم، إلا أن مريم أفاضت ليلتها بنظرات كشفت ما يدور بقلبها، مُعلنة لفايز أنها مثله، أحبّت من أول نظرة، هكذا ظن فايز، فمريم لم تتقدّم بعدها خطوة واحدة باتجاهه، رغم أنها لا تحيد عن طريقه، حتى كاد في مرة يقول لها: وأنا أيضًا أحبك، لكن عقدة خجله تلازمه، وفارق الديانة الرسمي صار سدًا عظيمًا فلم يعُد يراها من ورائه بوضوح، تطير الكلمات من فوق لسانه كلما التقى بها، لكنها تظل منقوشة في عينيه لعل مريم تقرأها مرة، وفي كل لقاء عابر بينهما بالمصادفة أو مُدبّر منه على دَرَج البيت لا يستطيع أن يخفض نظره عن عينيها الواسعتين، ويظل دفء راحتها في كفه كلما صافحها، يكاد يجذبها كل مرة

ناحية صدره، يريد أن يخبئها بين ضلوعه ليبوح لها بمشاعره، ويتراجع في آخر لحظة عندما يتذكر بطاقته التي ترقد على يمين قلبه في حافظة نقوده مع أن الفتاة لينة، تنطق عيناها باستجابة لأقل فعل، تنظر له مريم في حيرة ولا تفهم لماذا يجذبها ناحيته بلهفة عاشق، ثم يتخلى عنها بسهولة إلقاء عقب سيجارة في كل مرّة.

اليوم رفض فايز اقتراح محاميه بالانتقال إلى شقة أنيقة بحي المهندسين الجديد، شقة تليق بتجارتهم وأعمالهم التي تكبر كل يوم كما يتفاخر محاميه، قرّر البقاء في حي الخليفة من أجل مريم، راغبًا في الزواج منها لكنه لا يعرف سبيلًا لتحقيق نواياه الطيبة، كاد يخبرها بأنه قبطي مثلها، ثم هداه عقله لسؤال شيخ الجامع قبلها، فأفتى له بصحة زواجه من القبطية هديًا بالسيرة النبوية، لكن الفتوى خرجت على مضض من بين شفتي الشيخ وبدأ يزكي المسلمة أولًا. مع ذلك ارتاح قلب فايز وتخلى عن بعض حذره، وفي غمرة محبته وفيض مشاعره التي لا تزال من طرف واحد، نوى الاندفاع ناحية مريم بغير لجام، فالمرء تذهب عنه نصف أحزانه إذا صادف مَن يحبه، ويزول النصف الآخر لو بادله الطرف الثاني الحب.

أدرك محاميه ما لحق موكله من تغيير، ظل يراقبه مثلما يراقب النسر فريسته من علٍ قبل الانقضاض، ونجح الخادم رضا في كشف المستور بعد تلصّص استغرق يومين. خاف محامي فايز حقًا من انفجار البالون في وجوههم جميعًا،

فارتأى بعد تفكير قصير تأجيل المواجهة لعله يستطيع إقناع فايز بالحسنى بدلًا من التهديد.

باغته وهما يتناولان طعام الغداء بمفردهما:

- طول عمرك فقري.. هو في حد يرفض شقة في المهندسين علشان يعيش في الخليفة؟

- الفقري اللي مش عاجبك هو سبب النعيم اللي إنت فيه.. ما تنساش.

- مش أحسن من الموت يا معلم فايز؟ والا نسيت؟

ندت من فايز ابتسامة تشي بكفره بكل شيءٍ، ثم قال بلا مبالاة:

- الموت عندي أهون من اللي بنعمله، أنا قربت أتجنن لو كمّلت المشوار لآخره.

أشعل محاميه السيجار الذي صار يُدخنه مؤخرًا، وقال بنبرة رخيمة كأنه في حديث تلفزيوني:

- الحياة فُرصة بتعدي قُدامنا وألف واحد بيتشعبط فيها، والشاطر اللي ياخد منها أكبر حِتّة.

- تغور الشطارة والفُرصة.. أنا خسرت كل حاجة يا متر.. حتى نفسي.

- طيب اسمع منّي حكاية هتريحك يمكن تعيد حساباتك، من عشر سنين الناس في بلدنا شربوا عصير برسيم على

إنه جرجير، ومن تلات سنين أكلوا قُطط وكلاب على إنها كبدة، ومن سنتين لمّا الجراد هجم علينا من ليبيا الجماعة السواحلية هناك لمُّوه في شكاير وطبخوه وباعوه للناس على إنه جمبري بلدي، والناس أكلت وشبعت في كل مرّة ونسيت، ومحدش فتّش ورانا، إحنا بقى..

قاطعه فايز متهكمًا:

- إحنا بقى بنعمل مصيبة.. بنبيع خنازير على إنها لحمة بقري والمسلمين بياكلوها ويدعولي.

- بالعكس إحنا بنكمّل مسيرة وبنطور فكرة، وبكرة ييجي غيرنا من بعدنا يبيعوا للناس لحم الحمير على إنه كندوز، وبرضه الناس ياكلوا ويشبعوا ويمكن لمّا يعرفوا يزعلوا شوية وبعدين ينسوا زي ما نسيوا القطط والكلاب والجراد والبرسيم، وأهي ماشية على كده.

- إنت مش فاهمني، أنا قصدي أقول..

- صدقني يا فايز في بلدنا مش مهم بتقول إيه.. لكن المهم بتقوله إزاي.

- يا متر الناس لو عرفت الحقيقة يمكن تغفر لي وتتعاطف معايا.

- بيتهيأ لك يا فايز، أنا كنت بفكّر زيّك كده أول ما اشتغلت، لكن مع الوقت اكتشفت إنها مثالية زيادة عن اللزوم لمّا تفكر إن الحقيقة تقرّبك من الناس، واكتشفت بدري أوي إن قولة

الحق بتخليهم يكرهوك لأنك بتعريهم، فكان لازم أكدب وأكمل كدب وأصدق كدبتي علشان الناس تصدقني.

صمت المحامي لبرهة ثم أكمل في هدوء وهو ينظر لفايز:

- الحقيقة بتاعتك دي تقولها لو ناوي تروح السجن، وساعتها يكرهوك ويحاربوك، حكايتك محدش هيتعاطف معاك فيها، ولا مخلوق النهاردة يقدر يقف ضد الجماعة الشنية اللي أجبروك عليها، وكل حاجة كويسة عملتها في دنيتك هتتنسي، والناس هيفتكروا حاجة واحدة بس.. خنازيرك اللي أكلتها لهم بالأونطة، وإنهم بسببك ممكن يدخلوا النار.

خرس فايز مجبرًا، تراجع مدحورًا مثل كل المرات السابقة، لا يكاد يصل إلى نصف الطريق حتى يتراجع ويضعف وتلين إرادته عندما يواجهه محاميه بالحقيقة عارية، مع أنه يراها ميتة من ليلته الأولى، وربما دُفنت للأبد ولن يُصدِّق أحد وجودها، وربما لا يريدون سماعها الآن، مثلها مثل جثمانه المزيف المدفون بملوي، لن ينبش أحد قبره ليعرف الحقيقة..

قطم المحامي الحديث وتسيّدت ملامحه مسحة حزن على استحياء، لا يعرف فايز حقًا أن محاميه كان يومًا من أطهار ولدوا ببراءة طاردها الزمن على مر السنين حتى تلوثت، قليلون أفلتوا، والغالبية صاروا من الفاسدين، أدرك محاميه مبكرًا أن العفن سيُصيبه لا محالة، اليأس من ورائه والإحباط يُظلله والقهر توأمه، عرف أنه لن يستطيع السباحة

عكس التيار وسيمضي مع القطيع، فاختار أن يقوده لا أن يسير وسطه حتى لو تقدّم صفوفه، لكنه غفل في الوقت ذاته عن حقيقته مثل كثير من المغفلين، نسي أن هناك مَن يُحدِّد ما الذي يُشرق ومتى يغرب، مَن يسطع ومَن يخفت، مَن يدنو ومَن يبتعد، مَن الذي يبزغ ومَن عليه أن يتوارى للأبد، هناك أسد واحد متوّج بالقوة في غابة الحياة لكننا لا نراه، هو صاحب الصوت الأعلى، المسموعة كلماته دومًا حتى لو خرجت همسًا، هو المؤمن، المهيمن، المسيطر، الممسك بكل خيوط العرائس الخشبية التي لا يمكنها أن تتمرّد على صانعها، حتى لو ذابت في طين الأرض ودبّت فيها الحياة مرة ثانية.

نفث المحامي دخانًا كثيفًا من سيجاره في وجه فايز، ثم قال بخبثٍ محاولًا جس النبض:

- أنت حالك مش عاجبني وأظن آن الأوان تكمل نُص دِينك.

تهلل وجه فايز، ثم سرعان ما ارتبك ومالت ملامحه إلى الانزعاج، أدرك أن الخادم رضا لا بد عرف بأمر مريم ابنة يوسف النجار، الفتاة التي مال قلبه لها وشغفها حبًا، وربما لمحهما الخادم على الدرج يتجاذبان أطراف حديث ففضحتهما عيونهما، أو ربما ناجاها في منامه بصوتٍ عالٍ فسمعه رضا الذي لا ينام.

تلعثم فايز وهو يُتمتم باستحالة زواجه من فتاة دون أن تعرف حقيقته، لتعلو ضحكة محاميه مُجلجلة قائلًا:

- تاني حتقول لي حدوتة الحقيقة؟ يعني دخلت مجلس الشعب ببطاقة مزوّرة، وعندك شركة أوراقها مضروبة، وبتبيع لحم الخنزير على إنه لحم بقري، والناس بتقولك يا شيخ فايز وبتسبّح باسمك وناقص تخطب فيهم الجمعة، وقلقان تتجوز؟! يا خي أحا..

دهش من تجاوز محاميه معه لأول مرّة، لكن المحامي قفز على الكلمة وتعمّد إثارة فضول فايز قائلًا:

- عمومًا العروسة راضية وأبوها راضي يعني معندكش حِجّة.

- ومين بقى بسلامتها؟

سأله فايز بغير اكتراث، فأجابه محاميه وهو يطفئ سيجاره:

- زينب بنت الحاج عاشور أكبر موزّع للحوم بتاعتنا، يعني زيتنا في دقيقنا يا شيخ فايز، وبالمناسبة هو عنده مزرعة حمير اللي قُلت لك على فكرتها.. يعني مشروعنا الجاي بإذن الله، بس نعمله في وجه بحري.

قالها وضحك، لكن فايز حنّا أجابه بعصبية:

- أنت اتجنّنت؟عاوزني أتجوز مسلمة؟ لا يمكن أبدًا، الكلام ده يغضب ربنا.

- واشمعنى يعني في دي افتكرت ربنا؟

- أنا كرهت وسوستك في وداني طول الوقت، كفاية بقى.

تجاهل محاميه كلامه وقال وهو يضع أمامه كشف حساب:

- بُص شوف رصيد حسابك في البنك بقى كام من الخنازير، فلوس تشتري عشرين فدان وتبني عمارة في ملوي لأحفاد عيالك، عمرك كنت تحلم بالمكاسب دي يا شيخنا؟

نظر فايز إليه بكثير من الازدراء، داهمه شعور غريب أنه يرغب في ذبحه وسلخه والتهامه ليُكفِّر عن ذنبه، ثم أمسك بكشف الحساب ومزقه بهدوء ووقف يسد الطريق أمام محاميه بجسده قائلًا:

- أنا حتجوز مريم بنت يوسف النجار، قبطية من نفس مِلّتي يعني مفيش حاجة تغضب ربنا، ولو عارضتني مش حتاخد منّي جرام خلطة وابقى ورّيني حتبيع الخنزير إزاي بعد كده يا فالح.

هزّ محاميه رأسه بلا معنى ولم ينطق بكلمة، مكتفيًا بتفرس فايز في ريبة وكأنه يرى شخصًا غريبًا، ثم دفس رأسه في جريدته، لكنه هذه المرة لم يحل الكلمات المتقاطعة، استعصت عليه المعاني وغابت عنه المفردات، ودار ذهنه بسرعة لاستعادة الخطة البديلة التي وضعها قبل اللقاء، وارتأى تأجيلها إلى حين، لكن ربما حان وقتها الآن.

***

11

جمع خنزير

يُضنيه انتظار ما لا يجيء، وتتكسّر آماله كل نهار على صخرة العجز والاغتراب. يتظاهر فايز حنّا بأنه يعيش ويحيا بين الناس، وما إن يخلو لنفسه حتى تنتصر الكآبة عليه وتهزمه بالضربة القاضية من أول جولة، يتألم ويترنّح، يسقط ويُقاوم، لينهض بصعوبة متشبثًا مرة أخرى ببصيص أمل، لعله يفلح.

- فيه جماعة من البلد عاوزينك يا حاج فايز وقاعدين في أوضة المسافرين.

قالها رضا ليتبعه فايز حنّا بخطى يدفعها الفضول ويُقيدها القلق، تساءل بينه وبين نفسه عن هؤلاء الأغراب الذين أتوا لزيارته، لا شك أنهم أتباع جابر أمير الجماعة الشنية بالمنيا. ارتجف وتباطأت خطواته وبحث ذهنه عن مَخرج من الورطة وإقناعهم بأنه شبيه فايز حنّا ليفلت من الموت، لكن ما إن وصف رضا له أحدهم، شديد الشمرة وسمين بأرداف كبيرة وله شارب ضخم، حتى تنهّد في ارتياح، ومع ذلك ظلت خطاه متثاقلة، يدفعها قليل من الشوق، ويُلجمها كثير من الضيق.

جلس إخوته أمامه صفًا كتلاميذ خائبين في مواجهة مُعلمهم، تنطق ملامحهم الحائرة ببعض الحرج، لا تزال كلماتهم تتردد كالصدى في أذنيه، الكلمات التي أعلنوا بها

موافقتهم على موته، وشجعوه على استكمال مسيرة حياة في سكة معتمة، بلا معالم ولا ناس، سكة محفوفة بالمهالك، لكن كل مَن حوله يؤكدون له أنه رجل مبروك، حتى صدّق الكذبة.

صافحهم بيدٍ رخوة، واحتضنهم بشوقٍ فاتر، ثم اعتدل في جلسته على أريكته، جذب طرف عباءته ووضع ساقًا أسفل مؤخرته، كاد يُبسمل ويحوقل كعادته عند حديثه مع التجار والجزارين، حتى تنبه أنه يجالس إخوته فتجهّمت ملامحه، تفرس فيهم بإمعان، النعمة بانت عليهم، وجوه نضرة وجلابيب نظيفة، عباءات فخمة وأحذية غالية، وسيارة جديدة تنتظرهم أسفل البيت.

طال الصمت حتى قطعه الأخ الأكبر جرجس بعبارات روتينية، سائلًا عن الأحوال والمعايش بالقاهرة، اكتفى فايز بهز رأسه متمتمًا أن الأمور تسير عادية، قاطعه جرجس في استنكار:

- عادية إزاي بس يا فايز هو احنا حاسدين ولا إيه؟ ده الأشيا معدن والفلوس بتجري في إيدك زي المَيّة.

رماه فايز بنظرة لا تخلو من قرف، ثم قال وهو يُنزل ساقه مستعجلًا خادمه رضا ليُقدم الشاي إلى ضيوفه:

- هو أنا اتأخرت عليكم ولا مؤاخذة؟ ما كل شهر بيوصلكم المعلوم على داير مليم وأنتم حاطين إيديكم في المَيّة الباردة.

- ما احنا بندعي لك و..

قاطع فايز أخاه بنبرة مستنكرة للدعاء:

- دُعا من مين ولمين؟ قلبك أبيض يا خويا.

حاول الأخ الأصغر تغيير دفة الحديث مبتعدًا عن المنطقة السخيفة التي دار فيها، فسأل فايز مبتسمًا بخبث:

- الخلطة مقضية والا أعمل لك كام قرطاس عند شمعون العطار؟

هزّ فايز رأسه بما يُفيد عدم حاجته لمزيد دون أن يبتسم، بدا مثل قط متأهب لهجوم ثلاثي شرس، لكنه لا يعرف من أين تأتي الضربة الأولى. تنحنح جرجس وارتشف رشفة طويلة من كوب الشاي الذي وضعه الخادم رضا، ثم عاد لمكمنه ليسمع ويدوّن ما يدور، طلب الأخ الأوسط شلفة توازي نصيبهم مجتمعين لخمسة شهور قادمة بعدما قرروا شراء أرض وتعلية بيت العائلة ليتسع لأولادهم معهم ولأحفادهم من بعدهم.

ندت من شفتي فايز ابتسامة تزدري كل الوجوه التي صادفتها، وعاد لجلسته المتراخية قائلًا:

- أنا ماليش صالح بالموضوع ده، تشتروا طين، تبنوا بيت، تعلّوا دور أو اتنين ده أمر يخصّكم وحدكم.

- إنت أخونا والدم عمره ما يبقى مَيّة يا فايز، وكله من خيرك، ودول أولاد إخواتك وبكرة ترجع وتفرح بيهم.

- أنا المرحوم عمهم والا نسيتم؟ خلاص الحكاية خلصت ومش باين لها رجوع.

تبادل الإخوة نظرات يشوبها حرج ويُغلفها ارتباك بقشرة سميكة، حتى نطق كبيرهم جرجس بعد صمت:

- وماله.. ما بين الحياة والموت نكتب ورقة بنصيبك علشان قلبك يطمّن، ولمّا الغُمّة تزول يبقى حقك محفوظ يا خويا.

هرش فايز ذقنه في ضيق قائلًا:

- خلاص ما عدش ينفع.. أنا لا أقدر أبيع ولا أشتري ولا ينفع أكتب ورقة باسمي الحقيقي.

- وحقنا؟

خرجت الكلمة من بين شفتي جرجس حنًا كرصاصة في رأس فايز، انطلقت بنبرة جريئة تخلّت عن الرجاء وحفلت بالوعيد، ارتبك فايز ودار بخلده لوهلة أن أخاه يُهدّده مثل محاميه، ولم يتبقَّ سوى أن يُخيِّره بين موافقته والموت..

"مش أحسن ما تموت يا معلم فايز؟"

سمعها بصوت جرجس مدوية فارتجف بدنه. قبل أن يتهيّأ للرد نهض أخوه جرجس وتبعه أخواه في طاعة عمياء، مغادرين بغير سلام عدا صغيرهم، الذي تأخر خطوتين، ثم عانق فايز في صمت فهمس له في أذنه بصوتٍ مخنوق:

- أمانة عليك لو مُت ابقى حُط جِتتي مع أمك وأبوك.

لم يُجبه شقيقه سوى بعين باكية وغادر مسرعًا، أغلق رضا باب الشقة وراءهم ورقد في غرفته ليستريح من عناء التنصت تاركًا فايز وحيدًا، الذي لم يتذكر كلمات إخوته، وإنما دوت في أذنيه أصوات تشبه الخنخنة.

***

تلال هائلة من قمامة تمرح بينها وفوقها مئات الخنازير، تحيط بها القاذورات كأحواض زهور متناثرة بعشوائية، وتزين الفضلات غالبية جسدها ببقع متفاوتة كلوحة فنان سيريالي، ومع ذلك تبدو سعيدة متأقلمة، تبتعد الخيول والكلاب عنها بمسافة، يندهش الطفل الصغير فايز حنًا وتكبر دهشته حتى يفسر أبوه المشهد، للخيل عِزّة وللكلاب أنَفة، تأكل وتنام بعيدًا عن الخنازير التي ترفض غالبية الحيوانات مشاركتها حظائرها. لا يعرف فايز سببًا كي تقفز صورة مزرعة الخنازير إلى عقله كل حين، يسمع جلبة وتصم أذنيه أصوات متداخلة وصراخ، يتخيل القاذورات المتناثرة هنا وهناك، ثم في لحظة جوع تأكل الخنازير الفضلات وتأتي على تلال القمامة كلها، لتخرج بعدها من بوابة كبيرة إلى مكان مسقوف تبيت فيه حتى يحين موعد طعامها القادم.

ما إن خطا خطوته الأولى تحت قبة البرلمان حتى استقبلته جلبة صاخبة، ضوضاء استدعت ذكرياته البائسة، أناس يهرولون وآخرون متسمرون فوق مقاعدهم كتماثيل، الغالبية تتكلم في وقت واحد، البعض يُقاطع والبعض ينفعل بلا سبب، وقلة نائمة لعن الله مَن لم يوقظها، وفي لحظة محددة

ينتبه الجميع ليتفقوا على الموافقة برفع أياديهم مبتسمين راضين، لينفَضّ السامر من بعدها ويخرجوا من باب واحد مغادرين إلى حين، لتُعاد الكرّة على مدار خمس سنين بنفس المشاهد، مع اختلاف بعض الممثلين.

أمسك فايز حنّا بالميكروفون وتلفّت حوله باحثًا عن مساعد أمين التنظيم، وقعت عينه عليه بالصف الثالث أقصى اليمين، مكانه المعتاد الذي يدير القاعة كلها منه وحده، وليس الجالس فوق منصتها العالية كما يظن الناس.

فرد فايز حنّا الورقة التي أعطاها له المساعد منذ يومين، ثلاث عبارات عليه أن يتلوها دفاعًا عن القانون المُقدّم من التيار الديني عبر أعضائه بالمجلس، وفايز حنّا محسوب عليهم بحكم اللحية والعمامة والمشيخة التي نالها شعبيًا، لكن لسانه لا يقوى على النطق، مشروع القانون يُجرّم ازدراء الدين لكنه يسير في اتجاه واحد، ناحية القِبلة، يولي ظهره للكنيسة والمعبد.

القبطي بداخله يرفض القانون ويُفقده النطق مؤقتًا، لكنه العضو البرلماني المعين من الحكومة وعليه أن يصول ويجول ويدافع عن الإسلام من محاولات التنصير والازدراء كما أمره مساعد أمين التنظيم.

أصابته نظرة عين من المساعد فكّت عقدة لسانه، تلا ما في الورقة دون أن يرفع عينه عنها، ظل مطرقًا كمَن خجل ممّا قاله، ولمّا انتهى جلس دون أن ينتظر مدحًا أو ذمًّا،

أدهشه بعد جلوسه أن مساعد أمين التنظيم أخذ الكلمة دون استئذان كالعادة، وراح يكيل له الاتهامات بالتعصب الديني واصفًا مشروع القانون بأنه محاباة لطائفة على حساب أخريات، وطالب أن يتحلى العضو فايز عبد النبي بالسماحة التي نادى بها الرُسل.. إبراهيم وعيسى ومحمد، ظل يكرر أسماء الأنبياء ويسلم عليهم ويعيد جملة "كل الأديان" حتى جنى التصفيق المنتظر وكأنه في مشهد مسرحي، سكت المساعد مستحسنًا أداء الأعضاء، ثم تنحنح واقترح تعديلًا في العقوبة بتشديدها إلى الحبس خمس سنوات مع إضافة عبارة أحد الأديان السماوية بدلًا من عبارة الدين الإسلامي.

قام عضو آخر يجلس بجوار فايز حنًا، وبعد أن وجّه له بعض اللوم أمسك بورقة وقرأ منها بصعوبة طالبًا إضافة عبارة الإضرار بالوحدة الوطنية، ومن آخر القاعة انبرى ثالث يطلب إضافة عبارة الإضرار بالسلام الاجتماعي، وفي كل مرة يعلو التصفيق حتى لحقت به الموافقة على التعديل بإضافة كل الأضرار المقترحة.

***

12

أبو البشر

غامت السماء واتشحت السحب بالسواد لكنها أبت أن تُمطر وتركت الناس قلقين، ولأن المصائب لا تأتي فرادى فقد هبطت كلها فوق رأس فايز دفعة واحدة، رفض يوسف النجار زواج ابنته مريم من فايز، وصمّم على رفضه حتى كاد يطرده من شقته يومها وهدّده بالإبلاغ عنه، فلمّا ذاع الخبر بين أهالي المنطقة كان لهم رأي آخر، احتشدوا أمام البيت وهتفوا ضد يوسف النجار وكفّروه وكادوا يُحلُّون دمه، ومحبة لشيخهم فايز حنّا تمسكوا بإتمام الزيجة أسوة بزواج النبي من ماريا القبطية كما أفتى شيخ المسجد الكبير، لكن يوسف النجار ازداد عنادًا وصمّم على رفضه واستغاث بكنيسته فناصرته. لاحت بوادر فتنة طائفية، وانتشرت الشرطة بالحي، ووضعت وزارة الداخلية حراسة مزدوجة على البيت، واحدة لفايز حنّا والثانية ليوسف النجار، فصلت بينهما بحواجز حديدية فشعر فايز بأنهم يباعدون بينه وبين مريم، ليكبر عناده ويتمسك بها مستعينًا بالمسلمين الغاضبين.

ظل الحال على ما هو عليه ثلاثة أيام لم يذُق فيها أهل المنطقة طعم النوم، إلى أن اهتدت الحكومة لحل يرضي جميع الأطراف من وجهة نظرها. خرج يوسف النجار وعائلته من حي الخليفة مرتدين ملابس نساء منتقبات قرب الفجر في حراسة مُسلّحة من الشرطة، غادر مطرودًا مُهجّرًا إلى

منطقة شبرا في رحلة غير مقدسة، وهناك خصصت له محافظة القاهرة شقة في إسكان شعبي. نقلت الحكومة القنبلة إلى مكان آخر مؤقتًا، وتركت فايز حيًّا وحيدًا.

شعر بأن مريم أخذت قطعة من روحه معها عند رحيلها، مع أنها لم تُصارحه بحبها بعد، لكن نظرة وداعها أوجعته ولم تغد تغيب عن ذهنه، لم تكن نظرة وعد بلقاء قريب، إنما نظرة وداع لمسافر لن يعود.

بعد رحيل مريم اكتشف فايز في عز لهاثه وجريه أنه لم يعُد كما كان، وأن خسارته الإنسانية أضعاف رصيده بالبنوك، لا يدري لماذا يجري هربًا من الموت مع أنه يعيشه كل لحظة، حتى بات حاله الذي آل إليه هو الذي يسخر منه، راح يبكي كما لو كان طفلًا تائهًا، لكن هذه المرة بلا أهل أو سند، لن يُغيثه أحد ولن يعود إلى بيت.

في صباح اليوم التالي تخلى عن جلبابه وشرع في حلق لحيته، وعندما فرغ نظر لصورته بالمرآة، شعر بأنه بدأ يعود لنفسه من جديد، فايز حيًّا صليب، ابتسم راضيًا لأول مرة منذ شهور، أخذ حمامًا ساخنًا وبدأ في ارتداء ملابسه، لكن قبل مغادرته البيت سبقه الخادم رضا وأبلغ تليفونيًا بما رآه، وعندما فتح فايز باب شقته وجد محاميه أمامه، دفعه بعنف داخل الشقة وطلب منه شرحًا عاجلًا عن فايز الذي تبدّلت هيئته وفسد رأسه كما وصفه، فسمع محاميه منه آخر ما كان يتوقعه:

- أنا رايح الكنيسة أعترف بالخطية.

قالها فايز حنّا فتهاوى المحامي على أقرب أريكة وكأن ريحًا اقتلعته من جذوره، دار حوار طويل بينهما ثم مفاوضة بمحايلة صريحة من محاميه، فشلت لثلاث مرات متتالية، أعقبها تهديد صريح من المحامي بإيقاف النشاط وتصفية الشركة وكشف المستور، لوح له بشبح السجن وتهديدات الجماعة السُنية، ذكّره بفتوى إهدار دمه وغش الأغذية والفضيحة بين أهل الصعيد، لكن فايز حنّا صار أكثر عنادًا من صخرة، بدا كالسائرين نيامًا لا شيء يُحيدهم عن طريقهم، فألقى محاميه بورقته الأثيرة:

- مش أحسن ما تموت يا معلم فايز؟

- لأ موتة ربنا أحسن، على الأقل نهاية مش انتظار زي الموت بتاعك.

تظاهر المحامي بهدوء مريب وتجاهل الإجابة، ثم جذب فايز من ذراعه وأجلسه جواره وهو يرتب أفكاره قائلًا:

- كل ده علشان مريم؟

لم يُجبه فايز، بدا أشبه بطفل عنيد لا يريد التخلي عن دُميته، فأردف محاميه بنبرة هادئة أكثر:

- يا مولانا.. آدم خرج من الجنة لمّا قطف تفاحة وأكلها.

ظل فايز صامتًا رغم أن نظرة تحفز ومضت بعينه، فاسترسل المحامي وكأنه تلقى ردًا على سؤاله:

- طيب أنا عندي اقتراح يريحك ويخليك في الجنة برضه، أوعدك خلال شهر ننهي القصة كلها وتروح تعيش في شبرا جنب مريم ببطاقة واحد قبطي اسمه عادل ديمتري، ونقول إنك متخرج من كلية الآداب وبتشتغل مدرس، ونحكي إن عليك تار وهربان وعلشان كده بقيت مسلم على الورق لفترة، وأنا ورضا نشهد معاك قدام نسايبك، يعني مش محتاج تعترف في كنيسة ولا تكذب على مريم.

ظل فايز صامتًا رغم حركة جسده التي تشي بتقبُّله الفكرة التي لعبت على وتر قلبه، فأعاد المحامي سؤاله وكله ثقة أن عقل موكله بدأ يلين، لكن فايز باغته قائلًا:

- لكن كده نبقى قُلنا نُص الحقيقة لمريم وأنا كنت..

قاطعه المحامي بسرعة وقد أدرك أن خطته تعمل بنجاح:

- نُص الحقيقة بتاعتنا هي الحقيقة كاملة لمريم، هي مش محتاجة تعرف كل أسرارنا وإلا تموت إنت يا فايز، ويمكن مريم كمان تتعرض للأذى، ووارد كمان ما يوافقوش على جوازك منها لو عرفوا.

- لكن..

- مفيش لكن، وعلى رأي أحمد بيه شوقي وهو بيوصفنا لمّا قال: "يا له من ببغاء عقله في أذنيه!" إحنا كده وحنفضل طول عمرنا كده.. اللي بنسمعه هو اللي نصدقه حتى لو شُفنا عكسه.

ابتسم فايز رغمًا عنه هذه المرة وقال باستنكار:

- وكمان بتقول أشعار؟

ضحك المحامي وأشعل سيجاره ونفث منه دخانًا كثيفًا وقال بأسى حقيقي:

- أنا كنت باكتب شعر وحافظ قصايد وكنت بحب الأدب والمسرح، وبعدين كفرت بكل حاجة، كنت أول دُفعتي في كلية الحقوق، لكن ما دخلتش النيابة العامة علشان أبويا غفير بيحرس الآثار في المنيا، تخيّل حطّوا صورته على غلاف مجلة المصور وفي الصفحة الأولى من الجرانين ووزير الداخلية كرّمه بنفسه علشان منع سرقة كبيرة في مقابر بني حسن، وصفوه يومها بحارس المعبد الأصيل، والبطل المصري حفيد الفراعنة، حامي كنوز مصر.

تحشرج صوته وتبدّلت نبرته ثم استكمل بحسرة:

- لكن وقت التعيين قالوا إنت دون المستوى لأن تحريات وزارة الداخلية بتقول أبوك غفير ومرتّبه حداشر جنيه ومستواكم الاجتماعي تعبان، يعني ممكن أطلع مرتشي أو حرامي لأن أبويا غفير، مع إنه نفس الراجل اللي كرّموه وقالوا فيه شعر.. تخيّل؟ صدقني يا فايز أنا كان عندي أفكار كتيرة عن العدالة والحق والرحمة، وكان عندي طموحات وآمال في الدنيا، اتحوّلت كلها في يوم وليلة لديون كتيرة وكان لازم أسددها وإلا الدنيا تبلعني..

ترقرقت غلالة دمع في عينيه فأجبرته على التوقف عن

الكلام لبرهة، وعندما وأدها أردف بهدوء:

- نهايته.. سيبك منّي وخلّينا في حالنا، قُلت إيه على الكلمتين اللي قُلتهم لك؟

ابتسم فايز وقال بهدوء لم يُظهره من قبل:

- قُلت البقية في حياتي يا متر.

***

13

مفرد قساوسة

في صباح معتم ارتشف فايز حتّا نسيم الشروق المُر، انضم إلى فريق المعذبين بالحياة، الحائرين بصمتها، المتألمين من قسوتها، المنكوبين بلوعة الانتظار لما لا يأتي أبدًا، الواهمين بأحلام لا تتحقق، المتعلقين بآمال محطمة، فأصابهم العزوف، وهزمهم الإحباط، وتملكتهم الكآبة، وانتصرت عليهم الحياة في جولة جديدة كالعادة، ورغم ذلك كله نهض يترنح، يلوذ بركن من أركان الحلبة يتكئ على حباله، يلتقط أنفاسه ويستعد لجولة أخرى أو ضربة قاضية.

بعد أن ذاب حذاؤه وتورّم باطن قدمه جلس منهكًا على أريكة خشبية شبه متهالكة، تنهّد والتفت إلى يساره ورفع عينه التي تترقرق فيها دموع متيبسة تأبى الانهمار، وقال بحشرجة لا تُخطئها أذن:

"يا مريم اسمعيني هذه المرة لأنني سأقول الحقيقة، أنا قبطي مثلك، أحببتك ولم أحب أحدًا غيرك، أنا محكوم عليّ بالإعدام، بالعيش متخفيًا، بالموت حيًا، أنا ضحية ظروف وشهيد فتنة، لم أكن أريد شرًا لكني أجبرت عليه، سِرت مضطرًا في طريق ولم أبلغ منتهاه، الآن أريد الخلاص، أرغب في التوبة وأنشد الغفران، أتمنى العودة لكني لا أستطيع وأنا وحيد.. غريب، أريدك معي وبجواري، لا تتركيني في طريق صعب وحدي، ذراعي كلّت وبدني أُنهك، عقلي تائه وقلبي

حائر وحماسي فتر، ولو بقيت يومًا أو بعض يوم على حالي سأموت حيًا مرة ثانية، يا مريم أنا.. "

قبل أن يُكمل كلامه هبط فوق رأسه غراب علا صوته وهو يقول:

- بعد إذنك يا عم الشيخ نشوف شُغلنا.

انتبه فايز حنّا لوجود كنّاس عمومي في ملابس سوداء داكنة، ربما كانت زرقاء وغيّب التُراب والعَرَق لونها، راح الرجل يُلملم القاذورات والقمامة وينحيها جانبًا حتى صارت كومًا صغيرًا، نهض فايز حنّا من مكانه وترك الأريكة خالية والكنّاس لا يزال يكنس خياله من ورائه. مضى في شوارع شبرا تائهًا مرة ثانية باحثًا عن مريم، لكنه لا يجد ضالته، ولا يسمع ما يُريح فؤاده، يتعب فيجلس ويتكلم ولا أحد يسمعه حتى يُجبَر على المغادرة كل مرّة، تُرد الكلمات إلى صدره وتعود حبيسة ضلوعه، مكبوتة، مخنوقة، وآخر النهار يُلملم شتات روحه، بعدما حاول غسل ذنوبه بدمعة عابد متبتل في محراب الحقيقة، رغم إيمانه بأنه لن يكون يومًا من الأطهار.

ربت مساعد أمين التنظيم بالحزب على كرشه عدة مرات في عصبية، ثم رمق محامي فايز حنّا بنظرةٍ لم يرتح لها المحامي، شعر بأنه يتعرّى تباعًا من ملابسه أمام المساعد فبدأ يتعرّق ويرتبك، لا يعرف سببًا لهذا الاستدعاء المفاجئ، المساعد لا يستدعي أحدًا إلا ليوبّخه أو يُهدّده، لا مجال لشكر أو طلب، دار بخلده أن السبب ربما يكون راجعًا لعدم حضور

فايز حتًا جلسات مجلس الشعب، جهّز الإجابة برأسه مقدمًا، لديه رد سابق التجهيز مثل لحوم الخنازير، سيقول للمساعد بثقة إن من بعد الجرائد والشهرة خاف أن يتعرّف أحد على موكّله فايز عن طريق صورته أو صوته إذا ما تكرّر ظهوره فنصحه بالغياب الدائم، ارتاح للإجابة وكأنه قالها، وأخرج سيجاره ورفعه عاليًا مستأذنًا في إشعاله، لكن المساعد باغته وكأنه يقرأ أفكاره:

- خلاص يا متر كفاية كده، الرّيحة فاحت والعينين مفتّحة، مش عاوزين فضايح مع الداخلية، من بُكرة شركة اللحوم تتقفل والنشاط يتغيّر، وفايز حتًا يغور في داهية بعيد عن القاهرة.. مفهوم؟

بلعثمة زائدة قال المحامي:

- طبعًا مفهوم، والأمر أمر معاليك، لكن بعد إذنك نكمل الطلبيتين اللي جهزناهم وبعدها نصفّي الشركة ونوقف النشاط، أنا مقدرش أشتغل من غيره لأن الخلطة هو الوحيد اللي بيعملها، وسعادتك عارف إنه دوّخنا وراه السبع دوخات ومعرفناش طريقة عملها.

أشعل المساعد سيجارة دون أن يسمح له بالتدخين، رجع بظهره في مقعده وقال وهو يثبّت عينيه في وجه المحامي وكأنه سيطلق عليه رصاصة بين حاجبيه:

- بَلَا خلطة بَلَا كلام فارغ، رابطة الجزارين بيقدموا شكاوى كل أسبوع في مجلس الوزرا وبيتهموا فايز إنه مشارك حد

كبير من المسؤولين علشان بتبيعوا بسعر رخيص عنهم وبتخسّروهم، أنا مش ناقص مصيبة لو عرفوا حقيقة اللحمة اللي بتبيعها، لو أي حد من التموين شك فيكم وراحت عينة لمعمل الصحة هتبقى فضيحة تطير فيها رقاب، أنا حذّرتك قبل كده لكن إنت غبي وطمّاع، عاوز تملا كرشك طول الوقت ومش بتشبع.

- يا فندم أنا تربية إيدك، وإحنا زي ما معاليك عارف بنبيع بسعر أقل علشان..

قاطعه المساعد بحِدّة وهو يرفع حاجبه الأيسر:

- مشكلتك يا متر إن رغم مُخّك النضيف لكن خبرتك في مصر قليلة، لسه متعوّد على شغل الأرياف والفلاحين، اسمعني كويس يا بَني آدم وحط كلامي حلقة في وِدنك، حصان السبق له وقت ومسافة يجري فيهم، ولو الوقت خلص وهو مش في المقدمة يخسر، ولو كمّل جري بعد السبق يلف على الفاضي ويتعب من غير فايدة، وبعدها محدش يراهن عليه، ولازم يدوروا على حصان غيره.

- أيوة بس..

رفع المساعد إصبعه لإسكات المحامي ثم أكمل:

- إنت تخرس خالص، أنا مش عاوز كلام كتير وكفاية وجع الدماغ اللي جالنا من حكاية جارته مريم بنت يوسف النجار وكان ممكن البلد تولع في ثانية بفتنة، نفّذ اللي قُلت لك عليه يا بَني آدم، والليلة آخُد تمام مع مدير مكتبي.. شرّفت وما

شوفش وِشّك غير لمّا أطلبك، ومكتبك يتقفل وترجع البلد.

تزحزح محامي فايز حنّا بمؤخرته حتى صار جالسًا بالكاد على حافة كرسيه بطرف إليته وهو يردد بتوسل:

- بس الخسارة كبيرة يا فندم.. كبيرة أوي.. أنا باستسمح معاليك شهر واحد كمان تكون الخنازير الجديدة كبرت وكمّلت ست شهور وبقت صالحة للدبح، دول أكتر من عشرة آلاف راس، يعني فلوس كتير أوي وبعدها بشرفي نغيّر النشاط ونخلص من فايز حنّا، مسألة وقت مش أكتر.. وسعادتك اطمّن كل الورق باسمه وهو عنده حصانة برلمانية ولو حصل حاجة هيشيلها لوحده، يعني سعادتك بعيد عن أي شوشرة ومحدش..

اكتفى المساعد هذه المرة بنظرة شرسة لإسكات المحامي، نظرة تسبق افتراس الأسد للحمار، قبل أن ينقض على رقبته ويُقيد حركته، لم يُرحه بجواب ولم يُكرّر تهديده، ظل يُحدّق في وجهه حتى خفض المحامي عينيه وأطرق، ثم نهض ببطء، وبالكاد غادر المكتب، وعلى أقرب أريكة باستراحة كبار الزوار تهاوى، بعدها طلب كوب ماء وراح يفك ربطة عنقه وهو يتنفّس بصعوبة.

على مسافة لا تبعد كثيرًا من مبنى الحزب الوطني، داخل كنيسة صغيرة، جلس فايز حنّا في مواجهة أب الاعتراف، عين في عين، جسد هادئ رزين، وآخر مرتبك يرتعش، طمأنه القسيس وطلب منه التطهُّر من ذنبه، سأله فايز إذا ما كان

الرب سيقبل توبته مهما عظمت خطيته، أجابه بأن الراعي الصالح ترك تسعة وتسعين غنمة وبحث عن الشاردة ليهديها إلى القطيع، بكى فايز في حين أمطره الأب الكاهن بعشرات الأسئلة عن خطايا متنوعة.. كذبت؟ سرقت؟ أكلت لحم أخيك في غيابه؟ اشتهيت زوجة جارك؟

اكتفى فايز حتّا بهز رأسه نافيًا كل الخطايا، ومن وسط دموعه سأل الأب متوسلًا:

- أنا خرجت من المِلّة يا أبونا لكن قلبي لا يُنكر دِيني، فهل من توبة؟

سكت الأب الكاهن ومسد لحيته، تمتم بآيات لم يسمعها فايز، ثم خاطبه بمحبة:

- التوبة دايمًا باب مفتوح ادفعه برفق وادخل بغير تردد، لكن قبلها احكي لي ما فعلت وسببه.

بدأ فايز يروي حكايته حتى شاب شعر رأس القسيس، ولمّا فرغ اختتم:

- المشكلة يا أبونا إني لا يمكنني العودة لديني دلوقت، لكني طالب الغفران على ذنب مُجبر عليه.

- يا ولدي يقول الرب مَن أنكرني على الأرض أنكره في السماء، إذا نويت التوبة فتطهّر واعترف.

- ما أنا اعترفت يا أبونا.

- موش كفاية.. لا بد تطهّر نفسك من خطاياك في حق غيرك

وترجع لدينك.

- ماقدرش.

- مش أحسن ما تموت يا فايز يا ابني وإنت على حالك ده؟

رغم رجفة فايز من العبارة إلا أنه رد بسرعة:

- وافرض قتلوني بعد ما اعترفت.

- ماحدش بيموت يا ابني قبل معاده.

- يا أبونا أنا قررت..

- لا تأخذ قرارًا الآن وارجع من حيث أتيت، ثم عُد مرة ثانية بعد روية لتتطهر، لكن عِدني إنك لن تبيع ولن تشتري شيئًا من مزرعة الخنازير حتى تعود للكنيسة طاهرًا.

خرج فايز من الكنيسة أكثر إحباطًا، لا يملك إعطاء وعد بأي شيءٍ لأي مخلوق، هو فقط يوقّع أوراقًا لمحاميه الذي يتولى جميع أمره، هو مجرد طاهٍ لخلطة يحملها الخادم رضا، وبعدها يتحول فايز إلى واجهة يتصدرها اسمه مسبوقًا بلقب شيخ على أوراق رسمية، تتحول إلى ورق بنكنوت يزيد من رصيده بالبنك ولا شيء آخر، لا يعرف كيف تورط، ولا متى كانت أول خطوة في هذا الطريق، كل ما يتذكره أنه مثل طير فرفر من جروحه، وكان يحتاج لمَن يُعيده إلى الحياة ويعتني به، أو يُذبح ليرتاح، لكن محاميه تركه ينزف، وكلما أوشك على الموت منحه قُبلة حياة ليعيش معذبًا ضعيفًا يحتاج له طوال الوقت، كفّرته الجماعة الشنية وهو يبيع الخنازير،

وأحلّت دمه، والآن يحلفون بحياته، بل إنهم على استعداد للموت فداءً له، مع أنه يُقدّم لهم الخنزير ذاته، والأدهى أنهم يأكلونه حامدين شاكرين مستمتعين، كل ما تغيّر هو الصورة التي يُغلّف لهم الحقيقة بها، الصورة التي يظهر بها أمامهم كل ليلة، ممثل يؤدي في كل فصل من المسرحية دورًا مختلفًا، والجمهور يصفق لشخصية ويلعن أخرى، ولا يدري أنه نفس المؤدي في كل مرة، لكن الرواية فيما يبدو لم يضع لها المُخرج نهاية بعد.

***

14

قاتل متسلسل

لا ترَ بأذنيك، ولا تسمع بعينيك، ولا تُصدّق كل ما يُقال لك.. فبعض الكلمات صور، لو تأملتها لرأيت تفاصيل لم تُدركها من النظرة الأولى، أطياف مهزوزة في خلفيتها، وأشياء صغيرة دالة على زمانها ومكانها، وإذا ما قلبتها لربما صافحت عيناك كلمات دوّنها صاحبها قد تُغيّر رؤيتك عنها.. الحقيقة نراها منقوصة دومًا لكننا نشعر بها كاملة، فلا تثق إلا بقلبك.

نصيحة القسيس تتردّد صاخبة في رأسه، ولو أنه أدركها مبكرًا لما خطا نفس الخطوات من البداية، ظل عقله يعيدها على أذنيه بغير سأم، أسطوانة تدور بلا توقف حتى داعبه النعاس، أراح جسده على أريكة الصالة طامعًا في غفوة بسيطة يهرب فيها من حاضره، قبلها تجرّع نصف زجاجة البيرة التي اشتراها في طريق العودة متغلبًا على مخاوفه بعدما حلق لحيته ونزع عمامته من فوق رأسه، قبل أن يغفو دقّ هاتف المنزل فاستيقظ، ناوله الخادم رضا السماعة بملامح قلقة، وجد محاميه على الناحية الأخرى، أمره ألا يفتح باب بيته لأي شخص حتى ولو كان من طرفه، ولا يرد على هاتف، ولا يخرج من البيت حتى يلتقيا في الغد، ثم أغلق في وجهه الخط بغير تفسير. ساوره قلق كبير من نبرة صوت محاميه، كأن أحدًا كان يصوب مسدسًا إلى رأسه، وتلهث أنفاسه كمَن فرغ لتوه من ركض طويل.

أغمض فايز عينيه فدار شريط الرحلة في عقله بغير ترتيب منه، تسربت لقلبه شكوك أن كل شيءٍ كان مُعدًا مُسبقًا، حتى يترك له المسرح وحده فيؤدي دورًا محددًا رسمه محاميه بدقة، الآن حان موعد إنزال الستار بمناسبة ليلة العرض الأخيرة، ربما مَلّ الجمهور المسرحية ولم يعُد ينبهر أو يُصفّق، علت دقات قلبه وهو يحاول ترتيب المشاهد بذهنه إلى جوار بعضها لعل اللوحة تكتمل فيراها واضحة، عاد بذاكرته لليوم الأول منذ دخلت العرّافة قاعة المحكمة وحذرته من حضور الجلسة وتنبأت بموته وموت المئات من أولاده، لا بد أنها قصدت خنازيره، ثم ظهر نافخ البوق الذي مات برصاصة مجهولة، وبعدها تدافعت على المسرح حشود الجماعة الشنية الذين حرقوا مزرعته وأحلوا دمه، حتى إخوته وافقوه بسهولة ولم يقاطعوه أو حتى يعارضوه كما توقع، تصدّرت صورته المشهد باللحية والعمامة والجلباب وهو جالس يوقع بيد مرتعشة استمارة انضمامه إلى الحزب الوطني، ثم دخوله مجلس الشعب والترحاب الذي يُقابل به في كل مكان، هل كل ما حدث صدفة أم كان مقصودًا ومرتبًا؟

هز رأسه غير مصدق الاحتمالين، لا تتكون صدف بهذه الدقة تباعًا، ولا يملك شخص المقدرة على ترتيب كل ما سبق وحده مهما بلغ من سلطة ونفوذ، حتى مريم التي لم يفلح في لقائها مرة ثانية ربما كانت لا تحبه ولم تصلها مشاعره، وكل ما دار بعقله أوهام مصدرها خياله، عندما مال قلبه الضال نحوها فظن أنه اهتدى.

دار عقله في ساقية التساؤلات ولم يمنحه حلولًا شافية حتى راح في سُبات عميق، رأى غرابًا كبيرًا يحوم حول رأسه، ثم هبط عليه ونزع عمامته ونقر جبهته فأدماها، استيقظ فزعًا فاكتشف أنه نام حتى الصباح ولم يرتح بعد، فتح عينيه الثقيلتين بصعوبة ليجد أمامه خادمه رضا وقد تقلبت ملامحه وعبس وجهه، ثم علا صوته فجأة كأنه مُلقَّن بجملة حوار آن أوانها:

- الأستاذ عمل حادثة كبيرة امبارح الفجر بالعربية على طريق صلاح سالم وهو راجع من المكتب.

انتفض فايز سائلًا بلهفة:

- وهو فين دلوقت؟

- البقية في حياتك.

نظر فايز حنًا لملامح خادمه فلم يقرأ عليها سوى الجمود، فجأة غابت صورة رضا من أمامه، وانشغل عقله بمحاميه الذي مات، محاميه الذي يقوده ويوجهه ويدبر أموره، محاميه الذي آمن هو به وسار وراءه مغمض العينين، كان يشكو غربته فصار وحيدًا تعيسًا بائسًا، لا يدري كيف يهرب من حاضره ولا بأي أرض يعيش، اليوم يموت لمرة ثانية لكنه سيُدفن حيًا هذه المرة.

على مدار أيام لم يغادر فايز حنًا مسكنه، لم يذُق طعم النوم، يجلس كل ليلة متوجسًا مذعورًا في فراشه، ولا يغادره إلا لقضاء حاجته، لا يرد على هاتف ولا يفتح بابه لأحد، حتى

النوافذ شكّرت لتحجب كل نور يأتي إليها، الوحيد الذي يقترب منه ويقضي مشاويره هو الخادم رضا، ملامحه لا تزال على جمودها ولسانه سكت عن الكلام.

ساوره شك يرقى لمرتبة اليقين أن الدور سيكون عليه إذا غادر مسكنه، فطلب من خادمه إشاعة خبر مرضه، وأنه يحتاج لأكثر من أسبوعين بالفراش، والزيارة ممنوعة بأمر الطبيب، حتى تطمئن قلوب أهل الدائرة الذين تجمّعوا بالمئات أسفل بيته، وراحوا يدعون له عقب صلاة الجمعة التي تغيّب عنها.

***

تزيد عتمة الليل من رجفة الخائفين، وعندما تجاوزت عقارب الساعة منتصف ليلة السبت ببضع ساعات، شعر فايز حقًا بحركة مريبة في صالة بيته أقلقت محاولاته لاستدعاء النوم، نادى من فراشه على خادمه رضا فلم يسمع مُجيبًا، ثم تناهى لسمعه خرفشة أعقبها دبيب أقدام. بدأ فايز يتعرّق ثم شعر برجفة، تقوّس ظهره مثل قط متأهب لعراك رغم أنه لا يزال جالسًا في فراشه مذعورًا، تخشّبت ساقاه ولم يستطع تحريكهما كي يهبط من سريره ويُغلق باب غرفة نومه من الداخل، بالكاد أنزل ساقًا وقبل أن تلمس الثانية الأرض دفع شخص ملثم الباب الموارب، كان يرتدي ملابس سوداء فبدا مثل شبح منسوج من عتمة، شهق فايز حقًا ورفع يديه وهو يُقسم بأيمانات المسلمين على قول كل شيء، ثم أتبعها بقسَم مشفوعًا بحياة المسيح وكتابه المُقدّس، استدعت مقلتاه

دموعًا راكدة منذ شهور وهو يُتمتم باسم العدرا، وارتعشت كفّاه المرفوعتان في الفراغ متوسلًا، لوهلة أحس أنه بال على نفسه، وفي تلك اللحظة اقترب منه المُلثّم وجذب رأسه لأسفل، مال جذع فايز حنّا كله على الفراش، استلّ الملثم سكينًا من جانبه، وفي ثوانٍ جز رقبة فايز حنّا لتندفع الدماء مثل نافورة، ثم ترك رأسه معلقًا فوق رقبته تربط بينهما نسيلة رفيعة من لحم، بدا مثل ذبيحة ينتفض جسدها، ما زال فيها بصيص من حلاوة روح، وتقاوم بلا جدوى.

بعثر المُلثّم محتويات الغرفة وكسر قفل الخزينة وسرق ألفًا من الجنيهات كانت بداخلها، وكما دخل الشقة من بابها خرج بالطريقة ذاتها.

أسفل البيت كانت سيارة مرسيدس خضراء بدون لوحة معدنية خلفية تنتظره على الناصية، قفز فيها ثم نزع لثامه بهدوءٍ مُطلقًا زفرةً طويلة، لتنطلق به وتختفي من حي الخليفة، وبعدها بنصف الساعة علا أذان الفجر. قرب نهاية الركعة الأولى ظهر الخادم رضا مع المصلين بالمسجد الكبير، ركع وغاب في سجود طويل حتى يلفت نظر الواقفين بجواره في الصف إلى وجوده، ثم أنهى صلاته وصافح كثيرًا من المصلين وصعد بعدها لشقة فايز حنّا.

***

15

مثنى جنازة

في هذا النهار الحزين وُلدت الشمس ميتة فأسكر شعاعها السقيم الموهومين والمغيبين. احتشد أكثر من عشرة آلاف شخص وفق ما نشرته جريدة الجمهورية، ساروا وراء عشرات من مشايخ حي الخليفة، الذين حملوا النعش في طريقهم لمقابر الغفير، جلال الحدث وفاجعة الحادث جعلتهم واجمين مُطرقين، لكن كل حين يعلو هتاف أحدهم ليُردده البقية في وقت واحد: "لا إله إلا الله.. الشيخ فايز حبيب الله"، ثم يسود الصمت مرة ثانية، ليتكرر الهتاف بعد فترة حتى وصلوا المحطة الأخيرة وأنزلوا النعش، انتظروا لأكثر من نصف ساعة حضور مساعد أمين التنظيم بالحزب الوطني، لا بأس فلا أحد يشكو من طول الانتظار، الجنازة ذاتها أُجِّلت يومًا كاملًا لتُناسب مواعيد المساعد، وفايز حنًا لم تكن له زوجة ولا ولد ولا أهل.

دوت سرينة سيارة الشرطة التي تسبقها دراجة بخارية ومن خلفهما المرسيدس السوداء، توقف الموكب أمام مقابر الصدقة، وهبط المساعد لاصقًا ملامح عبوس فوق وجهه، سيُدفن فايز حنًا مع الفقراء والمساكين بناءً على رغبته كما أخبرهم خادمه رضا، باعتبارها وصيته الأخيرة التي نقلها الشيخ المرحوم لمحاميه المرحوم وكان الخادم شاهدًا عليها، بكت عيون الأهالي وعلت ابتهالاتهم بالدعاء لفايز حنًا

المسكين.

هبط الجثمان في خلفية الحوش الواسع للمقبرة حتى ابتلعه التراب، تقبّل مساعد أمين التنظيم وبعض أعضاء مجلس الشعب العزاء، في حين وقف الخادم رضا في نهاية الصف بوجهٍ باكٍ أجاد تصنُّعه، بعد رُبع الساعة نظر المساعد في ساعته وقرّر الاكتفاء بهذا القدر، رفع يده ملوحًا للمشيعين متلقيًا بعض الدعوات، وغادر إلى سيارته في طريقه إلى المجلس، وعقب انصرافه اتبعت الناس شئته وغادرت المكان.

بعد بضع ساعات، وقبل بزوغ فجر جديد، توقفت سيارة كبيرة تُشير لوحاتها المعدنية إلى تبعيتها لمحافظة المنيا، هبط منها ثلاثة رجال بصحبتهم الخادم رضا وقد كمّموا فمه وشدُّوا وثاق يديه خلف ظهره، دفعه أحدهم في غلظة حتى أرشدهم لقبر فايز حنّا، خرجت المعاول من صندوق السيارة وهبط رجال آخرون من عربة ثانية أتت للمعاونة، في حين وقفت ثالثة على مبعدة لمراقبة الطريق وبها مسلحون، لم تمضِ نصف ساعة حتى كان جثمان فايز يرقد في السيارة الأولى وسط دموع الرجال الثلاثة وهم يرون جثة أخيهم ملفوفة بشاشٍ أبيض، دارت المحركات وابتعدت العربات تاركين الخادم وسط المقابر مُقيدًا كما جاءوا به، فقط كمّموا فمه حتى لا يفضحهم صراخه.

***

تحت قُبّة البرلمان لا يحتاج مساعد أمين التنظيم كالعادة لرفع يده كي يطلب الكلمة، قام وأدار الميكروفون ضابطًا اتجاهه قرب فمه رغم أنه قادر على أن يُسمع الموتى في قبورهم بصوته الجهوري، طلب من أعضاء المجلس الموقر الوقوف دقيقة حدادًا على روح المغفور له الشيخ فايز عبد النبي نائب دائرة الخليفة، بعدها قدّم طلب إحاطة مشفوعًا باللوم لوزارة الداخلية وأجهزة البحث الجنائي، لتقصيرها في الوصول إلى لص المساكن الذي سرق أموال الشيخ وخطف روحه، احتبس صوت المساعد وتحشرجت كلماته وهو يصف تفاصيل الحادث المروع، ثم راح يُعدّد إنجازات المرحوم في إثراء الحياة البرلمانية والسياسية في مصر، بمواقفه المحترمة وآرائه السديدة، مطالبًا الداخلية بسرعة التحرك وعدم الاكتفاء بالتحري وهم في مكاتبهم، علا صوته وعاد لطبيعته وهو يحثهم على النزول للشارع والبحث عن القاتل حتى تظل مصر آمنة مستقرة، وفي نهاية كلمته اختتم بآية من القرآن الكريم.. "ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون".

***

في مكتبه نظر المساعد في ساعته بعدما أغلق سماعة الهاتف وهو يتعزّق، ثم ضغط على جهاز صغير فوق سطح المكتب قائلًا:

- خَلّيه يدخُل دلوقتي.

بعد انتظار دام لساعات بغُرفة خاصة نهشه فيها القلق، دخل الخادم رضا مكتب مساعد أمين التنظيم، وما إن جلس أمامه حتى انفكّ لسانه من تلقاء نفسه قبل أي سؤال، أقسم بكل الأيمانات إنه كان مغلوبًا على أمره، والكثرة تغلب الشجاعة، وهم عشرة رجال جاءوا مُسلّحين في ثلاث سيارات، اختطفوه وقيدوه وسرقوا جثمان شقيقهم وكان يمكنهم دفنه مكانه لو فكر مجرد تفكير في مقاومتهم.

نظر له المساعد في دهشة، لم يكن على علم بالواقعة ولا توقعها، ظن الخادم رضا أن المساعد لا يُصدقه بسبب سكوته، فبكى وهو يتلعثم في كلامه مُعيدًا سرد قصة نزوح إخوة فايز من المنيا فجر أمس وتهديدهم له بالقتل حتى تحصلوا على جثة أخيهم وعادوا بها سالمين. ظل المساعد العتيد صامتًا وهو يعبث بمسبحته في عصبية من أسفل مكتبه فلا يراها رضا، اكتفى بتفرسه في وجه الخادم كأنه يُفتش عن ثغرة في روايته، ثم ارتشف بعض الماء وشرد طويلًا، وبعدها قال بهدوء غريب:

- الليلة من غير ما حد يدرى تفتح القرافة وتحط أي جِثّة مكانه، المهم يبقى في حاجة في القبر، إن شاله تحط خنزير من خنازيره الله يجحمه مطرح ما راح.

قالها بغضب، ثم أخرج من درج مكتبه حزمة من النقود، وزنها بكفه وبعدها ألقى بها في وجه الخادم، نهض رضا وذهنه منشغل بالجثة التي ستعوض غياب جثمان الشيخ فايز، وعقله البسيط صدق لبعض الوقت أن المساعد يقترح

وضع خنزير مكان جثمان فايز ومن داخله يرفض الفكرة معتقدًا بحرمانيتها، شرد في مشيته حتى ناداه المساعد بصوته الجهوري وهو في منتصف الطريق إلى باب الخروج:

- رايح فين يا واد يا رضا؟ لسه كلامنا ماخلصش.

دار المساعد حول مكتبه واقترب من رضا مبتسمًا في ود، ربت كتفه ثم نبّه على مدير المكتب بإضاءة اللمبة الحمراء، قبل أن يرمي الحجر الوحيد الذي سيصطاد به عصافير كثيرة.

بدأ الخادم رضا يتفصّد عرقًا عندما نهض المساعد فجأة وعاد إلى مكتبه، وعادت لملامحه جهامتها المعتادة مرة ثانية، راوده هاجس مخيف أن المساعد قرر وضعه في القبر حيًا بدلًا من فايز حيًا، ارتعشت عضلات إليته وارتخت قليلًا فتسرب بعض الخراء اللزج لسرواله فازداد ارتباكًا، تجاهل المساعد الرائحة النتنة التي فاحت بعد قليل، وفتح درج مكتبه، عبثت يده به حتى أخرجت مسدسًا صغيرًا، شهق الخادم رضا وعلا صوته وهو يكاد يبكي، ثم انتفض واقفًا وهو يلطم وجهه:

- والخِتمة الشريفة ولا فتحت بُقي بكلمة، ده أنا تربية إيدك وبلدياتك وخدّامك طول عمري.

ضحك المساعد، ثم تقلّبت ملامحه فجأة وتبدّلت نبرته قائلًا بحدّةٍ وهو يرفع حاجبه الأيسر:

- إمسك يا وله المسدس وجمّد قلبك أومال، ما تبقاش طري

زي النسوان.

أشعل المساعد سيجارة وقدم واحدة لرضا، ألقى له بعلبة الثقاب على المكتب ليُشعل سيجارته بنفسه وقال:

- افتح ودانك واسمعني كويس علشان دي الفرصة اللي بتعدّي علينا مرة واحدة في العمر.

أنهى المساعد كلامه وظل يتفرس في رضا، تحسّس الخادم المسدس في ريبة، لكنه شعر هذه المرة بثقة لا يدري لها سببًا، يعلم أنه لا يملك رفاهية رفض العرض المُقدّم له، ويدرك أن المساعد سيفي بوعده إذا ما وافقه على طلبه، ارتشف بعض الماء، وندت ابتسامة خفيفة من بين شفتيه بعدما اعتاد أنفه رائحة خرائه الملتصق بسرواله.

***

16

مكان يرقد به أحد أولياء الله

مثلما يغطس فرس النهر في الماء بعد أن يشبع من الطعام، فلا تظهر سوى عينيه ومؤخرته، غاص مساعد أمين التنظيم بالأريكة الخلفية لسيارته وارتفعت كرشه أمامه، تجشأ عدّة مرّات إحداها بصوتٍ عالٍ، ثم أشار لسائقه بالتوجه لمسجد ابن طولون، حيث أُقيم هناك سرادق كبير لأجل التعزية في وفاة الشيخ فايز.

بعد مرور ثمانية أيام على مقتله، قرر أهالي حي الخليفة تقبُّل العزاء في فقيدهم الغالي لمّا نجحت مباحث القاهرة في ضبط المتهم، الذي قتل الشيخ وسرق الألف جنيه من مسكنه، صحيح المتهم هرب مرة ثانية، لكنه الآن صار معروفًا ووزارة الداخلية تطارده، وحتمًا ستأخذ بثأر فايز حتًا منه.

دارت الأحاديث الجانبية ومسامرات المقاهي، ومن قبلهما خطبة الجمعة، حول الغدر والخِسّة، وكيف خان الخادم رضا الأمانة وقتل الشيخ الطيب الذي عامله مثل ابنه، لكنه طمع فيه وسرق ماله، ولمّا قاومه الشيخ ذبحه الخادم الخسيس بدمٍ باردٍ كما اعترف بالتحقيقات. انشغل الناس بعدها لأيام طويلة بخبر هروب الخادم من القفص، ربما لسينمائية الحادث كما وصفته الجرائد الحكومية والمعارضة معًا، هروب مفاجئ أدهش الحضور ولفت أنظار الصحفيين وكاميرات المصورين قدر الممكن.

كل شيءٍ كان يسير عاديًا أثناء نظر جلسة تجديد الحبس الاحتياطي للخادم رضا أمام القاضي، محاميه يترافع عنه ويطلب إخلاء سبيله، والنيابة تصمم على استمرار حبسه لحين انتهاء التحقيقات، بينما كان رضا الذي اعترف بجريمته ببساطة غريبة يروح ويجيء بالقفص مثل نمر غاضب، بعد بضع دقائق من بدء الجلسة فاجأ رضا الجميع بإخراج مسدس أسود صغير من بين طيات ملابسه، أطلق منه عيارين في الهواء فخفض الناس رؤوسهم، واختبأت الغالبية أسفل المقاعد الخشبية بالقاعة، صرخت النساء وعلت الضوضاء من جميع الأركان، قفز رضا من فوق سور القفص المنخفض نسبيًا مثل بطل رياضي في الوثب العالي، ثم تبعها بقفزات متتالية على مقاعد المحامين بالصف الأول وسط ذهولهم، وكأنهم متفرجون في سيرك يحبسون أنفاسهم من حركاته البهلوانية، ثم كانت الوثبة الأخيرة من نافذة محكمة مصر بشارع باب الخلق، بعدها عبر الطريق ببراعة كلاب الشوارع المُدرَّبة بالفطرة على تفادي السيارات المسرعة، وفي الاتجاه المعاكس قفز داخل سيارة مرسيدس خضراء بدون لوحات معدنية سرعان ما اختفت به، تاركًا خلفه مسدسه الذي سقط منه أثناء قفزاته، وتبين بعد فحصه أنه مسدس صوت.

- الوزير أكد لي إن القضية حتتقفل خلال ساعات، اطَّمّنوا، مسألة وقت مش أكتر.

عبارات متفرقة ظل المساعد يرددها لأعضاء مجلس الشعب

وأهالي الدائرة تباعًا وهو يتلقى العزاء في وفاة الشيخ فايز حنًا، مع أنه أول العارفين أن الخادم رضا لن يظهر مرة ثانية للوجود، لن يُضبط ولن يُكتب له حتى أن يعيش في الخفاء آمنًا، ففي ليلة هروبه لحق رضا بفايز حنًا ومحاميه وبكل مَن سبقوهم، قُتل ثم حُرقت جثته، تشوهت ملامحه حتى تاهت هويته وانقطع عن جذوره، ليدخل اسمه ضمن قائمة طويلة بأسماء اللاعبين مع الكبار، الذين خرجوا عن قواعد اللعبة أو عرفوا أكثر ممّا ينبغي ولو بالصدفة، ولم يدركوا يومًا أنهم سيكونون عبئًا على السفينة، وحمولة زائدة لا بد من التخلص منها قبل الرسو على بر.

تقدم ناحية مساعد أمين التنظيم عشرة من كبار التجار بحي الخليفة مع نائب الدائرة الجديد، المعلم عزيز إسكندر، رجل قبطي اختارته الحكومة من أقارب يوسف النجار لترضيته مع إخوانه الأقباط، قدم التجار ونائبهم طلبًا لمساعد أمين التنظيم نيابة عن عشرة آلاف مواطن من ساكني المنطقة، حصلوا على موافقتهم لإقامة ضريح للشيخ فايز عبد النبي، يتم بناؤه من تبرعات أهل الدائرة، كل مواطن يدفع جنيهًا من ماله للمشاركة الرمزية، طالبين وساطته في تذليل صعوبات التنفيذ مع محافظة القاهرة التي تمنع إقامة الأضرحة والمقامات بالجبّانات.

- وأنا أول المتبرعين.

قالها المساعد بحماس وأخرج جنيهًا من حافظة نقوده رفعه عاليًا ليراه مَن لم يسمع، وفي الوقت ذاته تُلتقط له

الصورة التي ستظهر بجرائد الغد، تبعه مدير مكتبه مثل ظله وأخرج جنيهًا مماثلًا لكن بغير ضجة أو إعلان، ومن بعدهما فُتحت مَحافظ نقود أعضاء المجلس الموقر، لتشكل إجماعًا وموافقة على قرار المساعد بالتبرع حتى ارتاحت ملامح المعزين واطمأنت قلوبهم، فلم يملكوا أنفسهم رغم جلال الموقف، والتهبت كفوفهم بالتصفيق، وعلت هتافاتهم للمساعد.. ربما بحكم العادة.

دس الرجل الطلب في جيبه وصافح مَن حوله وأشار مدير مكتبه للمقرئ بتلاوة الفاتحة فورًا، وبعد أقل من شهرين كان المساعد يقف في ذات المكان عبوسًا أمام كاميرات المصورين، الذين راحوا يلتقطون عشرات الصور له، منفردًا ومجتمعًا بأهالي المنطقة بجوار ضريح الشيخ فايز عبد النبي عقب الانتهاء من تشييده، ومن بعدها لم يزُره مرة ثانية طوال حياته. وفي الليلة ذاتها قبل الغروب دُفن جثمان الخادم رضا بمقابر الصدقة باعتباره جثة مجهولة الهوية لم يتعرّف عليها أحد، بعدما ظلت لأسابيع راقدة بثلاجة المشرحة.

***

فناء رملي غير نظيف تتناثر فيه حشائش مهملة كاشفة عن عشوائية مزمنة، قرب المدخل يظهر بوضوح صندوق نذور أخضر مثبت بالجدار، مُغلق بقفل كبير ومُتخم بأموال الصدقات والزكاة، بجواره حارس عجوز أحنى الزمن ظهره، يجلس على كرسي خشبي متهالك يكاد يهوي به في أي

لحظة، على مقربة توقف أتوبيس سياحي كبير لم يستطع سائقه الوصول إلى مدخل الضريح، هبطت منه مجموعة من السيدات فاحت روائح عطورهن في المنطقة فجذبت الشحاذين ناحيتهن كالذباب، اقترب المرشد السياحي من الضريح واعتلى حجرًا ليراه الجميع، علا صوته وهو يشرح للسيدات بحماس وثقة العارفين ببواطن الأمور.

"أما وقد انتهت زيارتنا لجامع ابن طولون فكان لا بد وأن نختتم بزيارة ضريح الشيخ، الذي أُقيم هنا منذ أربعين عامًا أو يزيد، بناه أهل المنطقة بتبرعاتهم للمرحوم فايز عبد النبي، الشيخ الذي تعود أصوله إلى شبه الجزيرة العربية، أهله عاشوا بالحجاز وتاجروا وكسبوا ونزلوا مصر آمنين، تمركزوا في أسيوط حيث ولد الشيخ فايز، وفي منتصف السبعينيات من القرن الماضي نزح الشيخ إلى القاهرة، وعاش في حي الخليفة بالقرب من ميدان الجامع الكبير، اشتهر الشيخ الجليل بعمل الخير وكثرة الصدقات، كان يوزِّع اللحوم كل أسبوع عقب صلاة الجمعة على الفقراء والمساكين وعابري السبيل، وفي وقت أزمة ارتفاع أسعار اللحوم أيام الرئيس السادات استورد الشيخ فايز اللحوم من أمريكا الجنوبية وباعها للمواطنين بسعر التكلفة، حتى قيل إن مَن لم يأكل اللحم في أيام الشيخ فايز لن يتذوقه طوال حياته، وقبل أن يمر عام على وجود رجل الخير والصدقات في هذا المكان، طمع فيه خادمه وتسلل إلى مسكنه ليسرق ثروته، ولمّا قاومه ذبحه بسكين فمات، وعقب ضبطه تمكن من

الهرب أثناء المحاكمة، ومن بعدها تعدّلت أقفاص المتهمين بالمحاكم فصارت مغلقة من الأرض للسقف حتى لا تتكرر واقعة الهروب. ترحموا على الشيخ فايز وادعوا له بالرحمة والمغفرة، والآن يمكنكم التقاط الصور لأشهر ضريح أهلي في مصر القديمة تم بناؤه بتبرعات الفقراء والمساكين".

ترحّمت بعض السيدات على فايز حنًا، وقرأت أخريات الفاتحة له، وأخرجت فئة قليلة نقودًا كثيرة وضعتها في صندوق النذور، انشغل بعضهن في التقاط الصور بهواتفهن المحمولة للمكان، وانتحى البعض الآخر جانبًا بالمرشد السياحي لسماع تفاصيل أكثر إثارة عن حادث قتل الشيخ، في حين تمتمت البقية ببعض الدعاء وهن في طريقهن إلى الأتوبيس أملًا في استجابة من رب العالمين. شعرن بأن للمكان قداسة ما فلم يخلعن إيشاربات الرأس الخفيفة التي ارتدينها في بدء الزيارة.

غادر الفوج ليدخل أتوبيس آخر للمزار السياحي الجديد، وفي المسافة الفاصلة بينهما اقتربت سيدة عجوز مُسنّة لتستند بذراعيها على جدار الضريح، تُشبه إلى حد كبير عزّافة محكمة ملوي وكأنها ابنتها، تنهّدت العجوز، ثم مسحت الضريح بكفيها، ورفعت رأسها للسماء وقد اختلط صوتها بالدموع داعية:

"يارب.. وحياة حبيبك وعبدك الطيب مولانا الشيخ فايز بن عبد النبي، اشفني من مرضي وبارك في ولدي، وخفّف الحمول من فوق كتفي، وارزقني من حيث لا أحتسب".

"تمت"

مواليد حديقة الحيوان

1

أكاذيب _ مبعثرة

حدث كل شيءٍ مثل عاصفة هَبّت فجأة، ترك أحدهم المزلاج مفتوحًا، ربما سهوًا، خرجت الأُسود من القفص، زأرت وهاجت وماجت، مهرولة في أركان حديقة حيوان الجيزة قبل الغروب بقليل، من بعيد أتى حارس بيت السباع، كان مجرد ظهوره أمامهم يخيفهم، وضربة واحدة من سوطه تجعلهم يموئون كالقطط.

يتنهد الأب ويرتشف بعضًا من الماء ليستكمل روايته بثقة لابنه إسماعيل، الذي صار جالسًا على حافة مقعده من فرط الاندماج مع القصة والانبهار بها.

يومها كان الزوار قليلين، والطقس بارد وغائم، وعندما هطلت الأمطار لم تبتعد السباع عن القفص، اقترب الحارس منهم وضرب سوطه عدة مرات في الهواء، خافوا وصاروا خانعين، وبسهولة إلقاء عقب سيجارة نجح في إعادة ثلاثة منها إلى قفصها، وعندما حاول الرابع افتراس طفل أفلت من يد أمه اضطر لإطلاق النار عليه فأرداه قتيلًا.

بعدها تم تكريم الحارس من المستر واطسون مدير الجنينة، وبعد طرد الإنجليز من مصر وهزيمتهم في القنال عرف الرئيس جمال عبد الناصر بالحكاية، فعيّنه مشرفًا عامًّا

بالإنابة على كل حُرّاس الحديقة، وأعطاه صلاحيات المدير الإنجليزي، ربما فعل ذلك ليكيد المستر واطسون الذي لم يتقبل الأمر، ومؤكد شعر بأن طرده آتٍ لا محالة، فتقدّم باستقالته وقبلوها، مع ذلك ظل الأب حارسًا لبيت السباع ومشرفًا عامًا مدة قاربت عشر سنوات، رغم أن منصب المدير ظل شاغرًا، وبقيت حكاية الأسود في ذاكرته يرويها للجميع بغير ملل.

تزوج الحارس وعاش في استراحة المستر واطسون بالقرب من بيت الزواحف، وفي العيد الخامس لثورة يوليو أتى ابنه إسماعيل للدنيا.. وكبر على سماع حكاية الأسود حتى أعاد القدر ذات يوم إنتاج الرواية برؤية جديدة، لكن بعد عشر سنوات من إطلاق أبيه للنسخة الأولى، فاستقرت النسخة الجديدة في الذاكرة دون غيرها.

في هذا اليوم المشئوم تُرك المزلاج مفتوحًا على سبيل السهو كما في الرواية الأصلية، وظل الفاعل مجهولًا أيضًا، لكن هذه المرة خرج سبع وحيد لا أربعة، لم يجد في طريقه سوى والد إسماعيل، كان هذا الأسد معروفًا بسبع البرومبة لشراسته وضخامة حجمه، نهش السبع كتف الأب وشوه وجهه، وتركه إهمال العاملين ينزف حتى وصل المستشفى جثة هامدة ناقصة ذراعًا بأكمله، وظلت أم إسماعيل تبكيه شهورًا من بعدها حتى لحقت به.

غادر إسماعيل موطنه لأول مرة، حديقة حيوان الجيزة، وعاش يتيمًا مع عمه الكبير بحي الضاهر، التحق بكلية الطب

البيطري كي يحقق أمنية أبيه كما أخبره العم. بعد دخوله الجامعة، وعلى مدار سنوات الدراسة، ظل يتردد على حديقة الحيوان بالجيزة أسبوعيًا، يتابعهم ويُشخّص حالتهم، كأنه طبيب بيطري يعمل فيها، لا زائرًا عابرًا لها كما هي حاله الآن، يرى الداء بوضوح، ويقترح في ثقة الدواء، وكل مرة تُقابل كلماته بابتسامة صفراء باهتة، رغم أن الهزال يأكل الحيوانات، وأعينهم تنطق جوعًا عندما يزورهم.

منذ عامين بدأ يصطحب خطيبته عايدة إلى الحديقة، فاكتسب المكان خصوصية مضاعفة، هنا أعلنا مشاعرهما وكشفا ما في قلبيهما، هي جارة لعمه، تعرف عليها وأحبها في اليوم ذاته، لم يكن حبًا من النظرة الأولى، إنما من أول طبخة كما حدث معه، أعدت لهما طعامًا في رمضان الماضي عندما أحرق عمه اللحم والخضار الذي كانا سيفطران به، وكادا يموتان مختنقين جائعين عندما طالت قيلولة العم يومها.

تقاربا بسرعة رغم تباعد الاهتمامات، هي تدرس الفنون الجميلة بشغف غريب، وترسم على كل ما تطوله يداها من ورق أو جدران، بينما يحلم هو بعلاج كل ما يسير على أربع سيقان في هذه الدنيا. مع الوقت تعانقت الروحان فالتصقتا، تقدم لخطبتها منذ شهور، ووافق أهلها على قراءة الفاتحة فقط، مع الترخيص لإسماعيل باستعمال كلمة "خطيبتي" أمام أهل المنطقة، يومها نجح عمه في إقناع أهل عايدة بأن الطبيب البيطري يكسب مالًا أكثر من البشري، وأن تعيينه في الحكومة سيكون قريبًا يضمن له جاهًا مع المال، فصدّقوه مع

كثير من الريبة. ومع الوقت صدقت ظنونهم، فلا إسماعيل تعين في الحكومة ولا في غيرها، فقط حجز مقعدًا دائمًا على المقهى، يجلس فيه كل يوم في غير الأوقات التي يلتقي فيها بعايدة.

***

المكان شبه خالٍ، والحركة خفيفة، ومع ذلك اختار إسماعيل وعايدة ركنًا قصيًا أسفل شجرة عريقة تتدلى أغصانها المورقة بكثافة لتبعدهما عن العيون المتلصصة، تلفّت حوله منتظرًا لحظة قنص مناسبة، ثم اقترب من عايدة مثل محبين غيرهما تناثروا في ثنائيات، ليسرقوا قُبلة ويختلسوا لمسة من وراء الزمن تمنحهم دفئًا يُصبِّر اشتياقهم.

قبل أن تتلامس شفاههما سمع نعيقًا منفرًا بوضوح وهو يعلو سائلًا:

- بطاقتك يا روميو.

حجب أمين شرطة قرص الشمس بضخامته، أدرك إسماعيل بنظرة واحدة لملامح الأمين الغليظة أنها تشي بنوايا غير طيبة، وزاد من توتره خشخشة جهاز لاسلكي بحجم طفل رضيع متدلٍّ من جانبه الأيسر، فأخرج بطاقته وتقدّم خطوة ليصد بجسده نظرات الرجل الوقحة المصوبة لصدر عايدة، قلب الأمين البطاقة بين كفيه الكبيرتين، ثم ندت منه ابتسامة اتسعت رغمًا عنه، وبهدوء أعادها له، ثم مضى يبحث عن غيرهما وهو يضحك.

نظرت عايدة لإسماعيل باندهاش سائلة بعينيها أسئلة كثيرة يعرف أجوبتها، حاول كتمان سِرِّه متسترًا وراء ملامح جامدة لصقها على وجهه، لكنها أصرت وزادت من عنادها، ولمّا فشلت في خطف البطاقة من بين أصابعه راحت ترجوه بدلال، لانت إرادته عند عتبة دلالها وقدمها لها، فتحتها عايدة متلهفة ثم شهقت وضربت صدرها بكفها، وهي تقرأ الكلمات المدونة أمام خانة محل الميلاد.. مرددة إياها بصوتٍ عالٍ:

- مواليد حديقة الحيوان!

ظل صامتًا حتى أفلتت منها ضحكة رغمًا عنها، ندت منه نصف ابتسامة مغموسة في حرج، طلبت تفسيرًا كما توقع، جذبها من يدها وجلسا في حديقة الشاي، تسحبت أنامل عايدة مثل فراشات مطمئنة حتى قفزت فوق كف إسماعيل، ثم همست: "باحبك"، أمسك بيدها الرقيقة وتحسسها ثم قبّلها، لديها قدرة فائقة على التوغل بوجدانه وامتلاك كل حواسه بسهولة، يتذوق محبتها كل يوم على مهل، ويذوب عشقًا في مُحياها، يعشق طلتها ويرتاح للمساتها، ويطرب لصوتها عند انسياب الكلمات من بين شفتيها حتى ولو كانت همسًا.

طبع قُبلة ثانية فوق راحة يدها، فخجلت وسحبتها بهدوء، ويومها حكى حكايته لأول مرة.. وُلد باستراحة المدير في حديقة الحيوان بالجيزة التي كان أبوه يقيم فيها، وسجلوا واقعة الميلاد وفقًا لمكان ولادته، ربما لم ينتبهوا لما دُوّن بالشهادة وقت صدورها، وما يمكن أن تسببه هذه الخانة من

ألم طوال أيام دراسته وما بعدها، كلما أطال الله في عمره، طاردته خانة محل الميلاد حتى حاصرته فلم يفلت من تعليقات زملائه السخيفة، وكلما تقدم عامًا في الدراسة زادت التعليقات قبحًا وفحشًا، كان أقلها سبًا صريحًا لأمه عندما ينادون عليه من بعيد، حاول كثيرًا كتمان السر، لكن كل مَن عرفه ولو بالصدفة أذاعه، يقوله والفرحة تملأ عينيه كمَن عثر على كنز.

أنهى روايته وثبت عينيه في عينيها فمنحته ابتسامة ودودة أزاحت ثقل الحكاية من قلبه مؤقتًا.

***

2

متفائل _ معكوسة

تخرج إسماعيل من الجامعة في عام الرخاء كما أسماه الرئيس السادات.. سيارة "سيات" صغيرة لكل مواطن، وشقة في مدينة مايو الجديدة للمتزوجين حديثًا، ووظيفة حكومية لكل خريج.. الحلم على الأبواب وليس عليه سوى أن يفتح له مُرحبًا لينهل منه كما يشاء، لم يحلم وحده، شاركته عايدة حلمه وهما جالسان في مكانهما المفضل، حلواني "لاباس" في وسط البلد.

بعد أن يفرغا من كوب الجيلاتي الذي يقتسمانه سويًا، تبدأ عايدة في ممارسة هوايتها، رسم كروكي لصالون البيت وغرفة الأطفال وحجرة النوم الرئيسية، كل مرة تضيف وتعدل وتبدل، ترسم على المناديل الورقية ويتخيلان سويًا موقعها بمدينة مايو، يخطان ويكتبان، وفي نهاية اليوم يكتفي كلٌ منهما بمسح فمه في كَفّه حتى لا تتأثر الرسومات، تطوي عايدة المناديل وتضعها في حقيبتها بعناية، وينصرفان. وبعد عام صار لديها في بيتها شوالًا كبيرًا من المناديل الورقية التي تحوي رسومًا هندسية تصلح لتأثيث مدينة مايو الجديدة بأكملها.

لديهما طقس ثابت لا يحيدان عنه عندما يغادران محل الحلواني، يحتضنها إسماعيل من الخلف، وتفصل حقيبة يدها بين جسميهما، يحاول حماية مؤخرتها قدر الممكن من زحام

الأتوبيس الذي يُقلهما إلى الضاهر في طريق العودة كل يوم، ويومًا بعد يوم يكتمل أسبوع، ثم يصير شهرًا لتنهمر الأيام كالمطر، حتى صار لهما من الشهور تسعة، ولم يرَ حلمهما النور بعد.

انتهى عام الرخاء وطوى الزمن شهورًا عديدة من بعده، ولم يُصبهما الدور في قُرعة المساكن بعد، حتى صاح عمه في مرة مع الصائحين من أهل عايدة الذين يتلكئون كي يرفضوا زواج إسماعيل من ابنتهم:

- جرب تقدم على وظيفة في الجنينة، أبوك كان موظف فيها وإنت من مواليدها ولا بد يعملوا لك خاطر.

سكت عمه برهة ولمّا لم يجد منه حماسًا أردف مشجعًا:

- المدير كان تحت إدارة أبوك يعني لَزمًا يستجدع معاك.. سِلو بلدنا كده، جمّد قلبك واتّكِل على الله.

تسلح إسماعيل بصحيفة قديمة أخرجها عمه من السندرة، بدا كعالم آثار اكتشف مغارة ملكية وحرص على خروج تابوت الفرعون منها بأمان، صحيفة تعود لعشرين عامًا مضت، اصفرّت أوراقها وذابت حوافها فباتت لا تسر الناظرين، لا تحتمل الاطلاع أو تقليب الصفحات، حملها ملفوفة بعناية داخل طرحة صلاة أهدتها له عايدة، خاصة بالمرحومة جدتها، قالت وهي تعطيها له:

- الطرحة مبروكة ولا بد مشوارك يتم بالقبول إن شاء الله.

لم يكن إسماعيل متفائلًا مثل عمه وعايدة رغم أنه صدّق حكاية السباع منذ سمعها صغيرًا من أبيه. الصحيفة المتهالكة التي يتشبث بخيوطها لا تحمل مع الخبر سوى صورة الأب، ولا توجد أي صورة للأسد الذي صرعه، ومصدر الحكاية أبوه وحده، والصفحة التي نُشر بها الخبر مُخصصة عن بطولات المصريين ضد الإنجليز بعد ثورة يوليو المجيدة، وكأن مستر واطسون هو الذي أخرج الأسود فأعادها أبوه للقفص، وأنقذ المواطنين المصريين بعدما قتل واحدًا من السباع. تشكك إسماعيل في الحكاية لأول مرة مع أنه أُعجب بها طوال حياته، حتى إنه كان يرويها لأصدقائه وزملائه، لكن لم يصدقها أحد سوى عايدة، وربما عمه من بعدها، رغم أنه كان يحكيها بتحفظ كمَن يتفاداها، الأمر الوحيد الذي أعطاه أملًا هو الخطاب الذي كتبه عمه للمدير، حرص فيه على تذكيره بأخيه، وأنه أستاذه الذي تتلمذ على يديه، وبالطبع أشار لكون إسماعيل من مواليد حديقة الحيوان، وأنه أولَى من غيره بأي وظيفة فيها، فولاؤه الأول والأخير لن يكون لغيرها، على أرضها وُلد، وبين أقفاصها كبر، ووراء أسوارها عاش.

حكّ إسماعيل ذقنه غير مرتاح للعبارات الإنشائية التي دبجها عمه، لكنه استعاذ بالله من الشيطان كما نصحه العم، وذهب للحديقة لتقديم مسوغات تعيينه المتفردة.

بعد انتظار قارب الساعة كأنه سيلتقي مسؤولًا كبيرًا أدخلوه المكتب، مَصمَص مدير الحديقة شفتيه وطوى جريدته على صفحة الكلمات المتقاطعة، قبل أن يبل ريق إسماعيل

بكلمات قليلة اعتبرها تأبينًا لسيرة أبيه، تذكره المدير بسهولة، ومع ذلك لم يُطل الحديث عنه لأكثر من بضعة أنفاس من سيجارته، ثم طالع الصحيفة والخطاب وشهادة الميلاد باعتبارهم مسوغات التعيين في وظيفة طبيب بيطري بالحديقة، المعلن عنها بالجرائد منذ أسبوعين بماهية سبعة وعشرين جنيهًا شهريًا وتأمين صحي.

في حرص بالغ أعاد المدير الصحيفة لإسماعيل كي لا تتمزق قائلًا:

- الحقيقة أنا أول مرّة أسمع حكاية الأسد اللي أبوك ضربه بالنار، والحكاية الوحيدة اللي أعرفها إن الأسد سبع البزومبة تسبب في موته الله يرحمه، عمومًا خلينا نشوف.

سكب إسماعيل كل كلمات المدير من أذنه الثانية واحتفظ بكلمتي "خلينا نشوف"، آملًا في تعيينه. انشغل المدير في حل الكلمات المتقاطعة بجريدته ولم يتكلم معه، وفي مرة يتيمة رفع رأسه كمريضٍ أفاق فجأة من غيبوبةٍ سائلًا عن مرادف كلمة "مغفل"، وقبل أن يجيبه إسماعيل كان قد تذكّرها ودوّنها.

عند انتهاء سيجارة المدير الثالثة وصل ملف الأب، أتى به فرّاش عجوز من شؤون العاملين، رحّب بإسماعيل وذكّره بطفولته وراح يذكر محاسن أبيه، لكن نظرة صارمة من عين المدير جعلته ينصرف، وبقية كلامه محشورًا في حلقه.

قلب المدير أوراق الملف وارتسمت على شفتيه ابتسامة

نصر، أقنع إسماعيل نفسه أنها قد لا تعني أمرًا سيئًا، رغم أنها لم تُرحه في الوقت ذاته.

- طبعًا إنت عارف إن سيادة الريِّس عبد الناصر رقّى أبوك ترقية استثنائية وعيّنه مساعد للمدير الإنجليزي ومُشرف عام على حراس الأقفاص، ولمّا مستر واطسون استقال، أبوك راح سكن في الاستراحة اللي إنت اتولدت فيها، أمّا حكاية الأسود بتاعتك دي فملهاش ذكر في الملفات، لكن إكرامًا لسيرته ممكن نشغّلك مؤقتًا لغاية ما يجيلك التعيين بإذن الله.

ردّد إسماعيل في نفسه: "وماله"، ربما لو استطاع إثبات كفاءته كطبيب بيطري، لا بد وحتمًا يتم تثبيته بوظيفة دائمة، ثم إنه يستطيع بماهية العقد المؤقت تأجير شقة ببضعة جنيهات ليتزوج فيها من عايدة، كل شيءٍ يمكن أن يسير مؤقتًا حتى يتسلم شقته في مدينة مايو وفقًا للقُرعة التي تجري كل شهرين، شعر بأن الطرحة مبروكة، فحرص على طي الصحيفة فيها كما كانت وطبع فوقها قُبلة ثم مسح جبهته بها.

وقّع المدير أوراقًا كثيرة وختم مثلها، واستدعى موظفين واتصل بآخرين على هاتف داخلي فيما يبدو، حتى مازحه إسماعيل أنه لا بد وسيُعين وزيرًا للزراعة، لكن المدير لم يبتسم، وبعد إشعاله سيجارة خامسة، قال بابتسامة باهتة:

- أبوك أفضاله عليّا، ده هو حتى اللي علمني حل الكلمات

المتقاطعة، عمومًا من بُكرة تقدر تستلم شغلك، إنت ابن الجنينة ولك حق عليها، ألف مبروك.

***

أزاح إسماعيل الحقيبة جانبًا والتصق بعايدة، ظل الأتوبيس يترجرج فاحتضنها حتى لا تفلت بعيدًا فيتلقفها غيره، ابتسمت عايدة ابتسامة خجلة وهمست كي يبتعد عنها، لكن نظرتها تثنيه، ونبرة صوتها تخبره بأن الهمسة كاذبة ولا تعني سوى الاقتراب أكثر، لكن مع اقتراب الكمساري منهما ابتعد إسماعيل قليلًا حتى لا يزيدها حرجًا، خاصة أنه شعر برغبة فيها من فرط التصاقه بها.

- أنا فرحانة أوي..

تفاءلت عايدة بلقاء إسماعيل مع مدير الحديقة، وعقب نزولهما من الأتوبيس فاجأته برغبتها في زيارة سوق الثلاثاء، وهناك اشترت له حقيبة جلدية مستعملة بدلًا من التي معه، وعند عودتهما أفرغتها من الحشو الكرتوني الذي وضعه البائع فيها كي تبدو منتفخة، وملأتها بأوراق المناديل التي رسمت عليها كروكي شقة مدينة مايو المنتظرة التي ترسمها منذ سنوات، ثم قدمتها له وطلبت منه حفظها بشقته حتى لا تمزقها أمها غيظًا من انتظار ما لا يأتي. ودّعها مبتسمًا وكعادتها أرسلت له قُبلة في الهواء، وبعدها أولته ظهرها فاتسعت ابتسامته، هو الوحيد في هذه الدنيا الذي يرى ظهر القمر من بعد وجهه.

***

3

حيوان يتذكر الماضي

اليوم ليس ككل الأيام، دخل إسماعيل الحديقة بخطوات واثقة، لم يقطع تذكرة متفاخرًا بموعده مع المدير لتسلم العمل، وفي طريقه حرص على تحية كل مَن صادفه، تحية تليق بطبيب سيُعيد الحيوانات التي شارفت على الهلاك إلى الحياة مرة ثانية.

- مبروك يا إسماعيل، تقدر تستلم شغلك في بيت الفيل.

قالها المدير بصورة عابرة وهو يختم بعض الأوراق، ثم شرع في حل الكلمات المتقاطعة كعادته.

في البداية ظن إسماعيل أنه يمازحه، ثم انتظر الجِد من بعد الهَزل لكنه لم يأتِ، تنحنح ليفهم المدير أنه لا يزال واقفًا، ابتسم الرجل وسلّمه خطاب التعيين دون أن يرفع عينيه من الجريدة.

قرأ إسماعيل القرار وتساءل متوجسًا وهو يتحسّس كلماته رافعًا صوته:

- حارس بيت الفيل؟

- أيوة.. علشان تعيد أمجاد الوالد الله يرحمه.

- لكن أبويا كان حارس بيت السباع ومساعد مدير ومشرف عام، وأنا طبيب بيطري وكنت فاهم إني..

قاطعه المدير بعدما طوى جريدته بغضب وطارت ابتسامته وهدوؤه وحفاوة استقباله كطيور فزعة:

- أبوك طول عمره كان حارس بيت الفيل لكن أكله السبع، وحكاية الأسود بتاعتك دي في الجورنال بس، حكاية محدش سمع بيها، يمكن صادف يومها إن هو اللي أخد اللقطة وطلع في الصفحة الأولى، والناس بتصدق كلام الجرايد، أما إنك دكتور بيطري فاستنى بقى مكتب العمل يوزّعك بعد سنة والا اتنين، والمؤكد إنك حتتعين في الصعيد، يعني آخرك تكشف على بقرة والا جاموسة، لكن هنا عندنا حوافز وبدلات وبقشيش من الزوار وحيوانات مفتخرة، حراسة بيت الفيل هي الوظيفة المتاحة عندي، ولو شايف إنها موش قد المقام خلاص بلاش منها خالص، حقك عليا يا سيدي.. أنا غلطان.

قالها وهو يهم بجذب خطاب التعيين من يده فتشبث به إسماعيل كغريق أمسك بلوح خشبي عائم، على الأقل خيط أمل، وربما تتحسّن الأوضاع ويترقى من حراسة بيت الفيل إلى علاجه فيقتنعون أنه طبيب بيطري.

***

ما تعلنه الأوراق يتمرد عليه الواقع ليُخالفه، حراسة بيت الفيل يتولاها موظف عجوز وأتوا بإسماعيل لمساعدته، هكذا تُعلن بوضوح سطور قرار التعيين، لكنه اكتشف بعد دقائق من استلام عمله أن هذا العجوز لا يحرس الفيل ولا بيته، بل لا يفعل شيئًا سوى تلقي بقشيش من الرواد الراغبين في إطعام

هذا الكائن الضخم أو التصوير معه، أما إسماعيل فوظيفته الفعلية هي تنظيف بيت الفيل فقط، فيما يبدو لا يحتاج البيت إلى حراسة، ومؤكد الفيل ذاته قادر على حماية نفسه، هذا الحيوان الذي يشبه بيتًا صغيرًا متحركًا ويخلف وراءه عصر كل يوم تلًا صغيرًا من الفضلات رائحتها لا تُطاق، كاد إسماعيل أن يفقد وعيه منها عند رفعها بالشوكة الحديدية، لكن مع مرور الوقت اعتادها أنفه حتى أصبح لا يستنشق غيرها، بعد أسبوع واحد صار يشم الرائحة ذاتها كلما التصق بعايدة في الأتوبيس، ولدى كل الركاب وبعد مصافحة موظفي الحديقة، وفي مكتب المدير وجدها نفَّاذة، حتى عمه شعر بأن الرائحة تنبعث منه كلما التقاه في المساء بالبيت، ثم تحول العالم كله من حوله إلى جبل عظيم من الخراء بعد شهر واحد فقط من العمل.

***

اقترب إسماعيل من خط النهاية ولم يتجاوزه كأنه يجري في مكانه، طالت فترة قراءة الفاتحة وحان موعد الخطوبة وبعدها الزواج، ولأنه لم يُدبِّر شقة ولا وظيفة مناسبة رفضته عائلة عايدة بإصرار هذه المرة، قالوا لن تتزوج ابنتهم من حارس بيت الفيل، وصفوها بمهنة حقيرة لا تليق بهم، في البداية ظنوا أنه يعمل في السيرك، واعتقدوا أن لديه مستقبلًا أكبر مع القرود والمهرجين، ولمَّا تبينوا الحقيقة تمسكوا برفضهم، رغم أن والد عايدة موظف في مصلحة المجاري، وفي مرة أوشك إسماعيل على الصياح في وجهه بأن الفارق

بينهما في كمية العمل فقط ويتشاركان في الرائحة، لكنه تراجع حرصًا على مشاعر حبيبته، التي هدأته نظراتها الحانية طوال جلسات الرفض.

في الجولة الثالثة من التفاوض خرج إسماعيل محملًا بشروط مجحفة كسابقتها، مع ذلك كانت تلك أفضل جولات المفاوضات البائسة التي دارت بين العائلتين، اتفقا على إتمام الزواج نهاية العام بشرط وجود شقة إيجار، ووظيفة محترمة في الحكومة، جلوسًا خلف مكتب صغير لختم أوراق، لا وقوفًا وراء فيل، مهما بلغت ضخامته، لرفع الخراء.

- بالهنا والشفا..

رفع الجرسون كوب الجيلاتي الفارغ من أمامهما، في حين ظلت المناديل الورقية هذه المرة بيضاء لم تضع عليها عايدة خطوطًا لمستقبلهما، لا يزال إسماعيل متفائلًا. يومها عرض على عايدة المغامرة، وبما أنهما زوجان مؤقتًا بموجب قراءة الفاتحة التي هي أشبه بخطوبة مؤقتة، ولكونه موظفًا بعقدٍ مؤقتٍ يحرس بيت الفيل بصورة مؤقتة أيضًا لحين تعيينه كطبيب بيطري، فليتزوجا في بيت عمه مؤقتًا ويضعا العائلة أمام الأمر الواقع.

رجفت عايدة وبدأت تتلعثم وتتلجلج، إسماعيل ليس لديه حلول أخرى، يدرك أنها لو تركته اليوم لن تكون له غدًا، ومؤكد ستذهب لغيره مثل كل قصة حب فاشلة، وتتحول حكايتهما لقصة مملة من آلاف القصص التي كتبها الروائيون

وأنتجتها السينما مئات المرات، صحيح الناس لا يملون من سماعها والتعاطف مع أبطالها، لكن لماذا يكونان من الضحايا والشهداء لثورة المحبين التي لا تكتمل أبدًا؟

هزّت عايدة رأسها ولم تنطق، فلم يعرف إذا ما نفضت سؤاله من رأسها، أم تركت إجابته تنضج على مهل.

تظاهر بالانشغال في تصفح الجريدة التي أمامه بعدما شد انتباهه عنوانها الرئيسي عن أمر السادات باعتقال ألف وخمسائة شخص بقرار واحد منفرد.

***

على مقهى "بَعرة" في مقره الجديد بمنتصف حارة عين السمكة، جلس إسماعيل حائرًا أمام عبد الحي غزال المحامي الشهير بالمنطقة، يتخذ غزال من المقهى مكتبًا، ركنًا قصيًا في نهايته إلى اليسار قليلًا، مكونًا من ثلاث طاولات مضمومات لبعضها البعض، يبدأ عمله واستقبال موكليه من السادسة مساءً حتى مواعيد إغلاق المقهى في منتصف الليل، وفي النهار يذهب إلى المحكمة إذا كانت لديه جلسات، أو يقضي بضع ساعات بمكتبه لحل الكلمات المتقاطعة بالجرائد القومية. لا يدفع مقابلًا للمشروبات حتى تلك التي تُقدّم لموكليه، يكفي أن تجلس إلى طاولته لتكون واحدًا منهم، ونظير ذلك يقدم الاستشارات القانونية المجانية لصاحب المقهى المعلم بَعرة، ويتولى أحيانًا الدفاع عن صبيانه أمام المحاكم بدون أتعاب في قضايا تعاطي المخدرات، وجُنح

الضرب التي يُتهمون فيها عندما يعتدون على الزبائن الذين لا يدفعون الحساب.

اعتاد الأستاذ غزال مُداهنة صاحب المقهى كلما احتاج سلفة، مؤخرًا تفتق ذهنه عن وضع لوحة فوق الجدار القريب من طاولاته الثلاث مكتوبة بخط كوفي جميل وتحمل بيت الشعر المعروف "كأنك بعرة في إستِ كبشٍ مدلاة وذاك الكبش يمشي"، بعدما أقنع المعلم بعرة بتغني الشعراء العرب بلقب عائلته التي تعود أصولها إلى الأشراف، فوافق على تركها مُعلقة بمكانها البارز رغم سخرية بعض الزبائن منها.

أنهى إسماعيل كوب الشاي مع آخر فصل في سلسلة محاولاته البائسة للزواج من عايدة، تجشأ عبد الحي غزال ثم هتف بحماس:

- كل المطلوب شهادة ميلادك إيّاها وسيب الباقي عليّا.

- يعني إيه؟

- يعني من بكرة تروح الجنينة وتدخل استراحة المدير وتحط هدومك وتنشر غسيلك كأنك صاحب بيت.

أدار إسماعيل إبهامه في أذنه ثم تساءل بدهشة:

- أنا لو عملت كده مش هكمّل ساعة واحدة والمدير يطلب لي البوليس، ومش بعيد السادات يعتقلني كمان.

- عِز الطلب يا إسماعيل، شوف أما أقولك.. خير طريقة للدفاع إنك تسيب خصمك يجري وراك مش العكس، إحنا

هندخل ونقعد وهمّا اللي يحاولوا يطردونا، نقوم إحنا نطلع شهادة الميلاد وقرار تعيين أبوك مدير بالإنابة ونثبت إقامته في الاستراحة، فالمدير يطلب البوليس فيحولوا المحضر على النيابة، وهناك يطلع القرار ببقاء الوضع على ما هو عليه وعلى المتضرر اللجوء للقضاء. وإحنا مش متضررين.

سكت إسماعيل مشدوهًا ثم فجأة أفاق من سكرات السذاجة وقال بنبرةٍ تحمل تأنيبًا لمحاميه:

- طيب ما همّا هيرفعوا قضية ويروحوا القضاء، وأكيد المحكمة هتطردني من أول جلسة.

باستنكار شديد ونبرة أتت مرفرفة بجناحي الثقة والكبرياء قال غزال:

- وأنا رُحت فين يا إسماعيل؟ ساعتها إحنا كمان نرفع قضية موازية برضه على وزير الزراعة ومدير جنينة الحيوانات ونطالب بامتداد حقك في الإقامة بالاستراحة اللي اتولدت فيها خلفًا لأبوك، مفيش في القانون حاجة تمنع، النصوص بتتكلم عن امتداد عقد الإيجار، وأبوك في حكم المستأجر لأن إقامته مؤقتة، إحنا هنلعب على النقطة دي ونطلب خبير وشهادة شهود ونطعن بالتزوير على مستنداتهم ونستأنف لو خسرنا، وبعدها نروح محكمة النقض وابقى قابلني لمّا يتحكم في القضية، تكون جوّزت ولادك من عايدة، وإنت كمان طلعت على المعاش.

بدا إسماعيل متشككًا رغم ثقة غزال، فطرح سؤاله الأخير

وهو على يقين من عدم وجود رد مقنع لدى محاميه:

- وافرض انطردنا من أول يوم وبقينا برّه، أنا ممكن كده كمان أفقد وظيفتي في حراسة بيت الفيل؟

جذب غزال نفسًا طويلًا من الشيشة، ثم أطلقه مصحوبًا بشخرة خفيفة قائلًا:

- طُز، وإيه يعني، هو إنت بتحرس البيت الأبيض يا خي، على الأقل نبقى كسبنا تعاطف الرأي العام معاك، ويمكن الحكومة قلبها يحن وترفع الموضوع للرئيس المؤمن فيتعطّف عليك ويمنحك شقة في مدينة مايو الجديدة.

خرج إسماعيل من المقهى ممتلئًا بشعور غريب كمَن قفز على الزمن وكسب القضية، راح يستدعي المكان من قاع ذاكرته ويحاول إعادة ترتيبه ليصلح بيت زوجية مع خطيبته، ظل شاردًا حتى رقد في فراشه، ولمّا أغمض عينيه وغلبه النوم حلم بأنه يجري في حديقة الحيوان عاريًا، وضباع كثيرة تحاول مطاردته ولا تلحق به، حتى تمكن أحدها من عقره من ساقه، ولمّا سقط اقتربت منه بقية الضباع، دارت حوله وراحت تتشممه، ثم توقفت عن مهاجمته واستدارت مبتعدة.

***

4

مسرحية لعادل إمام

اختار القدر لنفسه دور البطولة الرئيسي ونحى الجميع جانبًا، غادر مقاعد المتفرجين بعدما مَلّ من الفُرجة على إسماعيل وعايدة وهما لا يُريان إلا في موضعين، محل "لاباس" وأتوبيس 95 عائدين للبيت.

كان كل شيءٍ هادئًا هذا الصباح، الزوار قليلون لأنه يوم ثلاثاء، المدير يحل الكلمات المتقاطعة، بينما تستريح الحيوانات بأقفاصها كي لا تهلك بسبب هزالها. فجأة شق السكون دبيب خطوات حارس بيت السباع مهرولًا ناحية مكتب المدير، لم يمنح الساعي فرصة ليسأله عن سبب الزيارة المفاجئة، اقتحم الغرفة مغلقًا الباب وراءه بإحكام ووقف يلهث. قبل أن يشخط فيه المدير نطق الحارس:

- الأسدين اللي حيلتنا ماتوا يا سعادة البيه.

-الله يخرب بيتك وبيت أهلك، إزاي ده حصل؟

- أكيد من اللحمة إيّاها، يظهر طلعت موش ولا بد والسر الإلهي خرج من ربع ساعة.

نهض المدير بصعوبة وهو يدكك نصف كرشه في كمر بنطاله، لملم مفاتيحه وارتدى نظارته وهرع لمعاينة الجثتين، وطوال الطريق يعطي تعليمات مشددة بتحويل مسار الزوار بعيدًا عن بيت السباع، ثم التفت لحارس الأسد وأمسكه من

ياقة قميصه فانتفض الرجل مذعورًا بين يديه. قال المدير بنبرةٍ لا تخلو من وعيد:

- إيّاك تجيب سيرة لمخلوق عن اللحمة أو أي حد ياخد خبر باللي حصل للسباع لغاية ما نشوف هنعمل إيه مع إدارة الطب البيطري بخصوص التشريح.. فاهم يا بَجم؟

حشرت الكلمات في زور حارس بيت السباع، فاكتفى بهز رأسه بعدد دموعه التي انهمرت رغمًا عنه، تركه المدير ودخل قفص الأُسود واستدعى مساعده على وجه السرعة، وبعد قليل لحق بهما الحارس المذعور.

انتهى الاجتماع الرباعي ببيت السباع بعدما انضم لهم الموظف المالي، اتفقوا مؤقتًا على إخفاء فواتير توريد لحم الحمير المريضة التي قُدّمت للأسدين فأودت بحياتهما لحين إعداد فواتير جديدة بأسماء موردين وهميين.

أشار المدير ناحية الأسدين طالبًا من الحارس عمل محضر إثبات للحالة لكي يوقِّع الطبيب البيطري الكشف على الجثتين تمهيدًا لدفنهما دون تشريح. في تلك اللحظة اقتحم العرين ساعي مكتب المدير وهو يتعرّق من جسده كله، تلعثم لسانه حتى قال بصعوبة بالغة وكأنه نسي الكلام:

- معالي وزير الزراعة اتصل يا سعادة البيه وقُلت له إن معاليك بتمر على الأقفاص شخط فيّا وقالي إقلب عليه الدنيا يا حمار لا مؤاخذة وهاته على التليفون فورًا.

عندما وضع مدير الحديقة سماعة الهاتف منهيًا المكالمة مع

الوزير شعر بوخزة حادة في صدره، فتخفف من ربطة عنقه وتجرّع بعض الماء مُعيدًا رأسه للوراء، لم يفلح في تجفيف عرقه الغزير، وبدت عيناه ذاهلتين، ينظر إلى لا شيء كمَن فقد بعض ذاكرته.

- خير يا سعادة البيه؟

سأله مساعده بصوتٍ خفيض، تفرس فيه المدير وكأنه يراه لأول مرة، ثم خرجت منه الكلمات مبعثرة، ولمّا رتبها المساعد بقليل من الأسئلة التي أجابها المدير في حسرةٍ أدرك المساعد خطورة الوضع الذي باتوا فيه، من أول حارس بيت السباع حتى وزير الزراعة نفسه.

***

ربما لأول مرة يتأخر المدير ومساعده وحارس بيت السباع والموظف المالي عن الانصراف في مواعيد العمل الرسمية، في تلك الليلة امتد الاجتماع حتى مطلع الفجر، طُرحت على المائدة المستديرة التي جمعتهم حلول بدفن الأسدين النافقين تفاديًا لتشريحهما من الطبيب البيطري فتتوه حقيقة الوفاة، ثم تناثرت على الطاولة حلول أخرى متنوعة لكنها لم تقترب من المصيبة التي تزحف نحوهم ببطء، تمسكوا بمقترح تلفيق مستندات توريد للحوم أخرى من مورّد مضمون، أو تقديم الحارس مذكرة يعترف فيها بإهماله الجسيم ويتم تعويضه من المدير الذي رفع سقف المكافأة إلى ألف جنيه لمَن يتطوع ويعلن أنه الفاعل المتسبب

بإهماله في نفوق الأسدين، لا خوفًا من محاسبة، إنما لفزعه من الخبر الذي زفّه إليه وزير الزراعة وتسبب في كركبة بطنه، ورأى من بعده شبح الفصل وربما السجن يتراقصان أمامه. لكن المساعد أشار إلى أن هذه الحلول كلها لن تفلح في تدارك المصيبة التي تنتظرهم.

علا أذان الفجر ولم يصلوا إلى حل، كل الطرق مسدودة والوقت ضيق للغاية، في يأس شديد أمسك المدير بالتيليكس الذي أرسله مكتب الوزير عقب المكالمة، وأعاد قراءته بنبرة حزينة كأنه يقرأ نعيه:

السيد مدير حديقة الحيوان بالجيزة

سرّي للغاية

تحية طيبة وبعد،،

بالإشارة إلى الزيارة المرتقبة للسيد رئيس الجمهورية محمد أنور السادات صحبة ضيف مصر الكبير السيد رئيس جمهورية كينيا خلال الأيام القليلة القادمة، يرجى التفضل بالإحاطة واتخاذ ما يلزم من إجراءات نحو نظافة ممرات الحديقة وإعادة طلاء مدخلها الرئيسي من ناحية تمثال النهضة خصمًا من بند السلفة الدائمة والإفادة بما تم في هذا الشأن، علمًا بأن برنامج الزيارة سيقتصر فقط على تفقد بيت السباع الذي يضم الأسدين اللذين تم إهداؤهما لمصر من جمهورية كينيا العام الماضي.

مع اعتبار الموضوع سري وهام وعاجل.

وتفضلوا بقبول التحية،،

2/10/1981 رئيس قطاع مكتب وزير الزراعة

- بس خلاص.. تاهت ولقيناها.

صاح مساعد المدير صيحة مماثلة لصيحة أرشميدس الذي سبقه قبلها بقرون، التفت المدير متلهفًا، فلمّا عرض المساعد فكرته قذفه المدير بمنفضة السجائر وهو يلعن أبويه وجدوده مجتمعين، ثم ضرب سطح الطاولة بكفيه وصاح غاضبًا والرذاذ يتطاير من فمه:

- ده وقت تهريج يا روح أمك واحنا واقعين في مصيبة سودا ممكن تدخّلنا السجن؟

- ورحمة أمي ما تهريج، زي ما بقول لسعادتك مسرحية شاهد ماشفش حاجة فيها كل ليلة أسدين بيطلعوا على المسرح مع عادل إمام وبيعملوا أوبريت كمان، وأسد منهم قاعد جوّاه ممثل اسمه سامي العدل، وهو جاري من شبرا بالمناسبة، وممكن أكلمه ونخلص الموضوع ويجيب زميله الأسد التاني معاه. يوم ويعدّي.

هرش المدير ذقنه، الفكرة تدور في رأسه وعقله لا يتقبلها، حتى اقترح المساعد أن يذهبا الليلة لمشاهدة المسرحية ورؤية الأسد وهو يتحرك ويزأر عبر جهاز تسجيل لكي يطمئن قلب المدير، ولمّا وجد قبولًا لفكرته من مديره قال بثقةٍ أكبر:

- أنا واثق إن سعادتك هتقتنع لمّا تشوفه الليلة على

المسرح، والباقي سيبه عليّا ما تحملش هم. ولو أي حد شاف الأسود من بعيد من غير ما تخرج من القفص مش حياخد باله.

غاب المدير في شرود طويل وبات ينظر للا شيء، عقله يدور ببطءٍ ليعرض مشاهد متقطعة يحاول تخيلها بصعوبة لهذا الممثل الشاب الذي يؤدي دور الأسد في المسرحية، وكيف سيقنعانه بأن يؤدي ذات الدور في حديقة الحيوان لليلة عرض واحدة مع أسد آخر حتى تمر زيارة السيد الرئيس.

***

عبرت سيارة نصف نقل صغيرة باب حديقة الحيوان الخلفي المطل على جامعة القاهرة، لم تخضع لتفتيش ولا كثير من الأسئلة عمّا تحمله من كراكيب امتلأ بها صندوقها الخلفي، اكتفى رجل الأمن بكلمات إسماعيل الجالس بجوار سائقها وتأكيده أنها متعلقات خاصة بمدير الحديقة مطلوب تخزينها بالاستراحة، فانفتحت البوابة، إسماعيل حارس بيت الفيل، موظف حكومي، كلامه مُصدّق، ومتعلقات المدير لا يصح تفتيشها أو حتى السؤال عن سبب دخولها، وإلا خرج السائل من الحديقة فاقدًا وظيفته بسبب فضوله.

أمام الاستراحة القبلية توقفت السيارة، هبط إسماعيل وسائقها وراحا يُفرغان صندوقها من كراكيب كانت عبئًا على الأستاذ عبد الحي غزال في بيته، ضرب المحامي عصفورين

بحجر، تخلص منها وأقنع إسماعيل بوضعها في الاستراحة ليُثبت إقامته بها، وحين تأتي الشرطة وتُعاين ستجد عفشًا قديمًا متهالكًا، ووقتها يُثبت بالمحضر أنه يُقيم من أيام أبيه وهذا العفش يخصه.

عندما رفع السائق القطعة الأخيرة من العربة، مرتبة سرير عريضة، ظهرت عايدة أسفلها راقدة على ظهرها، يحوم القلق حول وجهها منافسًا الذباب الذي تزايدت أعداده قرب الاستراحة بسبب وجود مقلب قمامة وراءها.

هبطت عايدة بصعوبة، راحت تحرك ذراعيها وساقيها بعدما شعرت بتيبس خفيف من جراء رقدتها أسفل الكراكيب، أخرج إسماعيل جنيهًا إضافيًا فوق الأجرة تحصل عليه من عبد الحي غزال، لكي يُساهم في محو فضول السائق من وجود عايدة بصندوق السيارة، وفي الوقت ذاته ينخرس لسانه عن رواية ما رأت عيناه.

قبل اكتمال الفرحة بدخول مسكن الزوجية، اكتشفا وجود قفل كبير يُزين باب الاستراحة، نظر لعايدة محبطًا فاقترحت كسر الباب طالما نويا الإقامة الجبرية، حاولا لنصف الساعة فلم يفلحا، الباب حديدي قديم مصنوع بذمة من أيام العهد البائد، جلسا على بابها محبطان لاهثان، وغفلا عن أن محاولات الكسر أحدثت جلبة استدعت على أثرها حُرّاس الحديقة، كان من الطبيعي بعد سماع أقوال الخطيبين غير المترابطة أن يصطحباهما لمكتب المدير تحت التهديد بإبلاغ الشرطة لينظر في أمرهما المريب، بعدما ظن الحراس أنهما

كانا ينويان ارتكاب فعل فاضح في حديقة الحيوان، ولم يقتنعا بدفاع إسماعيل المستميت أنه وُلد في هذا المكان وعاش فيه غالبية عمره.

- قول تاني كده..

أشعل المدير سيجارة ثالثة وهو يتفرس في وجه إسماعيل، فقط اكتفى بهز رأسه دون أن يقاطعه هذه المرة حتى انتهى، بدا مثل مخرج سينمائي يحاول تسكين البطل في دور معين ويتخيل كل مشاهده في الفيلم على التوالي، بعدها فرك كفيه ونهض من كرسيه واصطحب إسماعيل وعايدة لتفقُّد الاستراحة التي كان يريد دخولها عنوة والسكن فيها امتدادًا لإقامة المرحوم أبيه.

طوال الطريق لم يتوقف إسماعيل عن الاعتذار، محاولًا شرح أن فكرة استرداد حقه بهذه الطريقة تخص محاميه وأنه إثباتًا لحسن النية لم يكسر باب الاستراحة وتراجع عن فعله معلنًا ندمه، لكن كلما طال صمت المدير كبرت مخاوف إسماعيل حتى ابتلعته، فقال بنبرة تشحذ الرجاء:

- يا سعادة البيه أنا يمكن غلطت لكن كل همي ألاقي مكان أتجوز فيه عايدة مؤقتًا، إنشالّه تسمح لنا نقعد في الاستراحة أسبوعين أو تلاتة نسكّت بيهم أهل خطيبتي، وبعدها نتنقل لبيت عمي ونقول إننا انطردنا ويبقى أمر واقع.

اقتربوا من الاستراحة والمدير لا يزال ملتحفًا بصمته، مكتفيًا بابتسامة غامضة، أدار المفتاح في القفل بعدما مسح

طبقة غبار تكسو فتحته، دفع الباب فسمعوا صريرًا مخيفًا كأنهم يدخلون بيتًا مهجورًا في أحد أفلام هيتشكوك، أضاء المدير مصباحًا يتيمًا وسط الردهة ليرتفع سعال إسماعيل وتدمع عينا عايدة من الأتربة، حاولت رفع ملاءة من فوق أريكة فوجدتها عرجاء بثلاثة أقدام، ورفع إسماعيل غطاءً آخر فرأى ثلاجة أبيه القديمة وبابها مخلوع منها، ذات الثلاجة التي كانت أمه تعاقبه لتركه بابها مفتوحًا، نظرا حولهما في دهشة من الأشياء التي تحيط بهما وكأنهما دخلا مقبرة فرعونية تُفتح لأول مرة، لكنها لا تخص ملكًا من الملوك، عشرات من قطع الخُردة وإطارات قديمة تبدو لعربات نقل، أدوات حديدية ضخمة يُغلفها الصدأ، مئات من المقاعد المحطمة والمكاتب المتهالكة متناثرة بعشوائية أحدها عليه كاب صغير غيّب الغُبار لونه، ربما كان أحمر، دمعت عين إسماعيل لمّا وقعت عليه، ثم لمح فوق منضدة صورة بالأبيض والأسود لأبيه بالزي الرسمي لحراس الحديقة داخل بيت الفيل، فتجاهلها، أشارت عايدة وهي تتراجع للوراء إلى خيوط عنكبوت تتدلى من السقف لتلتحم بالأرض فيحتار المرء بين أولها وآخرها.

أشعل المدير سيجارة وهو يخطو ناحية الباب قائلًا:

-زي ما أنتم شايفين يا ولاد.. أنا لو عليّا أوافق على طلبكم من غير قضايا ولا محاكم، لكن الحكومة منعت المبيت والإقامة الدائمة في الاستراحة بقرار رسمي من حوالي عشر سنين بعد حكاية أبوك مع الأسد إيّاه، ومن يومها اتحولت

لمخزن وكل اللي فيه عهدة، يعني قضيتكم خسرانة من قبل ما ترفعوها.

ترددت كلمات المدير كالصدى في أذني إسماعيل، بينما ظلت عين عايدة تدمع في صمت، حتى وضع المدير كفه فوق كتفيهما قائلًا بودٍّ شديد:

- إكرامًا لأبوك يا شمعة أنا مش حاخد إجراء قانوني ضدكم، هعتبرها وَزّة شيطان وراحت لحالها، دلوقتي تقدروا تروحوا البيت وكراكيبكم حنحطها في الاستراحة مع إخواتها، وإنت خُد لك أجازة النهاردة تريح أعصابك وترتاح، وسيبك من أفكار الأستاذ غزال، وأنا من بُكرة ححل مشكلتكم بإذن الله.

مضيا عائدين من حيث أتيا، حمل إسماعيل صُرّة ملابس قديمة نوت عايدة نشرها على حبل الغسيل كما خطّط لهما عبد الحي غزال. قُرب البيت صعدت عايدة لشقتها باكية محبطة لا تعول على وعد المدير، في حين توجّه إسماعيل متفائلًا إلى المقهى. لم يجد عبد الحي غزال بمكتبه في تلك الساعة المبكرة، فجلس ينتظره واضعًا الصُّرّة على مقعد آخر وطلب كوب شاي وإفطارًا، رماه صبي المقهى بنظرة تحدٍّ وهو يعبث بالعملات المعدنية بجيب مريلته محدثًا جلبة مزعجة قائلًا بصلافة:

- لا مؤاخذة يا دكتور الطلبات بفلوس طول ما الأستاذ عبد الحي موش موجود في المكتب.

تقبّل إسماعيل سخافة الصبي بكل أريحية، ذهنه مشغول

بما هو أهم، يشعر بالفخر لكونه من مواليد حديقة الحيوان، يريد أن يخبر الجميع بمكان ميلاده الذي ظل يحرص على إخفائه سنوات طويلة، بلغ حماسه مداه حتى خطر له أن يعلق شهادة الميلاد على جدران الاستراحة عندما يسكن فيها بعد أيام قليلة مع عايدة، لا شك عنده أن مديره سوف يُخلي المخزن ويعيد الاستراحة كمسكن، ويستصدر قرارًا لأجله من وزير الزراعة وربما رئيس الجمهورية لو لزم الأمر لإعادة الحق لأصحابه، المسألة مسألة وقت فقط، صحيح لم يعده المدير بشيءٍ محدد، لكن قلبه يخبره بأنه في طريقه إلى الإقامة بحديقة الحيوان قريبًا.

أنهى إفطاره ومزّق حافة قصاصة من الجريدة التي تغلف أرغفة الفول، صادف إعلانًا لفيلم "الشيطان يعظ" المأخوذ عن رواية لنجيب محفوظ، فكتب فوق الإعلان كلمات قليلة لمحاميه عبد الحي غزال يرجوه فيها التأجيل وعدم اتخاذ أي إجراءات قانونية ضد حديقة الحيوان.. واختتم بعبارة: "الصلح خير".

***

بدا الصباح التالي مريبًا، كل شيءٍ مختلف عن ذي قبل، حتى الطقس تبدلت أحواله ومال للغيوم فجأة. ما إن عبر إسماعيل بوابة الحديقة الرئيسية حتى وجد ساعي المدير ينتظره بلهفة وقلق، بصحبته حارس بيت الفيل مبتسمًا ابتسامة غير مريحة، معلنًا أنه سيزيح الخراء كله بدلًا منه، ثم رفع الشوكة عاليًا ليؤكد على صدق كلامه.

سار إسماعيل وسطهما متوجسًا، حتى قطع عليهم الطريق مساعد مدير الحديقة، صافحه في ودٍّ مبالغ فيه، ثم همس بأن المدير ينتظره قرب الاستراحة الشرقية منذ نصف الساعة، ولمّا غمرت الفرحة إسماعيل انتحى به المساعد جانبًا وهو لا يزال محافظًا على همسه:

- حظّك حلو يا شمعة.. المدير عاوزك في مصلحة مستعجلة تقدر بعدها تتجوّز وتحل مشكلتك مع نسايبك.

هرول إسماعيل نحو استراحة المدير بلا تفكير، لا تدور برأسه سوى فكرة واحدة أن المدير جهز المكان لكي يكون صالحًا لزواجه من عايدة.

أدخلوه بغير استئذان، واستقبله المدير بوجهٍ بشوشٍ طالبًا من الساعي عدم إزعاجهما، ثم جلس بجواره على أريكة جلدية قديمة خرج باطنها من مقاعدها معلنًا انتهاء عمرها الافتراضي، وقال:

- أنا وقفت جنبك يا إسماعيل وعينتك في الجنينة، والنهارده جه أوان رد الجميل.

تبخّرت فرحته وكبرت مخاوفه في آن، لاذ بالصمت انتظارًا لمصيبة لا يدري أبعادها، ساوره شعور بالندم على سرعة تنازله عن القضية، تذكر أن محاميه عبد الحي غزال اتصل به ليلة أمس بعدما قرأ رسالته، عارض الفكرة وصمم على رفع دعوى مستعجلة، لكن إسماعيل صمم على طلبه ونهره، أوشك أن يُذكّر المدير بالتنازل عن القضية لعله يعتبره صنيعًا جميلًا

وبالتالي لا يطلب منه شيئًا آخر، لكن المدير ابتسم فجأة وهو يربت كتفه، ثم نهض ودار حوله حتى استقر خلفه وقال وهو يميل على رأسه:

- سيادة الريّس جاي بعد كام يوم يزور الجنينة، وكلها يومين ونمنع دخول الناس استعدادًا للزيارة، اللقطة الرئيسية حتكون عند بيت السباع، وإحنا في أزمة كبيرة ماحدش غيرك يقدر يخرّجنا منها.

- الريّس مين؟

- هية البلد فيها كام ريّس.. ما تصحصح معايا يا إسماعيل.. رئيس الجمهورية أنور السادات.

تفرس في وجه مديره والدهشة تنسكب من ملامحه حتى أغرقته، فأردف الرجل بنبرةٍ حزينة:

- المشكلة اللي بتواجهنا حاليًا إن الأسدين اللي كانوا حيلتنا ماتوا، ربنا يجازي ولاد الحرام، وزي ما إنت عارف الزيارة رسمية والموضوع يخص شمعة البلد يعني لازم نلاقي حل، للأسف الوقت ضيق وما نقدرش نشتري أسود بسبب الميزانية، ففكرنا نتفق مع ممثل جديد لابس جلد الأسد في مسرحية، لكن بعد ما اتفرجت على العرض وعجبني الدور وصدّقت إنه أسد تراجعت غصب عنّي.

نظر له إسماعيل بعينين تحاولان التشبث بأي خيط من الخيوط التي تسدل أمامها فلا تفلح.

أردف المدير بنبرة خفيضة:

- بصراحة أنا اضطريت أبلّغ جهة سيادية بالموضوع لأنه أكبر منّي ومنّك، قالوا بلاش حد غريب يدخل فيه، ولمّا عرفوا إنك من مواليد الجنينة اختاروك فورًا وقالوا يعمل أسد وتكافئه بعدها وتشوف موضوع الاستراحة لأن له حق فيها، وأنا قُلت لهم إسماعيل لا يمكن يقول لأ لمصر أبدًا.

خرج إسماعيل من مكتب المدير هائمًا لا يلوي على شيء، مشكلته ليست فيما طُلب منه بقدر ما هي في إقناع عايدة بالموافقة، ليلتها خرجا سويًا، لم يذهبا إلى "لاباس" لأول مرة، اقترح عليها التمشية بجوار سور حديقة الحيوان التي بدت معتمة، تمتد ظلال أقفاصها على ضوء مصباح بعيد فتبدو كأسياخ طويلة على وشك أن تخترق صدره، وبينما هو منهمك في الحكي حتى تعرف ما هو آتٍ في مصيرهما، توقفت سيارة سوداء بالقرب منهما، هبط منها مساعد مدير الحديقة محييًا عايدة باحترامٍ زائد، موجهًا كلامه لإسماعيل بنبرةٍ تحمل كثيرًا من اللوم:

- إنت فين يا دكتور؟ دوّختنا وراك من البيت لقهوة بَغرة لغاية هنا.

لم يُجبه إسماعيل وظل محافظًا على دهشته حتى باغته مساعد المدير قائلًا:

- تعالى كلم سعادة البيه في العربية عاوز يقولك كلمتين.

كالسائرين نيامًا مضى إسماعيل خلفه، ظن أن المدير

بالسيارة، لكن ما إن اقترب من نافذتها الخلفية وانخفض زجاجها حتى لمح وجهًا غير مألوف له، رجل جَهم الملامح، ثبّت نظره في عينَي إسماعيل، ومع ذلك تحدث بنبرةٍ ودودة:

- مش محتاج أوصّيك يا دكتور إسماعيل.. شِد حيلك وماتكسفناش، وربنا يتمّم لكم بخير، بس لازم تعزمونا في الفرح.

لم ينتظر الرجل ردًا مكتفيًا بإطلاق ضحكة عالية، قفز مساعد المدير في المقعد الأمامي وتحركت السيارة ليعود إسماعيل إلى عايدة محملًا بمزيدٍ من الدهشة، هذه المرة تخيّر عباراته بدقة، وضع مقدمة رومانسية عن حلمه في أن يجمعهما قفص واحد بالحديقة، ثم أفهمها أن هذا الرجل الجهم لا بد وأنه من الجهة السيادية التي تشاور معها المدير، ومؤكد أنهما مراقبان، ولا مفر من تنفيذ المهمة، ظلت تنظر له ذاهلة وهو يستكمل بنبرة تخرج من روح جريحة، مقهورة، مجبرة. لم تلن عايدة، احتدت عليه، وعلا صوتها ثم هدأت وشردت، بعدها تقلبت ملامحها، ظلت تتنابها حالات من عدم الاتزان والهدوء المباغت متتالية، ولمّا لمس منها رفضًا لا فكاك منه في نهاية المطاف، وشعر باستحالة عودتها لطبيعتها، أشار إلى ضوء المصباح البعيد ناحية بيت السباع، وقال بنبرة يائسة وسط دموع لم يستطع منعها:

- ده بيتنا يا عايدة.

ثم أردف بصوتٍ خفيض: "مؤقتًا".

***

5

أنثى الأسد

ظل عمه يكرر تفاصيل الزيارة الرئاسية كشريط تسجيل أصابه العطب، وفي النهاية تمايل هاتفًا كواحد من جمهور الست أم كلثوم:

- الله الله! فكرة ما تخُرّش المَيّة يا أبو السباع.

ظن إسماعيل لوهلة أن عمه فقد عقله، وأن تلك أعراض الخرف وهلاوس بدايات الجنون، لكن مع تكرار الحكاية فهم أنه يسخر منه باعتبار أن الأسدين النافقين ذكر وأنثى، سيوضع رأس فوق دماغه والثاني لعايدة، سيدخلان في الجلد الذي تم شراؤه من مكان دلهما عليه الممثل سامي العدل، ويمر يوم بليلة وبعدها يتحصلان على المكافأة، ألف جنيه كاملة لا تنقص مليمًا، ويحصلان على إقامة باستراحة حديقة الحيوان كما وعده المدير.

قفز إسماعيل فوق سياج السخرية برشاقة، الفكرة تروق له وعقله يتقبلها من أول مرة عُرضت عليه فيها، ألف من الجنيهات ثروة تمكنه من فعل الكثير، طبيب بيطري بعيادة خاصة على تخوم محافظة الجيزة، وسداد مقدم شقة بالإيجار لو فشل المدير في تجهيز الاستراحة، وربما سيارة سيات إذا تحسنت الأحوال.

بعد معاناة مع الحرارة توصل لمهاتفة عايدة، رجاها لمرة

أخيرة أن تسمعه، عرض خطته الأخيرة، لن يعرف أحد بمكانها، يمكنها إخبار أهلها بأنها سافرت مع صديقاتها إلى الإسكندرية، ولأن التليفونات أغلب الأوقات معطلة لن يقلقوا عليها ولن تتأخر هي في العودة إليهم، ستنتهي الزيارة ويعودان بالنقود، وفي الليلة ذاتها يتقدم بمهر وشبكة وتظل ذكرى بيت السباع سرًّا بينهما يضحكان عليها إلى الأبد، بل ويحتفلان بعيد زواجهما في حديقة الحيوان مثل يوم مولده.

ظلت عايدة على الناحية الأخرى من الخط صامتة حتى ظنها أغلقته، فجأة قالت عقب تنهيدة طويلة:

- أنا مش عارفة أفكر ولا آخد قرار لكن المبلغ كبير ومغري في يوم وليلة ولا مصباح علاء الدين.

- أنا مش عاوز أضغط عليكي، ولو مش مقتنعة أنا هعملها وأشوف أي حد يلبس الجلد التاني علشان أبقى معاكي بقية حياتنا.

- أرجوك بلاش الطريقة دي.. أنا من جوايا نص موافقة لكن..

خرجت منها الكلمة بطعم التردد، لكن إسماعيل تشبث بها ووضع السماعة منهيًا المكالمة معتبرًا أنها وافقت.

***

عبرا بوابة الحديقة ببطء، تتردد عايدة في مشيتها كأنها

تعود للوراء، تجاوزا الجبلاية وأبطأت عايدة من خطواتها عند أقفاص العصافير حتى بدت وكأنها تمشي في مكانها، وقفت تناجيهم بهمهمة لم يسمعها إسماعيل، فظن لوهلة أن عايدة فقدت بعض صوابها، عيناها تائهتان وكلماتها غير مترابطة، حركات يديها كثيرة على الرغم من أنها بطيئة، أطبق بيده على كفها وراح يجرها خلفه حتى وصلا حديقة الشاي، أمضيا الوقت صامتين كتمثالين، وكل حين يرفع الجرسون الفناجين بالشاي البارد من أمامهما ليأتي بغيرها حتى حان موعد الغروب.

دوت صفافير الحراس منبهة الناس كي يتوجهوا إلى باب الخروج، وتسلل إسماعيل وعايدة من باب خلفي يُفضي إلى رواق حجري ملتوٍ للغاية حتى تحتار فيه الأفعى، في نهايته وجدا مكتبًا آخر لمدير الحديقة لكنه لا يجلس فيه عادة. رحّب بهما كأنهما ضيفان عزيزان يزورانه لأول مرة، اصطحبهما في ظلمة ما بعد الغروب من مكتبه إلى مكان التنفيذ، في حين لا تزال عايدة تجر قدميها وإسماعيل يجذبها من ذراعها كأنها تُساق إلى مقصلة، وعندما شعر المدير بترددها وساوره شك في مقدرتها على المغامرة توقف بمنتصف الطريق، أخذهما بعيدًا عن شاهديه، مساعده وحارس بيت السباع، واقترب من عايدة متحدثًا بنبرةٍ جادة:

- إوعوا تفتكروا يا ولاد إني مش خايف عليكم والا بتصرف من دماغي وحدي، زي ما شرحت لك يا إسماعيل فيه جهة سيادية عندها خبر بالموضوع وبيتابعوا معايا لحظة بلحظة

لأنه يمس الأمن القومي، وامبارح سيادة العميد قابلك على ما أظن، مش كده؟

أومأ إسماعيل بالإيجاب وهو ينظر لعايدة بفخر أن الجهة السيادية تتابعهما باهتمام. استرسل المدير:

- الزيارة مهمة للبلد وإنتم بتعملوا عمل كبير أوي، ماتخافيش يا عايدة إنتي زي بنتي، والموضوع هيخلص في يوم وليلة زي ما وعدتكم.

خدرت كلماته عايدة، أما إسماعيل فلم يكُن يرى ويسمع من حديث المدير سوى الألف جنيه التي وعده بها، مئة ورقة فئة عشرة جنيهات حمراء كبيرة، وبعدها لا يهمه أن يكون أسدًا أو قردًا أو حتى حمارًا.

سارت عايدة في صمت كجارية مطيعة، ووراءها إسماعيل والحارسان في المؤخرة، وصلوا إلى باحة الاستراحة الخلفية ثم دلفوا مبنًى صغيرًا أشبه بمخزن قديم، تحسسوا خطواتهم على ضوء بطارية كي لا يلفتوا الأنظار.

وقعت عيون عايدة وإسماعيل على زِي الأسدين، كانا مُعلّقين كذبيحة بدكان جِزارة، الرأسان منفصلان والجلد مُفرّغ، أنزلهما حارس بيت السباع ووضعهما على منضدة معدنية معوجة، سرت في جسديهما رهبة، وشعر إسماعيل من ملمس كف عايدة أنها ترتجف، لم يُعطهما المدير فرصة كي يخافا وراح يستعجلهما، دخلا بصعوبة في الجلد المصنوع على عجالة وكأنهما يقيسان ملابس ضيقة عليهما،

حاول إسماعيل شفط بطنه قدر الممكن ليدخل بطن السبع، بينما تلوت عايدة بجسدها وهي تنزلق داخل الجلد كلاعبة سيرك مخضرمة، بعد معاناة نجحا، ثم استلقيا لاهثَين، تولى المدير والحارسان إحكام غلق السوستة لكلٍّ منهما، استعصت في البداية ثم لانت عندما مرر أحدهم فوقها صابونة كي تنزلق، عاونهما المدير على النهوض، وأمرهما بالسير أمامه على أربع في دوائر وهز رأسيهما كل حين، وجدا صعوبة في البداية بسبب ارتفاع نصفهما السفلي بصورة ملحوظة، وضعوا أمامهما مرآة كبيرة ليريا صورتيهما فيها، بدت مؤخرة كل منهما عالية نوعًا ما، لكن الرأس يبدو لأسد حقيقي من فرط دقة تفاصيله، بعد قليل ظهرت مشكلة عندما لم يفلحا في السير على أربع بسهولة، ثم تأففت عايدة من رائحة الجلد المدبوغ، زاد ضيقها وبدت كلبؤة شرسة على عتبة الخروج من جلدها، اقترب إسماعيل منها هامسًا: "الأمر سيمر"، ثم دار حولها ووقف بالقرب من مؤخرتها وتشمَّمها، صفَّق الحارس لإجادته التقمُّص وابتسم المساعد مُشجِّعًا، بينما ظلت عايدة تنظر له نظرة جامدة، وربما كانت تلعنه من وراء القناع، لا أحد يدري.

رغم كل الجهود المبذولة من إسماعيل وعايدة كي يكونا حيوانين بالفعل، بدا المدير غير راضٍ عن أدائهما، تبادل همسًا مع معاونيه، كان قلقًا من صعوبة المشي على أربع بسبب ضرورة ثني الركبتين رغم وجود جيب داخلي واسع بالزِّي يسمح بإدخال الساق مثنية فيه، قبل أن يُحبطا من كلامه

اقترح عليهما جلسة أسدَي قصر النيل، منبهًا أكثر من مرّة بعدم الخروج من البيت أو الاقتراب من سور القفص الأمامي حتى لا يُفتضح أمرهما، تداول مع مساعده وحارس بيت السبع في الفكرة، أيّده المساعد وامتنع الحارس عن إبداء الرأي بلا سبب، في حين تبادل إسماعيل مع عايدة نظرة خاطفة فهزّت رأسها بالموافقة، وكأنها تنشد الخلاص بعدما غلّفها اليأس.

توجّها نحو قفص الأسود سيرًا على أربع لعل وعسى ينجحان كما اقترح إسماعيل في محاولة أخيرة لإثبات الكفاءة، بينما راح المدير يتأكد أن الفتحات الضيقة الصغيرة بالجلد عند العين والأذن والأنف تسمح بالرؤية والسمع مع تنفّس مقبول، ثم طوى جريدته تحت إبطه وأعطى الإشارة لحارس بيت السباع بالانطلاق معهما مودعًا:

- على بركة الله يا ولاد، وماتنسوش قرفصة أسد قصر النيل، ربنا ما يوقعكم في ضيقة وكله علشان مصر.

مضى إسماعيل وعايدة خلف حارس بيت السباع في طريقهما للقفص، وهما يتلفتان كل حين حولهما ووراءهما مذعورين، وكأنهما أسدان ضالان ومُطاردان.

***

6

تجدها في أقفاص

كل شيءٍ سار كما خُطِّط له بدقة، دخلا بيت السباع ولم يخرجا إلى باحة القفص، بعد نصف ساعة نفد صبر عايدة، ظلت تروح وتجيء بعصبية حتى تعبت واستلقت في ركن معتم، فشلت محاولات إسماعيل في إعادتها لطبيعتها وشعر بدوار فتمدّد بجوارها، ناما لساعات قصيرة، وفي الصباح ظلّا ممددين بالغرفة الداخلية لا يظهران لزوار الحديقة، تولدت لديهما رهبة منهم، لكن من حُسن الطالع أن الزوار قليلون اليوم، وكلما اقتربت عائلة ليرى أطفالها الأسود أفهمهم الحارس أنها تستريح، لكنهم مع ذلك لا ينصرفون، لمحهم إسماعيل من مكمنه يتابعونه من بعيد وبعضهم ينادي عليه، مع مرور الوقت وتكرار النداء بدأ يتعود أنه صار حيوانًا، حاول إقناع عايدة بالانغماس في المغامرة بدلًا من الاستسلام للتوتر، ذكّرها لمرة ثالثة وربما رابعة بأن بعد يومٍ واحدٍ سيكتبان الكتاب وتصبح زوجته، لكن وجه اللبؤة الذي يغطي ملامحها بدا حزينًا، فلم يعرف شعورها الحقيقي حتى نطقت:

- أنا تعبت ومحتاجة أفرد جسمي.

قالتها واستلقت على جنبها مثل لبؤة مُجهدة من رحلة قنص طويلة المدى، تمطعت ثم بسطت أطرافها الأربعة، وربما أغمضت عينيها من تحت القناع الذي ترتديه.

قرب الحادية عشرة صباحًا فوجئا بهرج شديد، نهضت عايدة متوترة متحفزة، ظنًا أن الضيف المنتظر وصل، راحا يتعرقان داخل جلديهما، ثم ضرب ارتباك مفاصلهما، دار بخاطر عايدة أنها سترى الرئيس السادات لأول مرة من مسافة قريبة، لكن بعد قليل اكتشفت أنها زيارة مدرسية روتينية لتلاميذ في المرحلة الإعدادية، الزّي يشي بأنهم تابعون لمدرسة حكومية، تذكر إسماعيل الزيارة التي قام بها مع المدرسة للحديقة منذ سنوات بعيدة، وكيف كان هو في استقبال التلاميذ عند البوابة الرئيسية كأنهم ضيوف عليه في بيته، كان يرتدي وقتها زِيّ مُروّض الأُسود البرتقالي الذي فصّله له أبوه لدى ترزي في العتبة بمناسبة عيد ميلاده، ووضعت أمه بعض الأصباغ على وجهه مؤكدة أن هيئته سخيف الأسد، التقطت له صورة بعدها ظلت ذكرى حزينة محفورة بقاع ذاكرته، ففي اليوم التالي حدثت الفاجعة والتهم سبع البرومبة أباه، ومن يومها لم يرتدِ الزّي مرّة ثانية، لكن بقيت الصورة معه.

قبل جذب خيط الذكريات الحزينة لنهايته تسلق تلميذ سور القفص بجرأة يُحسد عليها، راح ينادي عايدة كي تقترب، فنظرت لإسماعيل حائرة، وكأنها تسأله بعينيها: "ماذا أنا فاعلة؟"

أشار برأسه ناحية السور لتستجيب وينتهيان من هذا العبث، لكن التلميذ انتقى بعناية ألفاظًا نابية ناداها بها وسط ضحكات وتشجيع زملائه، ثم رماها بحجر وهو مستمر في

سبابها بلا سبب مفهوم، تراجعت إلى داخل بيت السباع مذعورة، زاد هياج التلاميذ، اعتبروا أنهم انتصروا عليهما في موقعة الأسد، وقذفوهما بسيل من حجارة لا ينتهي، إلى أن دخل الحارس من الباب الخلفي منزعجًا، همس لهما أنه في طريقه لتشغيل صوت الزئير بعدما فقد السيطرة على التلاميذ الذين انتابتهم حالة هياج غريبة وراحوا يتسلقون سور القفص بشجاعة كأنه قفص طيور داجنة.

مع بدء الزئير تسمّر التلاميذ في أماكنهم، ومع إطلاق الزئير الثاني راح بعضهم يهبط بهدوءٍ من فوق السور، يظللهم صمت الخوف، وتجذبهم الرهبة إلى أسفل، لكن عندما أطلق الحارس الزأرة الثالثة رافعًا من درجة الصوت حدث تأخير غير متوائم مع حركة فكي عايدة وإسماعيل، ثم دوت صفارة غريبة أشبه بمواء قطة، كاد الأمر يتحول لموقف عبثي، مع ذلك انطلقا غير عابئين بكشف أمرهما، ومؤخرة كل منهما مرتفعة قليلًا عن ظهره، ظلّا يعدوان على أربع في خطوط متعرجة باتجاه أسياخ القفص، صرخ بعض التلاميذ من الهلع لمّا شاهدوا الأسدين قادمين نحوهم، سقط مَن سقط على ظهره، وجرى آخرون وهم على صراخهم باقون، وبال أحدهم في مكانه على نفسه وكأنه التصق بأسياخ القفص، لم يستطع إسماعيل كتم ضحكاته، لكن عايدة فجأة أشاحت بوجهها وهرولت إلى داخل بيت السباع بسرعة، ولمّا التفت إسماعيل إلى حيث كانت تولي بصرها وجد تلميذًا كشف عورته، وراح يُشير لها نحو عضوه الذكري ويناديها بلقبها لتقترب إن كانت

شجاعة كما تدعي.

فتح إسماعيل فكيه مع استمرار صوت الزئير الذي يشغله الحارس عبر مُكبِّر الصوت، شعر برغبة عارمة في افتراس التلميذ، ورغم أن الصوت لا يتفق مع حركة فم إسماعيل، لكن ما إن شاهده التلميذ قريبًا منه حتى أحس بقرب نهايته، ولا بد ظن أن بإمكان هذا الأسد الجسور كسر القفص وملاحقته، فهرول وهو يحاول لملمة ملابسه، ومن فرط خوفه تعثر في استعجاله وسقط عنه بنطاله، بعدها تعالت ضحكات زملائه وبدأوا يقذفونه وحده بالحجارة.

أنزل إسماعيل كفيه المستندتين على القفص وعاد ليطمئن على عايدة، فهمست له بنبرةٍ حزينة:

- أنا مش فاهمة وافقتك إزاي على الجنان ده؟ أنا خايفة يا إسماعيل وحاسّة بإهانة، لازم نمشي فورًا.

شعر بأنها تبكي من خلف الرأس الذي ترتديه، اقترب منها رافعًا ساقه الأمامية اليمنى وربت رأسها بكفِّه في صعوبة حتى خاف أن تتمزق عضلاته، أطرقت عايدة قليلًا، ثم قالت بنبرةٍ غاضبة:

- أنا عاوزة أمشي أرجوك.

- للأسف مش ممكن نخرج من القفص. أرجوكي استحملي الليلة بس.

بكت عايدة بصوتٍ عالٍ، ثم راحت تحبو إلى ركن بعيد

وهناك قرفصت، تركها إسماعيل لبرهة ثم اقترب حتى تلامسا، لا يعرف إذا ما كانت تشعر به أم يمنعها جلدها الذي يُغطي جسدها كله، لكنها التصقت بجسده كقطة خائفة، ولو رآهما زائر وقتها لظنهما حيوانين أليفين. طمأنها أنهما في الأمتار الأخيرة لسباق الزواج، على مرمى حجر من السعادة والخلاص من الكابوس، لانت عايدة إلى حدٍّ ما، وبدأت تستجيب لكلماته بحركات جسدها رغم الجلد السميك والعين ذات النظرة الجامدة المثبتة برأس اللبؤة.

قضى ليلته ساهرًا كأسد حقيقي يحرس أنثاه، مع أنه يحمل بين ضلوعه قلب عصفور يرفرف في فضاء الخوف من عواقب الظروف التي أدخلته القفص، غفا بعد الفجر وأيقظته عايدة قبل الظهر، أشارت برأسها ناحية سور القفص الأمامي، لاحظ اختفاء الزوار وانتشار رجال الحرس الجمهوري بالقرب منه مرتدين الزي الرسمي ففهم أن الزيارة الرئاسية وشيكة، خرج لهم بخطوة واثقة تليق بملك الغابة، دار عدة دورات بساحة القفص الخارجية حريصًا على خفض مؤخرته، لكن الحارس لم يشغل الزئير المسجل والموصل بمكبر الصوت، رغم فتح إسماعيل لفكيه عدة مرات تحسبًا لتشغيله، لاحظ أن أحد رجال الحرس ينظر له بتحدٍّ، وساوره شك بانكشاف أمره لمّا طال تفرسه فيه، انتابه ارتباك خوفًا من أن يلمح الضابط موضع السوستة أسفل بطنه، نظر ناحية حارس بيت السباع رافعًا ساقيه الأماميتين حتى يفهم أنها الإشارة المتفق عليها بينهما، تحرك الحارس ناحية غرفة المبيت حيث

يوجد مُكبّر الصوت، واقترب إسماعيل بهدوء من أسياخ القفص الفاصلة بينه وبين رجل حراسة الرئيس، صحيح الرجل له هيبة لكن إسماعيل الآن أسد، صار في مواجهته ثم باعد بين فكيه مع تشغيل الحارس لصوت الزئير، راح يفرك في الأرض ويتحرك بعشوائية، بدا كأسد وديع في سيرك لا كسبع محبوس بقفص يثور لأتفه سبب، على الرغم من ذلك انتفض رجل الحراسة وتراجع للوراء، ثم نهره مَن هو أعلى منه رتبة ليتوقف عن إثارة الأسود، فمضى بعيدًا لكنه بصق ناحية إسماعيل قبل أن يبتعد.

داخل بيت السباع انكمشت عايدة، حكى لها إسماعيل بزهوٍ ما جرى ووصله إحساس أنها تبتسم، حك رأسه برأسها وهمس: "أحبك"، ولوهلة اشتهاها، غمرته رغبة في ممارسة الجنس معها في القفص، ولولا الحراسة وانتظارهما وصول الرئيس المؤمن مع ضيفه لكان مزق جلدها بأسنانه وهو يضاجعها. عندما عدل عن رغبته وأخمدها فوجئ بعايدة تقترب منه، فيما يبدو انتابها الشعور ذاته، راحت تحك جسدها في جسده، وقبل أن يهم بها دخل عليهما حارس بيت السبع مقتحمًا العرين صائحًا:

- الزيارة اتحددت بكرة الساعة تلاتة، أنا بعد شوية هجيب لكم عصير وأقفل عليكم لغاية الصبح، والبيه المدير بيقولكم معلش شِدّة وتزول.

قالها ولم يُعطهما فرصة للرد، أو للاعتراض، أو للانسحاب، افترض موافقتهما أو خنوعهما، يدرك أنهما مُجبران لا قرار

لهما ولا رأي، مجرد حيوانات مُسيّرة، وعندما أغلق الباب وأسدلت العتمة ستارتها، أفرجت عايدة عن كل ما احتبس بمثانتها رغم أنها لم تشرب شيئًا منذ أمس، فأغرقت جلدها وصنعت حولها بركة صغيرة، انتظرت حتى جفّت، ثم جلست وسطها مطرقة رأسها بين قائميها الأماميين، خجلة من فعلتها.

***

7

بطل الحرب والسلام

نكأت عايدة كل الجراح دفعة واحدة في تلك الليلة، أفسدت على إسماعيل نومته، راحت تلومه على قبول الفكرة وإجبارها عليها، تساءلت باستنكار من أين لمدير الحديقة ألف جنيه كي يعطيها لهما؟ وكم ألفًا لديه غيرها؟ وما مصلحته في كل ما جرى لهما؟ ولماذا تتستر عليه الجهة السيادية؟

لدى إسماعيل إجابة واحدة لأسئلة عايدة كلها، مصر التي تدفع المكافأة حتى تمر الزيارة الرئاسية على خير. أعاد على مسامعها كلام مساعد المدير عن أن الأجهزة الأمنية تعرف بأمرهما، ورتبت مع مدير الحديقة كل شيءٍ حرصًا على شمعة البلد، ذكّرها بالسيارة السوداء وسيادة العميد الذي كان قابعًا بها. فجأة هزّ رأسه وكأنه لا يُصدّق نفسه ويستنكر كلامه، وانحدرت من عينه دمعة، أفضى لها بهواجسه، المدير يرتشي من موزّدي اللحوم الفاسدة التي مات الأسدان بسببها، ومؤكد أن الجهة السيادية تعلم، لكن الرئيس المؤمن لا يعلم، والجهة ذاتها تعرف أن الرئيس سيزور بشرًا يرتدون جلود حيوانات، لكن الرئيس المؤمن لا يعلم، الجهة السيادية تُدرك أن الاستراحة مهملة ومخصصة كمخزن وستهديهما شهر عسل بها وربما شهورًا أخرى، لكن الرئيس المؤمن لا يعرف. والمدير يضمن أنهما لن ينطقا بسبب احتياجهما للمال، لكن الرئيس المؤمن أيضًا لا يعلم باحتياجات وظروف مواطنيه.

سكت لوهلة ثم أخبر عايدة بوضوح باستحالة عودتهما من منتصف الطريق، قُضي الأمر بعدما اختارا مصيرهما في لحظة فارقة، قبضا عليها لمّا ومضت أمامهما، الآن صارا من الحيوانات، على الأقل حتى تمتلئ جيوبهما ببعض المال، فيتمكنا من نسيان مرارة الإهانة وساعات الذل فيما بعد.

نهضت عايدة من رقدتها وجلست كأسد قصر النيل قائلة:

- المصيبة إننا ممكن نقعد أسبوع هنا منتظرين وكل يوم يقولوا لنا بُكرة، تفتكر يعني الريِّس وقته فاضي علشان ييجي يتفرّج على أسدين في الجنينة؟

- إنتي بنفسك شُفتي الحرس الجمهوري، يعني من بُكرة مفيش هنا غير حيوانات وبس، هانت.

قرب منتصف الليل انتظمت أنفاس عايدة ونامت بعد بكاء متواصل مثل أمطار شتاء شرس، رقد إسماعيل بجوارها وسرعان ما راح في النوم، ربما لأول مرة ينامان بعُمق منذ دخولهما القفص. قرب الظهر استيقظ إسماعيل كسولًا، انتبه لاختفاء عايدة، فخرج إلى باحة القفص الأمامية، وجدها تتشمّس وتراقب بانتباه ما يدور حولها، هناك حركة غير عادية في الحديقة، عاملون يهرولون في قلق، بعضهم لم يستطع تبديل ملابس الشُغل وراح يجري في طريقه نحو باب الخروج. أفلتت من عايدة كلمات رغمًا عنها لمّا مرت عاملات من أمام القفص وهن يُسرعن الخطى، سألتهن عايدة بلهفة عمّا جرى ناسية أنها محسوبة الآن على الحيوانات،

وقفت العاملات يُظللهن ذهول مكتوم، التفتن ناحية القفص وأشارت واحدة ناحية عايدة وهي لا تُصدق أذنيها، بعد برهة تبادلن نظرات تملؤها الدهشة، ثم ضجّت واحدة بالضحك وهي تضرب المتشككة على كتفها قائلة:

- إنتي راكبك عفريت يا ولية من الخوف وبقيتي بتسمعي أصوات ويتهيأ لك إن الأسد بيتكلم.

جذب إسماعيل عايدة من ذيلها بأسنانه كي تبتعد عنهن وتصمت، لكنها حرنت وراحت تنبش أظافرها في الرمال التي تكسو أرضية القفص، لا تريد العودة لبيت السباع قبل أن تعرف ما جرى، بدت قلقة ومتوترة كلبؤة رأت فريسة وصمّمت على اصطيادها.

قرب الساعة الثانية ظهرًا ساد السكون أرجاء الحديقة، واختفى معظم العاملين، ومن قبلهم رجال الحرس الجمهوري، نهشهما القلق حتى دخل عليهما حارس بيت السبع متوترًا، أبلغهما بتأجيل الزيارة الرئاسية، ثم أخرج من جيبه ورقتين فئة كل واحدة خمسة جنيهات، مقررًا أنها مكافأة من المدير على المأمورية التي انتهت عند هذا الحد، طالبًا منهما خلع جلد الأسد وتسليمه لأنه عُهدته، وعليهما ارتداء ملابسهما والانصراف فورًا من الحديقة.

- يا مصيبتي!

صرخت عايدة ثم وثبت على الحارس فأسقطته، حشر إسماعيل جسده بينهما حتى لا تفترس خطيبته حارس بيت

السباع، راحت تضربه بقائميها الأماميين، ورغم أن جسد الحارس أكبر، إلا أن قوة هائلة هبطت عليها فجأة، وفشل إسماعيل في زحزحتها عندما بركت فوق الحارس ولطمت صدغه عدة مرات بكفها الكبيرة، صرخ الرجل حتى أتى حرّاس آخرون، ولمّا شاهدوا ما يدور أمامهم أنزل أحدهم بندقية من فوق كتفه وسحب أجزاءها وصوبها ناحية عايدة، لكنها في ذات اللحظة لمحته فوثبت نحوه بخفة وأسقطته ثم فرّت هاربة، لكن هذه المرة على قدمين كطبيعتها، ومن بعيد صاح أحد الموظفين مذعورًا لمّا رآها تمر من أمامه: "عفريت"، ، ومن خلفها كان إسماعيل يحاول اللحاق بها دون جدوى.

***

وقفت العربة أمام قسم شرطة الجيزة وهبط منها إسماعيل، بعده بقليل ظهرت عايدة، يمسك بذراعيها مخبران لتهدئتها من حالة الهياج التي انتابتها، لفت نظره أن الشرطة تولت مهمة حماية مؤخرتها هذه المرة بدلًا منه فتنهّد راضيًا، كانا لا يزالان يرتديان جلد الأسد، فقط خلعوا عنهما الرأسين، ظل يتابع عايدة حتى دخل كل منهما التخشيبة التي تخصه.

فهم إسماعيل أن تُهمتهما هي "فعل فاضح في مكان عام"، هو بيت السباع بحديقة الحيوان، ورغم كونها جُنحة بسيطة إلا أنها جريمة مُخلّة بالشرف، مع ذلك انشغل تفكيره بالحارس الذي كاد يُطلق الرصاص على عايدة وهي ترتدي جلد اللبؤة، قفزت صورة أبيه إلى ذهنه يوم وفاته، وسوس

له عقله أنه ربما كان أبوه يرتدي الزّي ذاته فقتلوه ولا وجود لسبع البرومبة الذي امتلأت الصحف بصوره لفترةٍ طويلة، حاول نفض الهاجس من رأسه فلم يفلح. أسند ظهره إلى الجدار، التخشيبة لا تفرق كثيرًا في نتانتها وقذارتها عن بيت السباع، تجاهل قدر الممكن سخرية المحتجزين من جلد الأسد الذي يرتديه، حتى تطاول عليه أحدهم لمّا عرف أن خطيبته ضُبطت معه، دخلا في شجار عنيف لم يستطع إسماعيل حسمه لصالحه، ثم اقتحم الحجز صول مهيب بأرداف كبيرة، فك حزامه الميري الطويل وبدأ يضرب في الجميع بغير عدالة، اهتم إسماعيل بحماية رأسه فتمزق جلد الأسد من ناحية مؤخرته وفخذه اليسرى من جراء ضربات الحزام العشوائية، صار غرضة للاستهزاء أكثر من ذي قبل، لكن التخشيبة هدأت كلها بعد فاصل من الضرب المبرح، وخرج الصول المهيب مودعًا المحتجزين بسباب ربما كان الكثير منهم يستحقه.

في الجانب الآخر أغمضت عايدة عينيها ونامت من فرط المجهود الذي بذلته في مقاومة حُرّاس الحديقة، تعاملت معها السجينات على أنها متهمة في قضية آداب، وحاولت بعضهن تحسس جسدها لمّا علا شخيرها، لكن الجلد السميك فشل في إثارتهن.

تقبّل إسماعيل سيجارة شاكرًا من زميل بجواره رقّ قلبه لحاله، نفث دخانها ببطءٍ محاولًا التغلب على رائحة الحجز. شرد في الأحداث التي تمر أمام عينيه كشريط سينمائي

قصير، منذ وثبت عايدة كلبؤة حقيقية على الحارس المسلح وأسقطته، وقتها صرخ زميله من الفزع وتكوم بجواره مغشيًا عليه، جرت عايدة باتجاه مكتب المدير وهرول وراءها، ضاقت المسافة بينهما وناداها لتتوقف لكنها لم تسمع سوى صوت غضبها، اقتحمت المكتب وسرعان ما كان أفراد الأمن يحيطون بها قبل أن يصل إليها، أشار المدير لرجاله كي يقبضوا عليها، ثم اتصل بالشرطة واتهمهما بممارسة فعل فاضح في بيت السباع عندما أدخلها خطيبها خلسة لمقر عمله مستغلًا وظيفته كحارس لبيت الفيل. قصة قصيرة ألّفها المدير في عجالة ووضع لها نهاية تعيسة أتت بهما إلى التخشيبة.

على غير العادة انتفضت الشرطة وأتت مسرعة للتحقيق في البلاغ، أخذ إسماعيل نصيب الأسد من الصفع والركل والسب قبل سماع أقواله، لكن الزّي الذي كانا يرتديانه، وما روته عايدة لضباط المباحث جعل القضية تأخذ منحى آخر جديدًا. ظهر ضباط آخرون أكبر رتبة وأعلى مكانة لمّا وصلهم النبأ، هيبتهم ملموسة للضرير، استجوبوا كل واحدٍ على حدة وقارنوا الإجابات، ثم أتت قوات إضافية واتجهت البوصلة نحو أمن الدولة، فتشوا أركان الحديقة بحثًا عن مفرقعات فلم يجدوا سوى بقايا الجلد الذي تم تفصيل ودباغة زِي الأسدين منه، وأخفاها حارس بيت السبع في دولاب ملابسه.

اصطحبوا إسماعيل وعايدة في سيارة وصلت بهما إلى البيت الذي يسكنان فيه، وسط زفة من أهالي الجيزة

كأنهما عروسان بالفعل، هناك جرى تفتيش دقيق لكل شبر في الشقتين وسط عويل وبكاء وصراخ أم عايدة وخالتها، وأسئلة لا تجد مَن يرد عليها من عم إسماعيل، ثم ظهر المحامي عبد الحي غزال بعدما ترك موكليه على المقهى، حاول التدخل مبرزًا كارنيه المحاماة، لكن لم يُعره أحد اهتمامًا واكتفى هو بهذا القدر، حملوا المضبوطات في كرتونة بعد تحريزها وعادوا بهما إلى القسم بعد التنبيه بتشديد الحراسة.

تلقّى إسماعيل سيجارة ثانية من زميل الحجز الذي شدّته الحكاية، لكن قبل إشعالها سمع صيحة أفزعته.

- الريّس مات.

جملة أطلقها مجهول بالقرب من التخشيبة ومضى مسرعًا، نادوا عليه ليُريح بالهم ولو بكلمة واحدة عمّا حدث لكنه لم يستجب، طرقوا الباب فلم يُجبهم مخلوق، سمعوا طرقات مماثلة من تخشيبة السيدات، حدثت جلبة بالقسم ولم تهدأ، علت أصوات تشي بأحذية ميري تهرول، وتعليمات لا تنتهي عبر أجهزة اللاسلكي التي لم تتوقف خشخشتها، وارتفع صياح الضباط في عساكرهم الذين انتشروا كالجراد في أروقة القسم، أُناس تصرخ من بعيد، وصوت قرآن يُتلى عبر مُكبّر صوت، تداخلت الأصوات معًا حتى أُصيبوا جميعًا بصمم مؤقت.

قرب منتصف الليل فُتح باب الحجز وتسرّب خيط من ضوء

مصباح سقط على وجه إسماعيل، نادى الصول المهيب ذو الأرداف على اسمه، فنهض متحمسًا، أمسك به الصول من قفاه وقال بنبرةٍ صارمة:

- إشهل شوية يا خويا، فاكر نفسك نايم في بيتكم؟

- هتودوني فين يا حضرة الصول؟

- هتروح السيرك يا سبع البرومبة علشان تكمّل النّمرة بتاعتك.

علت ضحكات المحتجزين، ثم لسعه أحدهم على قفاه عند خروجه من التخشيبة، قبل ركوبه عربة الترحيلات لمح عايدة من بعيد، خلعت جلد اللبؤة وارتدت ملابسها العادية، كانت تسير مُطرقة، تبدو باكية، بجوارها ضابط شاب لا يربطهما قيد مثلما أتت، اقتربا من إسماعيل فلم ترفع رأسها أو تلتفت نحوه، ناداها فلم ترد، حاول متابعتها لكن الصول ذا الأرداف لم يمنحه الفرصة، دفعه بعنف داخل عربة الترحيلات التي انطلقت به كأنه الراكب الأخير المنتظر، وفي الطريق عرض عليه الجالس بجواره مشاركته الطعام، التهم إسماعيل شقّة الفول من جوعه، ومارس هوايته الأثيرة بقراءة ورقة الجريدة بعدما انتهى من طعامه.. قرأ خبرًا على نصف الصفحة يحمل تصريحًا لوزير الاقتصاد يؤكد فيه أنه لن ينزعج حتى لو وصل سعر الدولار بالسوق إلى جنيه مصري واحد.

***

8

مثنى مظلوم

ينحت الخوف أخاديد عميقة في روح إسماعيل، ويضرب بمعوله في جسده بغير رحمة، يفتته فلا يقوى على جمع شتات نفسه، تتأرجح أفكاره في زورق قلقه، ويضيق عليه بحر الحيرة كأن السماء انطبقت فوقه، عقله مُكبّل بقيود الرهبة، والنور يبتعد عن بصره، تغمره العتمة وتنال منه الخسرة.

وضعوا عصابة سوداء عريضة على عينيه، وساروا به في رواق لا نهاية له، فبات يخاف من دبيب خطواته عندما أيقن أنه ذاهب لحتفه. في نهاية الرواق حجرتان، تجلس عايدة في الحجرة اليمنى بوجهٍ باكٍ وملامح مضطربة، كبحرٍ صاخبٍ لم يغد لهدوئه بسبب النوات التي تلاحقه كل حين. لا تختلف عايدة عن إسماعيل، أحبّت الحياة وأرادتها بسيطة، عادية، بلا طموح، قبلت كل ما أتى به القدر راضية، وسعت وراء حلم بلا طمع، حتى أفاقت على كابوس.

انفتح باب الحجرة اليسرى، تلمّس إسماعيل طريقه بالكاد وراء مخبر يقوده لمذبح، تركه جالسًا فوق مقعد خشبي، وفي اللحظة ذاتها ترك إسماعيل دموعه تنهمر، وبكى كما لم يبكِ منذ وفاة أبيه.

أمضى الخمسة.. إسماعيل وعايدة ومدير الحديقة

ومساعده وحارس بيت السبع أسابيع في مبنى مباحث أمن الدولة، لم يرَ أيٌّ منهم المكان حتى يصفه عند خروجه، باتوا لا يشعرون بالوقت منذ اليوم الثالث، العصابة القماشية لا تُرفع من فوق أعينهم ليلًا ولا نهارًا حتى حاروا بينهما، بصعوبة استطاع كل منهم تمييز صوت مُحقِّقه الدائم، أحدهم هادئ للغاية كبُحيرةٍ رائقةٍ استجوب عايدة وصدّقها، والثاني بدا مثل جارٍ حميمٍ أتى للزيارة في موعد متفق عليه ليستمع إلى مشكلة خاصة لكنه لا يقدم نصيحة، وهو الذي استجوب إسماعيل، الثالث قليل الكلام، يسمح بالطعام والشراب في أي وقتٍ، وأحيانًا بالتدخين، لكنه يُهدّد طوال الوقت بالذهاب إلى الجحيم بتذكرة ذهاب دون عودة، تولّى استجواب مساعد المدير فأخرج كل ما في بطنه، في حين تولّى ضابط شاب حديث التخرّج استجواب حارس بيت السبع، ربما من باب التمرين على الاستجوابات لعدم أهمية المتهم. كان الضابط الذي تولّى سؤال المدير منحرف المزاج، أعصابه منفلتة طوال الوقت، كأنه تعرّض لصعقٍ كهربائي في أماكن حساسة من جسده، ثم أطلقوه على مدير الحديقة لكي يستجوبه، اعترف المدير من السؤال الأول أنه فاسد حتى النخاع، حكى تفاصيل كل شيءٍ ارتكبه ربما منذ تعيينه وكأنه يتطهّر من ذنوبه، شرح كيف يغش في توريد لحوم الحمير المريضة والميتة ليُقدمها للأسود، وكيف استبدل طيورًا نادرة باعها ووضع مكانها أزواجًا من طائر أبو قردان، ذكر تفاصيل الإتاوات التي فرضها على المصورين وحُرّاس الأقفاص، حدّد نصيبه من إكراميات الزائرين بدقة بالغة، وأرشد عن المكان

الذي يحتفظ فيه بأمواله السائلة في منزله عند تفتيشه، بكى كطفل سمين جائع وهو يرجو ضابط الاستجواب أن يصدقه زاعقًا:

- ورحمة أمي ما في تنظيم لقلب نظام الحكم ولا حاجة، أنا حرامي وإسماعيل واد أهبل وعلى نِيّاته.. وكان عاوز يتجوّز خطيبته أسبوع ولا اتنين في الاستراحة واستغلّينا طيبته وفهّمناه إن الحكومة متابعة وعارفة وخلينا واحد تبعنا يفهمه إنه ظابط في جهة سيادية علشان يطّمّن، والنعمة الشريفة كل اللي عملناه علشان زيارة سيادة الريّس تعدّي على خير وماتحصلش فضيحة قُدّام الضيوف الأجانب، أنا خدّام مصر يا باشا.

بعد شهرين ونصف الشهر زُفعت العصابة السوداء عن عين إسماعيل في السيارة التي تُقله للعرض على النيابة العامة، صورة الرئيس السادات كانت آخر ما رآه في قسم شرطة الجيزة قبل ترحيله لمباحث أمن الدولة، وأول ما وقعت عليه عيناه عند خروجه منها كانت صورًا كثيرة لنائب رئيس الجمهورية حسني مبارك، وما بين غمضة عين وتفتيحها صار مبارك رئيسًا لمصر وكل اللافتات تؤيده، مطّ شفتيه لكنه ارتأى حبس أفكاره في رأسه، مكتفيًا بكبائر ارتكبها كما وصف الضابط جرائمه، التهمة البسيطة في لائحة اتهاماته اختلاس مال مملوك للدولة، الأسدان اللذان نفقا بالحديقة، يشاركه فيها مدير الحديقة ونائبه باعتبارهما فاعلَين أصليين للجريمة، في حين إسماعيل مجرد شريك بالمساعدة

والاتفاق، عبثًا حاول إفهام الضابط أنه لم يختلس شيئًا ولم تكن الأسود عهدته ولا يعرف كيف تم دفنها، ولم يشترك في أي جرائم طوال حياته. لم يسمع صراخه أحد، ومن قهر الظلم ظل يردد عبارة واحدة بجنون وهو يبكي: "أنا حارس بيت الفيل"، وكلما ردّدها على مسامع الضباط ضحكوا بشدة وكأنه ألقى نكتة.

روى قصته الحقيقية فكذّبوها وطلبوا اعترافًا كاملًا، عجز عن تلفيق تهمة لنفسه، فاختاروا له واحدة مُعلّبة جاهزة، الانضمام لتنظيم الأسد الذي يهدف إلى قلب نظام الحكم وزعزعة الاستقرار، وتكدير السّلم العام، لم يجد إسماعيل ما يقوله كي يدين نفسه، حاله مثل الضابط الذي حقّق معه واتهمه ولفّق له، لا توجد لديهما معلومات عن هذا التنظيم سوى اسمه، وعجز خيالهما معًا عن الاعتراف والتلفيق على التوالي، فقرّر الضابط تقديمه للنيابة العامة قبل أن ينضج.

- أقعُد وارتاح وما تشغلش بالك بحاجة.

شعر إسماعيل من أول وهلة بتعاطف وكيل النيابة معه، عامله بإنسانية ودعاه لتناول كوب شاي وتدخين سيجارة، ثم استدعى كاتب التحقيق وفتح محضرًا.

- ما قولك في الاتهام المنسوب إليك بانضمامك لتنظيم الأسد المؤسّس على خلاف أحكام القانون والدستور ويهدف إلى قلب نظام الحكم بالبلاد؟

رغم نبرة صوت المحقق المريحة والمطمئنة إلا أن إسماعيل

تذكّر تهديد الضابط بضرورة الاعتراف أمام النيابة، تردّدت كلمات الضابط في أذنيه عدة مرات، لكن ذهنه كان خاويًا من أية اقوال، لم يتم تلقينه بعبارة واحدة، تركوا له وحده الأمر كي يرتجل بحرية ويعترف كما يشاء. أطرق قبل أن يقول بصوتٍ خفيضٍ لوكيل النيابة:

- أنا مُعترف يا فندم.

- عظيم.. ما تفصيلات اعترافك؟

بنبرة مترددة تتحسس الكلمات وتختبر وقعها على المتلقي قال:

- أنا شكّلت تنظيم الأسد بهدف قلب نظام الحكم لكن لم نبلغ غايتنا.

- لماذا؟

- لأننا حمير يا سعادة البيه.

أجابه وسالت من عينه دمعة حاول جاهدًا حبسها لكنها راوغته وانهمرت لتفك أسر بعض روحه.

رماه وكيل النيابة بنظرة عتاب قاسية، ثم عبّر بكلمات قليلة عن غضبه، مؤكدًا أن التحقيق رسمي لا يحتمل هزلًا، كاد إسماعيل يبكي ويُقسم له إنه لا يهزل وإن الضابط بأمن الدولة وصفه بالحمار فعلًا لكنه تراجع، أشعل المحقق سيجارة وقدّم له واحدة ثم عاد يسأل بجدية:

- مَن هم أعضاء تنظيم الأسد؟

فكّر إسماعيل قليلًا ثم قال:

- أنا وعايدة خطيبتي لكن دورها بسيط، ويمكن لأنها بتحبني وافقت.

- ومتى تم تشكيله؟

- بعد عام الرخاء بشهور قليلة.

تفرس فيه المحقق في شك، ثم عاد يسأل وهو يُقلّب أوراقًا أمامه:

- مَن هم أعضاء تنظيم الأسد؟

- مفيش غيرنا.

- ومدير الحديقة ومساعده وحارس بيت السباع؟

- لم يتحمّس أحد منهم.

- وهل عرضت الانضمام للتنظيم على آخرين؟

- لا.

- ولماذا؟

- لأن مفيش حمير غيرنا.

عادت نظرة العتاب تطل من عين المحقق، ثم ألقى بسؤال أخير بنبرة متململة:

- هل اختيار اسم التنظيم له علاقة بتمويل فصائل سورية معارضة لنظام السادات واتفاقية السلام؟

ضحك إسماعيل حد الشخر، ثم تماسك بالكاد محاولًا الحفاظ على توازنه وهو يسير فوق حبل الحقيقة كي لا يسقط في بئر اعترافه:

- يا فندم إحنا لبسنا جلد الأسد من غُلبنا، ونمنا في القفص من قِلّة حيلتنا، والريِّس كان جاي يتفرّج علينا من تغفيله، والأسود اللي قبلنا ماتت من فسادنا، ومن تكرار حكاية الأسد بالجرايد ظباط المباحث اختاروا الاسم لقضيتنا، حكاية الناس تتلهي فيها وتنشغل بيها، إحنا زي المواليد يا باشا محدش فينا بيختار اسمه.

سكت إسماعيل ليُجفِّف دمعًا ثم أردف:

- ولا حتى المكان اللي بنتولد فيه، أنا مثلًا مواليد حديقة الحيوان، ومن يومها مكتوب عليّا المهانة.

ندت ابتسامة خاطفة من بين شفتي وكيل النيابة وهو يقلب بطاقة إسماعيل الشخصية، لكنه لم يُعلِّق وتوقف عن الأسئلة، نهض واقترب منه، أخبره بأنه لا يصدق روايته ويعرف أنه من الكاذبين، تهللت ملامح إسماعيل واستبشر خيرًا بقرب الإفراج عنه، ربت المحقق كتفه وطمأنه مرة ثانية أنه في سراي النيابة ولا يصح اختلاق واقعة قد تؤدي به إلى حبل المشنقة بعد اغتيال الرئيس بالفعل. سكت برهة ثم قال بنبرة حازمة:

- لكن من الأفضل تعترف، يمكن تخفِّف عن نفسك العقوبة.

انتفض إسماعيل من مقعده، لم يتخيل للحظة أن تنظيم الأسد المزعوم ضالع في قتل السادات. أمر له المحقق بكوب من عصير الليمون، تهاوى إسماعيل على كرسيه وخرجت كلماته مبللة بدموعه:

- يا فندم أنا ما ليش أي صلة بالسيد رئيس الجمهورية، أنا مواطن عادي زي ملايين غيري، كل صلتنا بالريِّس مجرد صورة، صورة حسني مبارك، ومن قبله الريِّس السادات، وقبلهم الزعيم جمال عبد الناصر، ومؤكد صورة اللي هيمسك بعدهم.. بعد عمر طويل طبعًا.

- صورة؟!

- أيوة يا فندم صورة، صورة في جورنال، صورة في تلفزيون، صورة على يافطة في شارع.

أشار إسماعيل إلى الحائط حيث صورة للرئيس مبارك معلقة في إطار خشبي رخيص، وينظر فيها نظرة بليدة إلى لا شيء، ثم هزَّ كتفه بعدها وسكت، فخاطبه المحقق بجدية:

- أنا عاوز أساعدك لكن إنت لازم تساعدني، منين اتحصلتم على جلد الأسد، وليه خططتم لدخول الجنينة والنوم في بيت السباع، هدفكم إيه من كل ده؟ اعتراض على سياسة الدولة؟ احتجاج على ظلم في الشغل؟ محاولة للفت الأنظار؟ ولا خطة بديلة لقتل الرئيس عند زيارة الحديقة لو فشل اغتياله في العرض العسكري؟

أفلتت من إسماعيل ضحكة غريبة، بدا كمجاذيب الحسين،

لكن سرعان ما جذبه البكاء لواقعه فأجاب بحسرة:

- قتل إيه واعتراض إيه يا فندم؟ إحنا راضيين وقانعين ولا عاوزين نلفت أنظار حد، إحنا بنستخبى من الناس في أتوبيس 95 كل يوم وأنا باحمي مؤخرة خطيبتي لا مؤاخذة، الحكاية وما فيها إننا عاوزين نتجوّز ولقينا إن دي أسرع وأسهل وسيلة، لكن بدل ما نبقى أسد ولبوة اكتشفنا إننا جوز حمير.

روى إسماعيل لوكيل النيابة حكايته وسجّلها بمحضره فارتاحت نفسه، شعر لأول مرة بأنه في واحة عدل خضراء وسط صحراء قاحلة، صار على عتبة الإفراج عنه، لكن المحقق قرر مواجهته بأحراز القضية أولًا، ظنّها إسماعيل جلود الأسود التي ارتدياها فبدا غير مكترث، لكن عند فض الحِرز وجد الحقيبة الجلدية التي عثروا عليها ببيته، تلك الهدية التي اشترتها عايدة من سوق الثلاثاء ولم يستخدمها.

أخرج منها وكيل النيابة مئات المناديل الورقية التي تحوي رسومًا هندسية دقيقة لمساقط رأسية لشقة مدينة مايو الجديدة التي لم يتسلماها، ثم فردها أمامه سائلًا بهدوء:

- دي رسومات هندسية لبيوت لقيناها جوة شنطة في بيتك وجزء منها كان في بيت خطيبتك.. قول لي بصراحة إنت عندك معلومات إن تنظيم الأسد كان ينوي تفجير مدينة مايو الجديدة بالكامل؟ أنا ممكن أعتبرك شاهد ملك لو ساعدتنا.

علت ضحكات إسماعيل مرة ثانية كمخبول، حتى أسكتته

نظرة زجر من المحقق، تماسك بصعوبة وهو يجيب بحشرجة ملأت حلقه:

- دي رسومات بنتخيل فيها بيتنا أنا وعايدة، دي مش بيوت حقيقية، دي شقة في خيالنا، وعايدة بتعرف ترسم ومتخرجة في فنون جميلة.. تفجيرات إيه بس يا باشا؟ ده أنا بخاف من بُمب العيد.

هزَّ وكيل النيابة رأسه بلا معنى، وسأله إذا ما كانت لديه أقوال أخرى، فترك إسماعيل بقية دموعه تنساب في صمت ردًّا على السؤال.

أقفل المحقق محضره وبدأ يُملي على كاتب التحقيق قراراته، خرجت الكلمات من بين شفتيه بعبارات تقطع رقبة إسماعيل بسكين "تِلم".. حتى إنه لم يدرِ بنفسه بعدما سقط مغشيًا عليه عقب آخر جملة قالها المحقق..

"يُحوَّل المتهم إسماعيل منصور الديب إلى مستشفى العباسية للصحة النفسية لبيان مدى سلامة قواه العقلية".

***

9

صاحب أول ضربة جوية

خرج إسماعيل من دار القضاء العالي مُقيدًا بقيد فضي يتلألأ تحت ضوء الشمس، تزين فردته اليمنى معصمه، بينما اليسرى تدور حول معصم مُجنّد لا يعرف إلا الصمت جوابًا لكل الأسئلة، قبع بعربة الترحيلات على الأرض وظل المجند وحده فوق الدكة الحديدية، أمامه ضابط لا يكف عن العبث بأنفه طوال الطريق ويودع كل ما يستخرجه منه فوق فخذه بعد مسح أصابعه في بنطاله.

تحركت العربة في هدوء كأنهم في طريقهم إلى نزهة بالقناطر الخيرية، هذه المرة اختفى الصحفيون والمصورون الذين ملئوا صفحات جرائدهم الأولى بصور إسماعيل وعايدة ومدير الحديقة ومساعده، بعدما تجاهلوا حارس بيت السباع هذه المرة، نشروا تفاصيل وأسرار تنظيم الأسد الذي شكّله بتمويل من الخارج لقلب نظام الحكم، قالوا إن التنظيم كاد ينجح في تنفيذ أهدافه لولا يقظة عين الأمن الساهرة التي لا تنام كما وصفوها، رصوا عبارات ركيكة ونمطية ملأت صفحات بكل الصحف المزينة بصورتي إسماعيل وعايدة.

ابتسم رغم تعبه متذكرًا وقائع جلسة المحاكمة، أتى يومها شبه محمول يجر قدميه على الأرض كمَن يذهبون به لغرفة الإعدام رغم عدم صدور الحكم بعد. تقرير الصحة النفسية بمستشفى العباسية أثبت سلامة قواه العقلية وكذلك عايدة،

وقف أقصى يمين القفص، نادى القاضي عليه باعتباره المتهم الأول في القضية، وسأله عن تهمته فأنكرها وكذلك عايدة، ترافع عنها المحامون الثلاثة الذين أتى بهم أبوها، صالوا وجالوا وألقوا بالمسؤولية فوق رأس إسماعيل وحده، حتى نهرتهم عايدة من أقصى يسار القفص، لا يراها من مكانه بوضوح، لكنه يسمع صوتها عاليًا قويًا يُطرب أذنيه فيرقص قلبه، ترحّم على قفص السباع الذي كان يسمح له بملامستها، بينما هذا القفص البشري لا يشعر فيه إلا باغتراب ووحدة.

ظلت عايدة تصرخ ببراءته حتى أسكتها القاضي بصعوبة، ثم قام أبوها واقترب من القفص ونهرها، فطرده القاضي من الجلسة وأكمل المحامون المرافعة، انتهوا لطلب البراءة لها وحدها، هزّ إسماعيل رأسه قانعًا، قال لنفسه لا بأس، المهم أن تفيق من الكابوس الذي ورطها فيه.

صاح القاضي وهو يخفض من نظارته الطبية حتى مقدمة أرنبة أنفه:

- معاك محامي يا إسماعيل؟

لم يكن لدى عمه من المال ما يسمح له بتوكيل محامٍ للدفاع عنه في هذه النوعية من القضايا، ولم يتحمس لها أعضاء جمعيات حقوق الإنسان، ولم تتعاطف معه منظمات محلية ولا دولية، ولا حتى سانده زملاؤه من حرّاس الحديقة، صار عدو الشعب كما وصفه رئيس تحرير جريدة "الجمهورية" في مقال طويل منذ أسابيع، ثم أعاد نشره قبل المحاكمة بأيام

ليُذكِّر الناس بجرائمه.

من وسط صفوف الجالسين بالقاعة انتصب الأستاذ عبد الحي غزال مُعلنًا تطوعه بالدفاع عن جاره إسماعيل الديب، وقف لبرهة مبتسمًا يتمايل يمينًا ويسارًا حتى سكتت كاميرات التصوير وهدأت أنوار الإضاءة، بسمل وحوقل، ثم قرأ ديباجة طويلة من ورقة ألقى فيها بالاتهام كله على الشيطان الذي وسوس لإسماعيل ارتكاب أفعال حمقاء، أرغى وأزبد، نافيًا عن موكله تشكيل تنظيم الأسد أو مشاركته في اغتيال السادات، أطال في شرح أفعال لم يرتكبها ولا دليل عليها بأوراق القضية، تحدث عن وطنيته وإخلاصه لمكان عمله باعتباره من مواليد حديقة الحيوان التي عاش بين ربوعها وكبر على أرضها وتنعم في خيرها، علت همهمات متفرقة من أركان القاعة أسكتها القاضي بدقات خفيفة من مقدامه ليغلف السكون المكان.

استرسل المحامي شارحًا طبيعة عمل إسماعيل كحارس لبيت الفيل باستفاضة، وصفه بأطيب المخلوقات رغم ضخامته وقوته، مؤكدًا أنه نباتي لا يأكل اللحم، ضجت القاعة بالضحك، وندت من القاضي ابتسامة كومضة سرعان ما ابتلعها حفاظًا على وقاره، ثم قال بحسم:

- ادخُل في موضوع القضية يا أستاذ لو سمحت وبلاش تفريعات.

فرد عبد الحي غزال ذراعيه من داخل روب المحاماة فبدتا

كجناحي زخ، وزعق بصوتٍ جهوري:

- أنا معايا مستند ينسف القضية كلها يا فندم.

ساد الهدوء القاعة وكأنها مقبرة، تعلقت العيون كلها بيد عبد الحي غزال وهو يعبث بحقيبته حتى أخرج منها ورقة مطوية فردها ببطءٍ فزاد من درجة التشويق، خلع القاضي نظارته بينما تقدّم المحامي نحو المنصة في تؤدة رافعًا الورقة عاليًا، متلفتًا تارة ناحية القفص، وتارة ناحية المنصة، قائلًا بثقة:

- أنا رفعت قضية على حديقة الحيوانات لتمكين موكلي، باعتباره مولودًا بها، من استرداد حقه في الإقامة بالاستراحة امتدادًا لإقامة أبيه، صحيح موكلي طلب التنازل عن الدعوى وسحبها لكن أنا رفضت والقضية اتنظرت فعلًا أمام المحاكم من حوالي شهر، صحيح اترفضت من أول جلسة، لكن عملت استئناف في الحكم، وعاوز أقدمه النهارده علشان أثبت للمحكمة سلامة نية موكلي وبراءته من أي مؤامرة منسوبة له، يا حضرات المستشارين القضية مدنية وموكلي مستأجِر وليس متهمًا، وأنا بطلب تمكينه من الاستراحة للإقامة فيها.

أثبت المحامي طلبه تاركًا المستند لدى سكرتير الجلسة، وعاد لمرافعته مستكملًا بيان تأثير حراسة الفيل على شخصية موكله حتى صار طيبًا مثله، تبادل القضاة نظرات فيما بينهم، كادت ابتسامتهم تفضح ضحكاتهم المكتومة بصعوبة، بالكاد نطق القاضي الجالس في المنتصف وهو

يحاول ضبط انفعالاته:

- المحكمة بتشكرك على مجهودك، وصحيح قضية استراحة حديقة الحيوان قضية مدنية لكن إحنا في محكمة الجنايات وموكلك متهم، وبناءً عليه يا أستاذ غزال بلاش تخرج عن موضوع قضيتنا.

قاطعه القاضي وهو لا يزال يترافع عن الفيل الذي يحرس إسماعيل بيته، ففتر حماسه، وظل صامتًا شاردًا لوهلة طالت عن المحتمل كمَن تلقَّى خبرًا حزينًا، ثم اختتم بصوتٍ خفيضٍ أقرب للهمس:

- أطلب البراءة، واحتياطيًا استعمال منتهى الرأفة، وفي جميع الأحوال تمكين موكلي من الإقامة بالحديقة.

- الحكم آخر الجلسة.

خرج القضاة لغرفة المداولة، ودارت فلاشات الكاميرات حتى أعمت عينَي إسماعيل وأصاب الصمم أذنيه من عشرات الأسئلة التي صُبّت فوق رأسه عن توقعاته للحكم كأنه في مسابقة. ابتعد عنهم موليًا الجميع ظهره، متعمدًا إطلاق بعض الريح في وجوههم بعدما ظل مكبوتًا ببطنه طوال انعقاد الجلسة، فانصرفوا عنه قاصدين محاميه عبد الحي غزال، الذي لم يبخل عليهم بالتصريحات، وأسهب في التوقعات حتى سئموا كلامه وانفضُّوا من حوله.

ظل عقل إسماعيل مشغولًا بعايدة، حاول الاقتراب منها لمّا انفسح مجال للرؤية بينهما، تبادلا نظرات صامتة، تفرس في

ملامحها من مبعدة والحسرة تنهش روحه، عايدة التي انشق القمر من وجهها وشق نهر العشق من عينيها وخرج النغم من ثغرها، باتت وردة ذابلة، جَفَّت وتخشَّبت، مالت على جنبها ولم يعُد متبقيًا إلا يد غليظة تقطفها، طار كل الكلام من فوق لسانه، فمد ذراعه لعله يلمس أناملها بيده المبسوطة.. لكنها كانت بعيدة عنه جدًا هذه المرة.

***

ترجرج جسد إسماعيل ثم تدحرج منزلقًا على أرضية عربة الترحيلات، اصطدم ببابها وشجّ رأسه، أخرج المجند الذي تكوّم فوقه منديله وكبس دماءه ليوقف نزيفه، ابتسم له ابتسامة مطمئنة مؤكدًا أن الجرح سطحي، عاونه على النهوض وسمح له بالجلوس على الدكة بجواره بعد استئذان الضابط الذي فتح باب العربة وهبط مستفسرًا عن سبب توقفها فجأة، نظر إسماعيل بصعوبة عبر فتحات أسلاك الفتحة التي تُشبه جراية الزنزانة، وجد الطريق مكدسًا بالسيارات على الجانبين، على يمينه تمثال نهضة مصر، وعلى بُعد خطوات منه حديقة الحيوان، مئات الجنود ينتشرون في طوابير طويلة تطوّق أسوارها، يصطفون بغير انتظام، يُشكّلون حزامًا أسود لا يسر الناظرين، وسطهم بضع نقاط بيضاء متناثرة، ضُباط بالزِّي الرسمي للشرطة يُعطون تعليمات عبر أجهزة لاسلكي ضخمة، ثم يستقبلون مثلها فيما يبدو فيأمرون الجنود بالاستعداد.

ألحّ إسماعيل على المجند المقيد معه ليعرف سبب توقفهم،

أطل برقبته من الطاقة بعد فتح شباكها بمفتاح صغير، وقعت عينه على زميل له، نحيف حد الهزال، يُباعد بين ساقيه ويتثاءب كل حين، بدا أنه آيل للسقوط في أي لحظة، سأله من داخل العربة:

- إيه الحكاية يا دُفعة؟

- تشريفة رياسة يا فندي.

قبل أن يقفا على التفاصيل وجدا الضابط المرافق لهما أسفل النافذة، تلقّى على جهازه اللاسلكي معلومات كأنهم يُجيبون عن سؤال إسماعيل والمجند بصورة رسمية، فهما أن الرئيس حسني مبارك يزور حديقة الحيوان صحبة أمير الكويت الذي أهدى حيوانات جديدة لمصر. لم يتمالك إسماعيل نفسه من الابتسام، ليس وحده في هذا العالم التعيس، هناك آلاف غيره ينتظرون دورهم ليكونوا حيوانات لبضعة أيام، حتى يعيشوا ما تبقّى لهم من حياة بصورة آدمية. تذكّر لحظة نطق القاضي ببراءته وعايدة من تهمة تنظيم الأسد واختلاس جلده، لكنه أدانهما بتهمة الفعل الفاضح فوأد فرحتهما، حكم عليهما بالحبس لمدة ثلاثة أشهر، ومع ذلك كان رحيمًا فأوقف تنفيذ العقوبة، ربما أراد أن يُعطيهما فرصة ليكونا حيوانات في الحياة لمرة ثانية.. هكذا حدّث إسماعيل نفسه.

صافحت عينه صورة لحسني مبارك بالحجم غير الطبيعي على بوابة الحديقة الرئيسية، لقطة يلوح فيها بيده للجماهير

مرتديًا نظارة سوداء ضخمة، الناس كلها تراه وهو لا يراهم على ما يبدو، لكن إشارة يده ناحية بوابة حديقة الحيوان تدعو المواطنين للدخول بغير مواربة.. أو هكذا خُيِّل لإسماعيل.

زحفت عربة ترحيلات أخرى مترًا في الزحام حتى صارت مجاورة لعربة إسماعيل، ثم سمع صوتًا يُناديه، وقف فوق الدكة الحديدية، لمح بالكاد عبر الجراية عايدة وسط سجينات كثيرات وهي تلوح له مُردِّدة اسمه، ساد سكون لوهلة حتى فضَّ بكارة الصمت صوت زئيرٍ عالٍ، تخلله الصفير إيَّاه الذي يُشبه مواء القطط، أفلتت من إسماعيل ضحكة عالية، في حين وضعت عايدة كفها فوق فمها وضربت بالأخرى صدرها، غمز لها بعينه اليسرى فاتسعت ابتسامتها كهلالٍ راح يكبر ببطءٍ حتى أضاء وجهها كله.

مرّت دقائق طويلة حتى غادر الرئيس مع أمير الكويت، انفضَّ المولد وتحرّكت عربتا الترحيلات، بعد أمتار قليلة انحرفت كل واحدة في اتجاه، لكن صورة عايدة وهي تبتسم ظلت آخر ما رأت عين إسماعيل.

"تمت"

القاهرة في 27 مايو 2024